د. سهام عبد السلام

ختان الذكور

بين الدين والطب والثقافة والتاريخ

رؤية

تصميم الغلاف



بين الدين والطب والثقافة والتاريخ

مرايا الكتاب

الكتاب خنان الذكور

بين الدين - الطب - الثقافة التاريخ

المؤلف د. سهام عبد السلام

المدير المسؤول رضا عوض

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة ٣٥٢٩٦٢٨/ ١٢

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس ٥٧٥٢٨٥٤

الإخراج الداخلى جوبى

جمع وتنفيذ الشركة الدولية لخدمات الكمبيوتر

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

رقم الإيداع ١٩٦٩٣ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى 977-6174-05-1

د. سهام عبد السلام

ختـــان الذكـــور

بين الدين - الطب - الثقافة - التاريخ

رؤية
للنشـــر والتوزيـــع
2006

■ إهداء ■

إلى المثقفين والمثقَّفات الرُوَّاد الذين بادروا بإثارة قضية ختان الذكور بأقلامهم في مصر عصام الدين حفني ناصف وأ. محمد عفيفي، ود. نوال السعداوي وأ. جمال البنا، فكانوا في هذه القضية مصَداقًا للمثقف التنويري المتسق مع نفسه.

وإلى أوّل رجال ونساء تَخَطَّوا الحواجز الاجتماعية والذاتية التي تَفرِض جدارًا من الصمت حول عادة ختان الذكور وتمنع التصدي لها: ماهر صبري، وماجد محروس، وهيثم صلاح، وأمل شفيق وأماني أبو زيد، رِفاق ورَفيقات درب العملِ على خلق حركة اجتماعية تهتم بالسلامة الجسدية للأطفال من النوعين.

■ المحتويات ■

■ شكر وعرفان ■

أتوجه بجزيل الشكر لأساتذتي بقسم الاجتماع والأنثربولوجيا بالجامعة الأمريكية، د. سينثيا نيلسون وأ د. نيكولاس هوبكنز على اهتمامهما بي طُوال فترة العمل في جمع المادة المَيدَانيّة و كتابة نص هذا الكتاب. كان أستاذي وأستاذتي يتابعان تقدّم خطوات عملي بِحماس، ويمدّاني بآرائهما السديدة وبمراجع مهمة، علاوة على تشجيعهما المعنوي الذي كان له أكبر الأثر في دفعي وتحميسي لإنجاز العمل

كما أتجه بالشكر إلى قسم الاجتماع والأنثروبُولوجيا بالجامعة الأمريكية الذي أعطاني منحة زمالة ما بعد الماجيستير التي أتاحت لي إنجاز هذا العمل

أشكر أيضًا الأصدقاء والصديقات تيم هاموند، مؤسس الهيئة الأمريكية لمنع الإيذاء والتشويه الجنسي الروتيني للذكور NOHARMM، وماريلين ميلوس، رائدة الدعوة لمنع ختان

الذُكور في الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسسة مركز المعلومات الأمريكي عن الختان NOCIRC، والباحث القانوني الفلسطيني أ. سامي الديب أبو ساحلية لمدّهم لي بمراجع ثمينة وتشجيعهم المستمر لي أثناء العمل.

و لا أجد من الكلمات ما يفي الصديقتين أماني أبو زيد وهبة هجرس، والصديق ماجد محروس حقّهم من العرفان والثناء على الجهد الذي بذلوه في مراجعة مُسوّدات البحث، وما أضافوه لي من أفكار ثاقبة واقتراحات عملية كما أدِين بالشكر للصديقة صفاء عبد المسيح التي قامت بمراجعة النص في شكله الأول كرسالة علمية. وأتوجه بجزيل الشكر والعرفان للصديقة د. سارة نهاد-عناني، التي قامت بالمُراجعة النهائية وإعادة صِياغة الرِسَالة وإعدادها في هيئة هذا الكتاب.

أما النساء والرجال اللاتي والذين استجابوا للحوار معي أثناء العمل الميداني، ومنحوني وقتهم، وفَتَحوا لي قُلُوبهم بكرم وإخلاص، وسيظلّون رغم هذا مجهولين للقارئ، فأتوجّه لهم جميعًا فردًا فردًا بأسمى آيات الشكر والعرفان، فلولا تعاونُهم واستجابتهم ما كان هذا الكتاب.

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

■ تصدير ■

تطَور وعيي بموضوع ختان الذكـور عبر مراحل عدّة. لم يكن لي في البداية موقف مُؤيّد أو مُـعارض لختان الذكور، بل لم تكن قضية مـطروحة أصلاً على وعيي لفترة طويلة من حـياتي. نشأت في أسرة أقلعت عن عـادة ختان الإناث كجزء من الأخـذ بأسباب المدنية الحـديثة، وكنت أسمع والدي ووالدتي يحدِّثان الجـيران عن أضرار ختـان الإناث. وكانا يردفان الحديث بأن خـتان البنات ضار ولا يشبه ختـان الأولاد، الذي لا يتعدّى قص قطعة جلد زائدة لا توجد بها حسـاسية، فهي عملية بسـيطة للولد مثل قص الأظافر وعندما التحقت بكلية الطب درست في مُقرر الجراحة عملية ختان الذكور، التي كـانت الكتب التي درستـها وقتـئذٍ توصي بإجـرائها للوقايـة من سرطان القضـيب للذكر وسـرطان عنق الرحم للأنثى التي سيـتزوجهـا مسـتقبـلاً، وتُوصي أيضًا بعملـها للرُضَّع بدون

تخدير، بحجـة أنَّ الرضيع لا يشعر بالألم كـالطفل الأكبر سنا أو الإنسان البالغ

قبلت ما تعلمـته في البيت والجامعة كمُـسلَّمات، إلى أن جاء يوم شاهدت فـيه بيـانًا عمليًا بما كنت لا أعـرفه إلاَّ على المسـتوى النظري. وصدمني ما رأيت، ودفعنـي إلى التشكك في صحة كل النظريات التي تبرر ختان الذكور. كنت وقتها طبيبة حديثة التخرج سنة ١٩٧٢، وقـد بدأت العمل لتـوي بقسم الجِـراَحة بمسـتشـفى الدمرداش الجامعي. في أحد الأيام، طلب نائب الجِراَحة من أطباء الامتياز البـقاء في العيادة الخارجية بعـد انتهائهم من الكشف على المرضى لأنه سيدربهم على ختان الذكور كان الطفل الذي سيختنه النائب في حوالي الشهر الأول من عمـره، سليمًا لا تبدو عليه أي أعراض مـرضيـة. لم يعطه النائب مـخدرا، وصـرخ الطفل أثناء

إجراء الختان صراخًا ثاقبًا، ورأيت عليـه علامات الصدمة العصبية من شُـحـوب للوجـه، والعـرق الغـزيـر ومنذ هذه المرة الأولى تشككت في جدوى كل ما دُرِّس لي عن ختان الذكور، فرغم أنني لم أكن أعلم شـيئا عن تركـيب ووظيفـة الغَلَفَة، إلاَّ أن عـلامات الصدمة والكرب التي رأيتهـا على الطفل الذي خُتِنَ أمامي جعلتني أُدرك بمجرد الحس العام والتفكير النقدي أن ختان الذكور جِزارة لا جِراحة، فـلا يُوجد أي مبِّرر لإجراء جـراحة لطفلٍ سليم، ناهيك عن أنها تجـربة صدميـة. وبدأت منذ ذلك الحين في مقارنة خـتان الذكور بخـتان الإناث، فلم أجد فـرقًا. وقررت ألا أجري خـتانا لأي طفل ذكر (فـختان الإناث لم يكن مطروحًـا أصلاً في العلوم الطبية) وأثناء عملي كنائبة لجـراحات الطوارئ استقبلت عددا من الأطفال الذكـور أتى بهم ذووهم بمضاعـفات مثل النـزيف الشديد والصدمة العصبية بعد الختَان، مما زاد يقيني بصحة موقفي. وبدأت في مخاطبة كل من ينجب ذكرًا من معارفي، فأفلحت في حالات نادرة لا يبلغ عـدد أصـابع الـيد الـواحـدة، وفـشلت في مـعظم الأحـيان. فـهؤلاء المثـقفـون الذين لا يفكرون في تخـتين بناتهم يتمسكون بشدة بختان أبنائهم.

وعندما بدأت الحركة النشطة ضـد ختان الإناث في مصر سنة ١٩٩٤ أدهشني أن الأطباء والشُّيُوخ الذين يعظون الناس ضد ختان الإناث يؤكـدون دائمًـا عـلى ضـرورة خـتـان الذُكُـور، وأن أهم الشخصيـات العاملة في مجال مُحاربة خـتَان الإناث يحذرون من تناول ختان الذكور أثناء الكلام ضـد ختَان الإناث، وكانوا يصدون

أي شـخص يسـأل عن خـتـان الذكـور بقـولهم «أن هذا ليس موضـوعنا». ورغم ذلك، بعد أن كُسِر حـاجِز الصـمت المحيط بختان الإناث في ١٩٩٤، نشرت الصـحَافة المصرية بعض حالات لضحايا الختان من الجنسين. وأينمـا ذهبتُ لإجراء حوار عن ختان الإناث كان الناس يسـألونني أيضًا عن ختان الذكـور، حتى بعض الرجال من المثـقفين الذين تبنّوا قضيـة العمل على مكافحـة ختان الإناث قـد أبدوا ملحوظات تنم عن شـعورهم بأن خـتان الـذكور يستحق تناوله أيضًا كقضيـة، وإن لم يتجاوز هذا الشعور تعليقات عابرة. فمـثلاً، كنا في ندوة عن ختان الإناث في المنـظمة المصرية لحقوق الإنسـان، فقال لي أحد المشـاركين في الندوة، وهو طبيب شاب أنه يتـذكر تجـربة ختانه وهو طفل في الـسادسة من عـمره، وأنها كانت تجـربة صدمية(*) ينطبق عليها كل مـا يقال عن مَضَار خـتـان الإناث، وتعجّـب من أن المدافعـين عن حقـوق الإنسـان يتجاهلون هذه الحقيقة. وفي مـرة أخرى كُنت أصمم شعارًا لحملة ختان الإناث، عبارة عن الفلاحة المصـرية «تمثال نهضة مصر» وقد احتضنت فتاة بدلاً من أن تضع يدها على رأس أبي الهول. شاهد زميل آخـر التصـميم فـقال لي: «مـفروض تحضن بالذراع الـثاني ولد». من هنا، بدأت في تدعيم موقِفـي العملي الرافض للمساس بأجسـاد الأطفال أيًا كان نوعـهم بقراءات نظرية في الطب والفـقه والاجتماع.

(*) تجربة صدمية تعنى حدث أصاب الفرد بصدمة من هول ما تعرض له من أذى.

وضمن قراءاتي في إطار الأبحاث التي أجريتها أثناء دراستي للغة الإنجليزية القانونية بهيئة «الأميديست» ثم بقسم الاجتماع والأنثروبولوجيا بالجامعة الأمريكية عرفت المزيد عن الأصل الثقافي المشترك لختان الجنسين، كما عرفت أن الدراسات الطبية الأحدث قد أثبتت خطل الاعتقادات التي سادَت عن الفوائد الصحية لختان الذكور (كما سيأتي تفصيلاً في الفصول التالية) حاولت نقل ما عرفته من معلومات إلى بعض معارفي، ومعظمهم رجال ونساء نشطين ونشطات ضد ختان الإناث، وبينهم عدد لا بأس به من الأطباء والطبيبات. لم يعرني معظمهم أذنا صاغية، أو استمعوا لي ثم شككوا في ما لدي من معلومات جديدة، دون حتى أن يحاولوا الإطلاع عليها والأدهى أن الكثير من المثقْفين والمثقّفات الذين يحاربون ختّان الإناث لأنه انتهاك بدني للنساء يجحف بحقوقهن الإنسانية دون أن يكون له سند علمي رشيد، يدافعون عن ختان الذكور، مستخدمين المبررات نفسها غير الرشيدة التي يستخدمها مؤيدو ختَان الإناث. البعض الآخر ممن تحدثت معهم أبدوا تفهما للمعلُومات الجديدة، لكنهم أبدوا أيضًا ترددًا في التحرك ضد ختان الذكور. وقليل هم من قبلوا المعلومات الجديدة، بل أبدوا أيضا أسفهم لأنهم لم يعرفوها قبل أن يختنوا أبناءهم، والأقل أبدوا استعدادا لبث ما حصلوا عليه من معلومات للناس. ومن هنا شغلني التفكير في سؤال: كيف يتأتى أن يدعو المثقفون إلى التنوير في بعض جوانب الحياة ثم يحرصون على

التعتيم على بعضها الآخر؟! أو بمعنى آخر، أيمكنُ أن يلعب المثقفون دورا في التعتيم لا التنوير؟

من هنا، عندما نلت منحة الزمالة لما بعد الماجستير من قسم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس والمصريات بالجامعة الأمريكية، فكّرت في إجراء هذه الدراسة. أجريت حوارا فرديا معمقا مع ٢٣ مثقّف ومثقّفة (انظر/انظري الملحق لمعرفة تفاصيل عن توزيعهم حسب مهنهم، وفئاتهم العمرية، ودياناتهم). بدأت حواري مع كل شخص باستطلاع معارفهم/معتقداتهم، وخبراتهم الملموسة، واتجاهاتهم نحو ختَان الذكور باعتباره قضية مسكوت عنها من قضايا التعامل مع الجسد البشري بحكم ذكورة أو أنوثة الفرد (وهو ما يعتبر أحد اهتمامات دراسات «النوع»، أي الدراسات المعنية ببحث الهوية والدور الاجتماعيين للرجال والنساء): ثم عرضت عليهم بعض المعلومات عن تركيب ووظائف الجزء الذي يقطع في الختَان (واسمه الغلفة) ومضار قطعه، أعدت الحوار معهم حول احتمالات تغير اتجاهاتهم نحو هذه القضية ثم حللت البيانات التي حصلت عليها منهم، فتوصلت إلى استنتاجات شارحة لأسباب تعتيم هؤلاء المثقّفين «التنويريين» على موضوع ختَان الذكور، وكان هذا الكتاب الذي بين أيدينا

الفصل

الأول

1

مقدمة عامة عن الموضوع

ما الحكاية؟

ختَان الذكور أكثر انتشارًا من ختان الإناث، سواء في مصر أو على مُستوى العالم، إذ يقدر عدد من يختنون سنويا من الذكور على مستوى العالم بـ ١٣,٣ مليون ذكر، بينما تختن ٢ مليون أنثى سنويا، ومعظم من يختنون من الجنسين أطفال[1] وفي ختان الجنسين يتم قطع جزء سليم حساس من جسد طفل أو طفلة لا يملكان رفض ما يجري لهما ولا الدفاع عن نفسيهما، ودون رضاهما. وفي الحالين يوجد ضمنا عنصر تحكم المجتمع في النزعات الجنسية للصغار. ومما يُضاعف من أهمية الدراسة أن بعض الأطباء يُروجون لدرجة «بسيطة» من ختان الإناث يزيلون فيها غلفة البظر كليًا أو جزئيًا بحجّة أن ذلك يماثل ختان الذكور

(1) Denniston, 1997; DeMeo, 1997.

الذي يزعمـون أنه مفيد وليس ضـارًا، وبالتالي يزعمـون أن عمل إجراء مماثل للأنثى لن يضرها. بل أن بعض الأطباء وصفوا أنواعا من هذه العمليـات بحجة أنهم بهذا يسـاهمون في مكافحـة ختان الإناث[1] رغم ذلك، لم تدرس العـلاقة بين خـتان الذكـور وبين العـادات السـائدة التي تـرسم صـورة الأنوثة والذكـورة، وتحـدد سياسات القوى التي تحكم العـلاقة بين الجنسين في مصر وبذلك يكون هذا الكتاب بحثًا رائدًا في هذا المجال.

الختان كما يتم اليوم مُمارسة نابعة من تحيزات المجتمع الأبوي. ويتضمن النظام الاجـتماعي الأبوي نوعين من التحيز، تحـيز قائم على النوع، وآخر قـائم على الفئة العمرية. وفـي الحالين، يعاني الطرف الأضعف من التـمييـز ضده. فعـلى مسـتوى النوع تعاني

(1) Karim 1996.

النساء وعلى مُستوى الفِئَة العمرية يعاني الأطفال. وغالبا ما تُجمع النساء والأطفال تحت فئة واحدة، هي فئة القُصر الضعفاء. من ثم تعاني النساء مِن تدنِّي أوضاعهن مقارنة بقرنائهن الذكور من الفئة العمرية نفسها، ويعاني الأطفال من الجنسين[1] يمكن أيضًا أن يتضمن ختان الذكور تمييزا ضد النساء، فأحد تفسيراته أنه قطع رمزي لرابطة الطفل الذكر بأمه لفصله عنها وعن مجتمع النساء وإلحاقه بمجتمع الرجال[2] وقد لاحظ بعض الباحثين أوجه تشابه بين ختان الإناث والذكور[3] حظي ختان النساء باهتمام الكثيرين والكثيرات من العاملين في مجال حقوق الإنسان والصحة الإنجابية وتنمية المجتمع، وهم يُعَرِّفون أنفسهم أو يُعَرِّفهم الآخرون بأنهم مثقفون ومثقفات، ومنهم أطباء وطبيبات يمارسون مهنة الطب إلى جانب نشاطهم الاجتماعي ضد ختَان الإناث. يرتكز هؤلاء المثقفون على العلم الحديث كأداة لطرح مفاهيم جديدة عن المرأة وجسدها ونزعاتها الجنسية ودورها الاجتماعي وحقوقها الإنجابية والإنسانية، التي تتنافى جميعًا مع نسق القيم التقليدي الذي يستند إلى معتقدات لا تصمد للبراهين العلمية الحديثة. لكن المثقف قد يأخذ موقفا تنويريا حداثيا من إحدى القضايا، ويتردد في أخذ نفس الموقف من قضايا أخرى، متأثرًا بخبرة نشأته السابقة في إطار نسق القيم التقليدي[4] وعندما تتعلّق القضايا بالتصرف في جسد

(1) Janeway, 1980.

(2) Turner 1967.

(3) Kennedy, 1970; Lightfoot-Klein, 1997.

(4) Gramsci 1971.

الإنسان، يكون للمثقفين عامة، والأطباء منهم خاصة، أهمية إذ يقودون المجتمع بمشاركتهم بالرأي والسلوك في إرساء المرجعية الفكرية السائدة بخصوص القضية المثارة، وباشتباكهم في الصراع الفكري حولها كطرف ذي كلمة مسموعة[1] يظهر من بين المثقفين النشطين في مجال خدمة المجتمع رواد التغيير الاجتماعي، لكنهم قد يسهمون أيضا في استمرار ركود بعض القضايا المجتمعية. ويكون المثقفون رواد تغيير أو ركود حسب وعيهم بلعبة توازنات القوى السياسية وموقفهم من أطرافها.

والفكر النَسَوي من النهج الفكرية التي ساهمت حديثا في السعي نحو التغير الاجتماعي. ومن أهم إضافات الفكر النسوي ربطه بين المعرفة والسلطة، ليس فقط من حيث أن المعرفة قوة، بل أيضا من حيث أن الحقَّ في المعرِفة تحكمه شبكة علاقات قوة تسيطر على منح المعلومات للأفراد والجماعات أو منعها عنهم حسب موقعهم من هذه الشبكة[2] في هذا الإطار، أفترض أن الاتجاهات المؤيدة لاستمرار عادة ختان الذكور ترتكز على تحيزات اجتماعية تهدف إلى الحفاظ على مراتب التسلط والخضوع بين النوعين وبين الأجيال في المجتمع الأبوي الراهن، وأفترض أن تحليل المعارف والمعتقدات والخبرات التي تشكل الخطاب القائم خلف هذا الاتجاه قد يكشف جوانب خفية في سياسات القوة التي تحكم العلاقات الاجتماعية بين النساء والرجال.

(1) Frankenberg 1988.

(2) Lennon and Whitford 1994: 1.

بناء على ما سبق تطرح هذه الأسئلة نفسها:

لماذا يُعارض بعض المثقفين (و الأطباء منهم خاصة) ختان الإناث بناء على معطيات الفكر العلمي الحديث الرشيد، لكنهم يرفضون اتخاذ نفس الموقف من ختان الذكور؟ ما هي خلفيات مؤيدي ومعارضي ختان الذكور؟ وهل تُشكّل توعية العامة بِمَضَار ختان الذكور خطراً على جهود مكافحة ختان الإناث كما يزعم بعض المثقّفين؟ وهل يمكن للنساء أن يتحررن وحدهن إذا أهملن كشف تحيز المجتمع الذكوري ضد الأطفال الذكور؟

من خلال الإجابات على الأسئلة السابقة نهدف إلى الكشف عن التحيزات والمصالح وتوازنات القوة الكامنة في عمق الموقف المؤيد لاستمرار ختان الذكور في مصر، والتي تختفي تحت المُبررات التي تطفو على السطح، مثل الصحة والدين

❁ ❁ ❁

الفصل

الثانى

2

التاريخ الثقافى للختان

١-التاريخ الثقافي للختان في المجتمعات ما قبل الحديثة

اهتم عـدد من علماء الإنثـروبولوجـيا بدراسـة طقس الختـان وتحليل دلالاته عند مُخـتلف الجماعـات البشرية، سـواء منها التي تعيش في تنظيـمات اجتماعـية ما قبل حديثـة، أو التي تعيش في البلدان الصناعيـة الحديثة. وجـد العلماء الذين درسوا الجمـاعات البشرية أن عادة الختان قد عرفتـها الكثير من الجماعات البشرية منذ فجـر التاريخ. فـمثلا، درس جـيمس ديميو في مـقَاله «الانتـشار الجُغرافي لأنواع التـشويه الجنسي للذكور والإناث»[1] مجتـمعات عدة ما قبل حديثة تتميز بالاعتماد على اقتصاد الكفاف، ووُجد أن الشعُوب التي تُمارس الخـتَان تحمَّله بقيم انفعالية عـالية ولا تتصور الحياة بدُونه، بيـنما تنظر الشعوب التي لا تُمـارس الختان إلى هذه

(1) DeMeo 1997.

العــادة بازدراء. حاول ديميــو كشف العــوامل التاريخـية وعــوامل التبادل بين الثقافات المسؤولة عن اسـتمِرار الختَان بين الشعُوب التي تُمارســه رغم أن طابعه الأليم الضــار ظاهر للعيــان. يصف ديميو درجات مخـتلفة من التشويه الجنسي للذكــور، أبسطها نوع يجرى في بعض مناطق آسـيــا، ويتم فيــه شق الغَلَفَــة دُون فصلهــا عن الجسم، يليه في القسوة الختان، وفيه يتم استئصال الغَلَفَة، وينتشر في أفريـقيا وبعض بـلدان أسيا وجـزر المحيط الهــادي. يلي ذلك سَلْخ القضِيب، وهي عــادة كانت مُنتشرة في الجزيرة العـربية حتى وقت قريب، وكــانت تجرِى للرجل قـبل الزواج مبــاشرة. ثم شق قــاع مجــرى البول بطُــول القضــيب، ويُمارســه سكّان اسـتراليــا الأصليون. وحيثما يُجْرَى التشويه الجنسي للذكور في سن المراهقة أو الشباب يكون هدفه اختبــار قُوّة تحمل الشاب. وجدت لوحات

جدارية تمثّل ختَان الرجال في مصر القديمة سنة ٢٣ ق.م. لكن ديميو يرجّح أن المصريين لم يخترعُوا الختَان، بل انتقل إليهم مع غُزاة من البدو حوالي سنة ٣١ ق.م. وقد تميّزت ثقافة هؤلاء الرُعاة بِسمات الثقافة الذكورية المتسلّطة مثل تأليه الملوك، ووجود طبقات الكهنة والمُحاربين، والغُلو في بناء المعابد والمقابر الفخمة. ويرى ديميو أن الشعُوب التي تختن الذكور في الوقت الحديث تتسم ببعض هذه الصفات. ولا يعني عدم وجود عادة الختان في بعض المجتمعات الذكورية أنها أقل حرصا على التحكم في الصغار، فلديها ممارسات خشنة أخرى.

يرى ديميو أن الإخلال بعلاقة الحمَاية والرعاية التي تربط بين الأم وطفلها وإيذاء الأطفال عوامل مهمة لاستمرار المجتمع الذُكوري العنيف المتميز بالنزعات العدوانية، وأن التاريخ يعلمنا أن تعديل هيكل العَلاقات الاقتصادية وحده بدُون تحدي عادة إيقاع الأذى بالأعضاء الجنسية لصغار الذكور والإناث لن يأتي بالتغيير الاجتماعي المرجُو نحو مجتمع أكثر مُسالمة وإنسانية تجاه كل أفراده على قدم المساواة. وحيث أن هناك ارتباط بين ختان الذكور وختان الإناث بدليل التشابه بين توزِيعهما الجُغرافي وخلفيَاتَهما الثقافية ودوافَعهما النفسية والاجتماعية، حيث ينتشران في المُجتمعات التي يتسيد فيها الذُكور على الإناث والكبار على الصغار فلابد من تناولهما كقضية واحدة.

و قد تناولت بعض الدراسات الختَان كظاهرة ثقافية مُوغلة في

القدم، وحاولَت التنقيب عن علاقته بالنظام الاجتماعي السائد في مـجتـمعـات عـدة قديمة. من أهـم هذه الدراسات دراسـة برونو بيتلهايم عن الختَان في كتابه **جروح رمزية: طقوس البلوغ والذكر الحسود**[1] يرى بيتلـهايم أن ختـان الذكور قد نشـأ بسبب حـسد الرجال للنسـاء على خصُوبتهن التي لُوحظ ارتبـاطها بنزول دم من أعضائـهن الجنسية عند البلوغ، فكان ختـان الذكر وسيلة مـحاكاة رمزية لهذه الخاصية الأنثوية. كما يصف بيتلهايم نظرية أخرى ترى أن الختان يعتـبر بمثابة إخصاء رمزي يجـريه الذكر المسيطر (الأب) على أجـساد الذكـور الخاضـعين لوصايـته ليُـخفِّف من قلقـه من احتمـال استيلائهم على نسائه نشـأ الختان في أماكن متـفرقة من العـالم وسط قبـائل وشـعوب مـختلفـة، لكنه كـان يؤدي نفس الوظائف الاجـتمـاعـية ويـرى بيتلهـايم أن مـثلَ هذا النوع من العَلاقَات بين الكبار والصغار لا زال موجودًا في المجتمع الحديث، حيث يستمتع الراشدون بإشباع غرائزهم لكنهم يحرمون ذلك على القُصـر، ويلزمُونهم بقواعد سُلوك صـارمة أكثر مما يُطبّـقونه على أنفسهم

يصف بيتلهايم الوظيفة الرمزية الجنسـية التي يلعبها الختَان في المجتمع الذُكوري، حـيث يعتبر الانتصاب من أهم معـالم اكتمال الذكـورة وكشف رأس القـضـيب بالختـان يجـعله يأخذ مظهـر الانتـصاب دائمـا حتى في حـالة الارتخاء بذلك يُحـوِّل الختـان

(1) Bettelheim 1954.

الطفل الذي لم تتضح معالمه الجنسية تحويلاً رمزيًا إلى ذكر، فيفصلَه عن عالم النساء ويُلحقه بعالم الرجال. ولكي يحدث هذا التحوّل تشمل الاحتفالات الطقسية المُصاحبة للختان تمثيلاً لموت الطفل موتًا رمزيًا ثم إعادة بعثه في صورة ذكرية جديدة، مؤكَّدة رمزيًا بكشف رأس القضيب. وهذا الميلاد الجديد يحدث هذه المرة بواسطة الأب لا بواسطة الأم. أي أن ختان صِغار الذُكور يلعب دوراً رمزيًا مزدوجًا لتأكيد سيطرة كبار الذكور، مرة بمنحهم سُلطة الإخصاء الرمزي للصغار، ومرّة بمنحهم قدرة رمزية على فعل لا تملكه إلاّ النساء ولادة طفل ويزداد هذا الرمز قوّة لدى الطائفة اليهودية مع تحوّل سن الختان من قرب البُلوغ إلى الأيام الأولى من العمر، حيث يكون الطفل في أضعف حالاته تحت رحمة سلطة أبوية مدعمة بسلطة إلهية جبارة. ويرى بيتلهايم في الخلاصة إنه «سواء كان الختان من اختراع الرجال أم النساء، وسواء كان يلبي رغبات الرجال أم النساء أو الجنسين معًا فإنه لا يمكن أن يرمُز إلى الإخصاء إلاّ في مجتمع تكون فيه العُقوبات الشديدة -سيما على التجاوزات في السلوك الجنسي- جزءًا من الإطار المرجعي للفرد، ولا يكون هذا إلاّ في مُجتمع تسوده الرموز الأبويَّة المهددة للصغار والمتغلبة عليهم بقوتها»

وترجّح بعض الدراسات الأحدث ارتباط الختان بالمجتمع الذُكُوري، مثل مقال آشلي مونتاجيو «البشرية التي جرى

تشويهها»[1] وفيه يربط نشأة عادة الختان للجنسين بظهور المجتمع الذُكوري، كما يفسر استمرار هذه العادة ببقاء القيم الذكورية، رغم اختلاف الدوافع الحديثة عن الدوافع القديمة للختان. يقول مونتاجيو في مقاله: «إن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يجري عمليات تشويه لأجساد أفراده باسم العقل والدين والعادات والتقاليد والعُرف والأخلاق والقانون. وأي حجج نسمعها في الوقت الحاضر لتبرير الختان كما يجرى الآن تختلف عن دوافعه الحقيقية، حيث أن هذه الدوافع تختفي تحت حجُب ثقيلة من التبريرات الأسطورية والدينية والطقسية والدنيوية. وبمرور الزمن يزداد رُسوخ هذه الحجَج، فينتقل تبرير الختان من أرضية دوافعه الأصلية إلى أرضية التحيّز لهذه الحجج الجديدة. لذلك يصعب الوصول إلى تفسير معقول لنشأة الختان. وعلى الباحث الذي يسعى للوصُول إلى مثل هذا التفسير أن يتخلّص من تحيّزه لأي نوع من أنواع التبريرات. وعند تعرية الختان من أغطيته التي يتحجج بها الناس كل حسب تحيزاته، سنواجه بمشكلة التركيب الاجتماعي للواقع. فالواقع ليس مفهُومًا مُطلقًا، بل هو واقع اجتماعي. لذلك يختلف مغزى الختان باختلاف الواقع الاجتماعي. يلحظ مونتاجيو غياب الختان في المجتمعات ما قبل الذُكُوريَّة القائمة على المُساواة بين الجنسين، مثل مُجتمعات جامعي الثمار، ويستنتج من هذا أن الختان اختراع ذكوري. لاحظ

(1) Montagu 1991.

مونتاجيو أن الختَان قد يعنِي مُحاكاة رمزية للأنثى بإسالة دم من العُضو التناسلي للذكر، مثلما يحدث في القبائل الأسترالية الأصلية. ويستفيض مونتاجيو في شرح مغزى ختان الذكور لدى القبائل الأفريقية. يستند الختان في هذه القبائل على عقيدة ازدواجية الخلقِ، فالفرد يولد مُزدوج الجنس. تكمن روح الأنوثة لدى الذكر في الغَلَفة، وروح الذكورة لدى الأنثى في البظر. ووفقًا لهذه العقيدة يعتبر الختان عملية تطهير للرجل من رُوح الأنوثة، التي يُعتقد أنها تضرب غشاوة على روح الرجل تحُول بينه وبين الفهم السليم، وبالتالي تمنعه من أن يكون عنصرًا اجتماعيًا صالحًا. وبالختَان ينتهي وجود الرجل كفرد مُستقل ويبدأ وجوده كفرد اجتماعي، لأن الختان يمثل انقطاعا في تكامل الكيان الإنساني للفرد عندما يفصل عنه جزأه الأنثوي، فيندفع بتأثير حالته الجديدة إلى البحث عن تآلفه المفقود بالسعي إلى الزواج من امرأة. لذلك يعتبر الختان شرطًا للزواج، لأن الرجل الذي ينتزع منه الجانب الأنثوي فيه يجد دافعًا للبحث عن زوجة تعوضه عن أنوثته المفقودة، والمرأة التي ينتزع منها الجانب الذُكُوري فيها تتقبّل التعويض عنه في شخص زوجها. وبذلك يُحوِّل الختان الواحد إلى اثنين، والفرد إلى كيان اجتماعي يسعى للزواج والإنجاب لضمان استمرار المجتمع. وفي الخلاصة يقول مونتاجيو «إنه مهما كان المصدر الثقافي للمُعتقدات المحيطة بالختان، فإنه يظل فعلاً يفعله الناس بأيديهم، مدفُوعين بنفس الدافع: رغبة الرجال في

تأكيد مكانتهم العُليا وسيطرتهم على الآخرين الأدنى منهم بحُكم السن أو النوع. وبذلك يؤسس الختَان قاعدة أن أي تحكُم من القوي في الضعيف شئ طبيعي وجزء لا يتجزّأ من تركيبة الواقع الاجتماعي.

من الدراسات التي تتبنى وجهة النظر نفسها مقال رونالد إيمرمان وويد ماكاي «تحليل بيولوجي/ ثقافي للختان»[1] يُحاول إيمرمان وماكاي الربط بين الأثر البيولوجي الذي يتركه الختان على المُخ وبين تبني بعض الجماعات البشرية للختان كعادة ثقافية متوارثة. يرى إيمرمان وماكاي أن وجود الذكور في حالتهم الطبيعية بلا ختان كَفِيل بتوفير مُتعة جنسية وافرة للرجال والنساء على قدم المُساواة، فلابد إذن أن الختان يوفّر فائدة للمجتمع تربو على حرمان الجنسين من هذه المُتعة.

يرى الباحثان أن الختان ينتج عنه تغير في مراكز الإحساس الجنسي فيقلّل من قُدرتها على الاستجابة للمثيرات، كما يمنع إفراز مادة السميجما المرطبة للقضيب، وهي ذات رائحة جذابة جنسيًا للنساء. يعتقد الباحثان أن هذه التغيرات التي تحدث لجسد الذكر بالختان تخفض فرص انجذاب النساء للرجال وفُرص المُشاحنات بين ذكور القبيلة الواحدة، فتزيد من قُدرة القَادة على التحكم في مجمُوعات الشباب وتوجيههم. وبذلك تقوى علاقات رجال القبيلة ببعضهم البعض في مُواجهة أعداء قبيلتهم.

(1) Immerman 1998.

يرجح باحثون آخرون نشأة الختان في أحضان المُجتمع الأمُومي. من أمثلة هذه الدراسات مقال دوين فوسكولي «من صورة الكون القائمة على التناسل إلى تجميل الأعضاء التناسلية: نظريات نشأة ختان الذُكُور كطقس تعديلي»[1] يرى فوسكولي أنه في عُصور مُوغلة في القدَم قبل نشأة المجتمع الذكوري، ربط الناس بين النظام الكوني وبين جسد المرأة لقدرته على التكاثر، وإفرازه للدم واللبن، وارتباط نشاطه الحيوي بدورة القمر، فقدّسوا جسد المرأة. وحاول الرجال «إصلاح» أجسادهم لتُحاكي جسد المرأة، ومن هنا، تم ابتكار عملية الختَان، التى تتيح للرجال إسالة دم من أعضائهم التناسلية كالنساء ولو بشكل رمزي. ويُشبه هذا الدافع الحجّة التي تُقال الآن بأن الختان عملية تجميل

و بعد نشأة المُجتمع الذُكُوري فقد الختان مغزاه السابق، لكنّه استمر بعد تعديل الدافع إلى عمله من التشبّه بالنساء إلى الابتعاد عن التشبّه بهن، كما اكتسب بُعدًا آخر هو الخضوع لسلطة الذكر المسيطر، وبذلك تحول مغزى الختان من التوحد مع الإلهة الأنثى إلى رمز للخضوع للأب والانفصال عن عالم النساء. من التعديلات التي أُجريت على عادة الختَان بمرور الوقت تعميمه على الذكور كافة في المجتمعات التي تمارسه. ففي المجتمعات الأمومية لم يكن الختَان فرضًا إلاَّ على الذكر الذي يُجامع الملكة الكاهنة، ومثلما تَحوّل التدخين من طَقسٍ مُقدّس يُمارسه الكهنة إلى نشاط

(1) Voskuli 1994.

دنيوي يُمارسه الصفوة، ثم إلى عـادة يُمارسها عامة الناس، تحول الختان أيضًا من طقس ديني للخاصة إلى طقس دنيوي عام.

و قد درس فـيكتـور تيرنر طقس الخـتان لدى قـبيلة النديمـبو بزامـبيـا، وهي قبـيلة تتكوّن من قرى عـدة، وتقيم في كل قـرية مجـموعـة تربطها عـلاقة نسب من جـهة الأم. حلل تيـرنر هذا الطقس في كتابه **على حافة الأحراش**[1] يقول تيرنر أن من أهداف الختـان في قبيلة النديمبـو تعديل عـلاقة الطفل الذكر بأمـه وأبيه، بحيث يُعاد تنظيم العـلاقات بينهم لتأخذ اتجاهات مُـغايرة لما كانت عليه قبـل ختان الطفل. في هذه القبـيلة يرتبط الأطفال عن طريق أمهـاتهم بالقرية، بينمـا يرتبطون عن طريق آبائهم بجمـاعة أوسع تتوزّع على قرى عدة يعيش فيها أبناء عمومتهم.

من المعتاد أن يرتبط الصبية قبل ختانهم بأمهّاتهم داخل الأسرة ويُساعدونهن في مهامهن المنزلية بينما يرتبطُون بعد ختانهم بآبائهم وأخوتهم وبقية ذكور القرية ويشاركونهم في أعمالهم. بفضل هذه الرابطة مع الأمهـات يُعتبر صـغار الذكور نجسين وغيـر ناضجين، وبالتـالي غـير جـديرين بتلـقي تعليـمات من الأب أو من بـقيـة الرجال، فهم يتلقّـون تعليمات من أمهاتـهم فقط. وعندما يُلاحظ قادة القـرية ازدياد عدد مثل هؤلاء الـصبيـة مع نقص عدد الأيدي العاملة من الرجال بما يخلّ بالتوازن الاجتماعي بين الرجال والنساء داخل القبيلة، يطرح اقتراح الإعـداد لختان الأولاد، حتى لا تتوثق

(1) Turner 1985.

علاقاتهم بأمهاتهم ويزيد ولاؤهـم لهن بتأثير مرور الزمن إلى حد يصعُب بعده فصلـهم عنهن وتحويل ولاءهَمَ إلى آبائهم. ومما يثبت أن الختان قطع للطفل عن عالم النساء إن قبيلة النديمبو تعتقد أن غَلَفة الذكر تُعادل الشفرين الكبيرين لدى الأنثى.

يتم الختـان كطقس جمـاعي يدعى له بقيـة الأقارب من أبناء وبنات العُمـومة المُقيمين في القـرى المجاورة. وبذلك تقطع الصلة بين الطفل الذكر ودائرة القـرابة الأمُومية الضيـقة لتوصل بينه وبين دائرة القرابة الأبوية الأوسع نطاقًا، فبفضل الخـتان تصير علاقات الأمومة والأبوة رمزًا لعلاقات اجتـماعية أوسع نطاقًا من العلاقات الأسرية.

و قد اهتم بعض الباحثين بدراسة المفـاهيم والمعتقدات المُحيطة بالطقوس الاجتماعيـة. ولما كانت فكرة التطهير من الدنس مُرتبطة بالختان في الثـقافات التي تُمارسه، تكتسب الدراســات عن مفهوم الدنس أهميّة خاصة لهذه الدراسة. من هذه الدراسات مقال ماري دوجـلاس «الدنس الرمـزي»(1) رغم أن هذه الدراســة لا تتناول الختان مباشرة إلاَّ أنها تنطبق عليه وتفسّر تمسّك الناس به، سيما أن الاسم الشائع في مصر لخـتان الجنسين هو «الطهارة»، أي تخليص الفرد من الدنس. تقول ماري دوجلاس أن طقوس الديانات القديمة تميّـزت بالنزعـة المادية الطبـيـة، وقامت على أُسـس ذات علاقـة بالصحة، حتى لو لم تكن الصحّة هدفها الأساسي. ولا زلنا حتى

(1) Douglas 1966.

الآن نفهم القذارة بنفس تعريف الطقوس القديمة، أي أنها وجود الشيء في غير محلّه، أي أنها مفهُوم نسبي، فقد لا يكون الشيء أو السلوك دنسين في حد ذاتهما، لكن إذا وضع الشيء أو مُورس السلوك في غير محلِّهما يستهجنهما الناس باعتبارهما دنسًا يخل بنظام الكون. وكُلَّما قدم العهد بالاعتقاد بدنس شئ ما أو سُلوك مُعيّن يتّخذ الناس حياله موقفًا متزمتًا. وبمرور الزمن تترسّخ ثقة الناس في ضرورة التمسك بانحيازهم ضد ما يعتبرُونه دنسًا، وهي ثقة تتوطد بحكم قدم الاعتقاد. وإذا ظهرت حقائق تزعزع هذا الاعتقاد، يميلَ الناس إلى تجاهلها أو ليِّها بحيث لا تخلّ بالمزاعم الراسخة لديهم. فالناس لا يستهجنون الإخلال بالنظام إلاّ لأنه يهدِّد بهدم النِّسق المعتادة الموجودة، ولأنه يحمل في طياته احتمالات الخطر والقوة المسيطرة. وفي المجتمعات البسيطة يحدّد التفاعُل بين النظام والفوضى مواضع القوة والخطر ولا يرجِّح إمكان وجود فكرة الدنس كخطر يُهدّد النظام الاجتماعي إلاّ في عالم كوني أو اجتماعي ذي حدود مرسومة بدقة ووضوح. والشخص الدنس هو الذي يتخطى حدوده المرسومة سلفًا. وتدعم المعتقدات المتعلقة بالدنس النظام الأخلاقي المتفق عليه اجتماعيًا، إذ توقّع عقابًا غير شخصي بمن يقترف فعلاً خاطئًا. فهذه المُعتقدات تحدّد القواعد التي يُقاس عليها مدى التزام الأشخاص بالسلوك القويم، ولو اقترف شخص فعلاً دنسًا حتى لو لم ينتج عنه إضرار جسيم بالغير، تقوم المُعتقدات المتعلّقة بالدنس بتهويلِ فعلَته لحشد

الرأي العام إلى جانب الحق، وتودع المسيء. ومعظم الأفعال الدنسة يمكن إبطال مفعولها ببعض الطقوس، منها الاغتسال، والبخُور، وغيرها من الطقوس.

و لأن الختان من الطقوس التي اكتسبت صبغة مقدسة في ديانات سماوية وغير سماوية عدّة، تكتسب كتابات سامي الديب أبو ساحلية عن الجَدَل الديني حول ختان الإناث والذكور أهمية خاصة. من أهم هذه الكتابات مقاله «التشويه باسم ياهوه أو الله»[1] وكتابه **ختان الذكور والإناث عند المسلمين واليهود والمسيحيين: الجدل الديني**[2] يعرضُ الباحث الخلافات بين الفُقهاء ورجال الدين في الديانات الإبراهيمية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام على مرّ العُصور منذ ظهور هذه الديانات وحتى وقتنا الحالي. يرى سامي الديب أن الطوائف الدينية الثلاث ليست مُنفصلة، فقد تلاحقت وتفاعلت تأثيرًا وتأثرًا ببعضها البعض، و أن خطاب الكتب السماوية الثلاثة عن الختان قد تطّور من فرض الختان في التوراة، إلى إفراغه من مضمونه المقدس في الإنجيل، إلى السكُوت عنه تمامًا مع التأكيد على فلسفة كمال الخلق في القرآن. وبعرض وافٍ لما ورد عن الختان في هذه الكتب المقدّسة وأحاديث الأنبياء والرسل والحكماء، وآراء الفقهاء وعلماء اللاهوت في الديانات الثلاث خلص إلى أن جميع فقهاء هذه

(1) Abu-Sahlich 1994.

(٢) أبو ساحلية ٢

الديانات يعتمدُون على الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين بالتوراة الذي يذكر أمر الإله ياهوه لإبراهيم بالختان باعتباره قطعًا دالاً على عهد، فيقطع إبراهيم الغلفة منه ومن أبنائه، ويقطع الإله عهدًا بمنحهم أرض كنعان واعتبارهم شعب الله المُختار الذين يتعرّف عليهم بعلامة الختان. يرى الباحث أن هذا العهد «تسييس لعملية جراحية» وأنه يدلّ على رؤية للإله تُنزله إلى مرتبة راعٍ بسيط يحتاج إلى علامة خارجية يميّز بها غنمه عن غنم غيره وقد رأى بعض المفسرين أن ختَان الذكر اليهودي في يومه الثامن مقصود منه تطهيره من النجاسة التي لابد أن تلحقه بسبب مُلامسته لوالدته ودم الولادة، وكلاهما نجس حسب المعتقدات اليهودية وتوجد تشريعات يهودية تدل على إدراك اليهود لخطر الختان على الطفل، لذلك اضطرّ الحاخامات إلى السماح بإمكانية إعفاء بعض اليهود منه، إذ يعفى من الختَان الطفل الثالث الذي مات له أخوان أو ابنا خالة في الختَان.

وقد تم جمع وتدوين التوراة -التي تنسب إلى موسى- في القرن التاسع قبل الميلاد، أي بعد حوالي أربعة قرون من وفاة موسى وعشرة قرون من وفاة إبراهيم، وهي تضم اقتباسات من الحضارات الكثيرة التي اختلط بها اليهود عبر هذه القرون. لذلك يشكّ بعض دارسي الديانة اليهودية في المصداقية التاريخية لأحداث العهد القديم. ويذكر الباحث أن الختَان سبق ظهور اليهودية بزمن بعيد، إذ وجدت شواهد تاريخية موثّقة عن إجراء ختَان الذكور في

سوريا القديمة في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، وفي مصر القديمة في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد. ولم يكن خِتَان الذُكُور مفروضًا على كل الشعب المصري، بل كان للكهنة. يدل على هذا أن الإمبراطور الروماني هادريان الذي حَرّم الختَان في القرن الثاني الميلادي استثنى منه الكَهَنة الفراعنة.

و قد استخدم اليهُود الختان كأداة سياسية على مر العصور. فالختان لم يكن يجرى للجميع ولا بنفس الدرجة التي يجرى بها الآن على مر العصور. يرى المؤرخُون أن الختان لم يصبح إجباريًا لليهود إلاَّ بعد عودتهم من المنفى في القرن السادس قبل الميلاد، وأن طائفة من اليهود عقدوا عهدًا مع من حولهم من أمم أخرى وامتنعوا عن الختَان، بل أخفوا أثره في أجسادهم بشد جلد القضيب في القرن الثاني قبل الميلاد. وقد أمكنهم هذا لأن الخِتَان في العصور الأقدم لم يكن يشمل استئصالاً كُلّيًا للغَلَفة كما يحدث الآن، بل كان يتم بقطع طرف الطبقة الخارجية لها فقط. وقد عاد اتجاه إخفاء الختَان للظهور في القرن الثاني الميلادي فابتكر الحاخامات في مُواجهته الاستئصال التام لطبقتي الغَلَفة. وفي ١٨٤٢ راجعت مجموعة من اليهود الألمان الصفة الإلزامية للختَان، لكنهم تراجعوا تحت ضغط رجال الدين المتشددين. وفي ١٨٦٩ بدأ نقاش وسط اليهود الذين هاجروا لأمريكا حول إعفاء من يعتَنِق اليهودية في سن مُتقدم من الختَان، وأقرّ هذا الإعفاء سنة ١٨٩٢ استنادًا إلى تفسيرات لنصوص من التوراة ترى أن أمر

إبراهيم بالختَان لا ينسحبُ على جميع اليهود في كل زمان ومكان، علاوة على أن اليهودي هو من ولد لأم يهودية بغض النظر عن ختَانه، وبالمثل، لا يعد المُختن يهوديًا لو كانت أمه غير يهودية. كذلك وجد هؤلاء المجددون أن الخِتَان يَتَعارض مع آيات توراتية أخرى تنهى عن الأذى وتأمُر بالرحمة. وقد فَطِنَت اليهوديات النسويات الحديثات إلى هذا الطابع السياسي الذُكُوري للختَان، ويُورد أبو ساحلية آراء بعضهن، ومنهن الباحثة النسوية مريم بولاك التي تُفنّد علاقة الخِتَان بالهُويّة الدينية وتربطه بالسياسة عامة، وبسياسات النوع خاصة تقول بولاك

إن الختَان مُرتبط بسيطرة الرجل على المرأة. فهو يبطل سلطة الأم بفَصل الطفل عنها وإيذائه دون تمكّنها من الدفَاع عنه في أشد الأوقات تَعلقًا بطفلها، أي بعد ميلاده. فالسكين المُصوّب إلى ذكر الطفل هو في حقيقته مُصوّب إلى قلب ونفس الأم. والختان هو جرح للأم وإخضاع لها فبالختان يتم توجيه خطاب للأم فحواه «إن سلطتك على الذكور محدودة وهذا الطفل ينتمي إلى الرجال». وهكذا يتم تشويش العلاقة بين الرجل والمرأة وبين الطفل وأمه. وفصل الطفل عن أمه هو مُقدّمة لفصله عنها ثانية عندما يجبر على الالتحاق بالجيش.

رغم ذلك يُضفي رجال الدين اليهُود أهمية كبيرة على الختَان فيعتبرون من لا يُختن شخصًا دنسًا لا تصح مُعاشرته ولا مُصاهرته، وأنه سيحرم من دخول الجنة. بل أن بعض حكمائهم

يُفتون بأن الله سيغفر لليهود الكثير من خطاياهم بسبب ختَانهم. ولا يخفي بعض اليهود إدراكهم للختَان كأداة تحكُّمٍ قاسية في النزعات الجنسية للطفل، ومنهُم الطبيب اليهودي موسى بن ميمون الذي عاش في القرن الثالث عشر، وذكر أن الختَان مقصود به إضعاف القدرة الجنسية للذكر دون تأثير على التناسل، لأن المرأة لا تَشْبَع من الجِمَاع مع الذكر غير المختن، وهذا في رأيه مُنافٍ للعفّة. ويرى حكمة في ختَان الطفل في يومه الثامن حيث يكون عاجزًا عن المقاومة، ولا يكون حبه قد تمكّن من قلب والديه إلى درجة تدفعهما للامتناع عن ختَانه رحمة به ويرجع أبو ساحلية استنكاف الغربيين حاليًا عن مُحاربة ختَان الذُكُور كما يهاجمون ختَان الإناث إلى قوة سيطرة اليهود هناك على وسائل الإعلام ومصادر المال «الذي يراه الغربيون عصب الحرب» وبذلك يتجنبون تهمة معاداة السامية التي تعطل أحوال كل من يتهم بها في الغرب.

تناول أبو ساحلية أيضًا الختَان في المسيحيّة ، حيث يستند المسيحيون الذين يُمارسون الختان إلى أن المسيح خُتِن. لكن هذه الرواية عن ختان المسيح لم ترد إلاً في إنجيل لوقا دون بقيّة الأناجيل. ويرى بعض المفسرين أنه حتى لو كان المسيح قد خُتِن وهو طفل فهذا لأنه ولد يهوديًا، وأنه حين بعث نبيًا أبطل بعض شرائع العهد القديم مثل قانون العين بالعين والسن بالسن، كما فسر النَجَاسة عكس تفسير التوراة لها، فصار ما ينجس الإنسان هو

ما يخرج من فـمه وليس ما يدخل فيه وقد حـاول اليهود الذين اعتنقوا المسـيحية فـرض الختَان على المسيحـيين الذين كانوا يدينون بديانات وثنية قـبل تنصرّهم، فهاجـمهم بولس الرسول، واعـتبر ختَان الجـسد غير ذي مـغزى ديني. وقد فسـر بعض رجال الدين المسـيحي الخـتَان تفـسـيرًا رمـزيًا بأنه يعني الامـتناع عن ارتكاب المَعَاصِي الجنسية بالعـضو الذكري ولا يعني قطع الغَلَفة ويرى أبو ساحليـة أن اليهود الذين تنصـروا قد فشلوا في إدخال الخـتَان إلى الفكر المسيـحي لأنهم لم يكونوا مركـز قوة في الدولة الرومـانية، لكن اليهود الذين أسلموا نجحوا في إدخال الإسرائيليات إلى الفكر الإسلامي لأنّهم كانوا مـركز قوة ثقافية ومادية في الجـزيرة العربية وما حولها في صدر الإسلام.

ثم يستعرض المؤلف الجدل الديني حول الختَان لدى المسلمين، فيبـدأ بذكر حقيـقة أن القرآن لم يذكر الختَـان إطلاقًا، لكن بعض الفقهـاء أوّلُوا بعض الآيات المتشابهات على محـمل الختَان، وهي الآيات التي أشارت إلى وجـوب اتباع المسلمين لسنة إبراهيم، وأن الله ابتلاه بكلمات فـأتمهن، وأن صبغة الله خير صـبغة. ويعرض المؤلف بالتـفصـيل الخلاَف بين الفـقهـاء على دلالة هذه الآيات، فبـعضهم يُفـسرها بأنها تشـمل الختَان وبعـضهم يُفسـرها بأنها لا تشمله. بل أن هناك تناقضًا بين تأويلهم لآيات الفطرة وبين حديث نبوي ذكره بعضهم يقول أن آدم وليس إبراهيم هو أول من اختتن. وبعضهم الآخر يؤمن أن الأنبيـاء يولدون مختُونين، وهذا تعارض

آخر مع تأويل تلك الآيات بـالخِتَان. ويرى أبو سـاحلية أن لكعب الأحـبـار- وهو يـهُـودي أسلم- ضلعًـا في كـل هذه التـأويلات والتفاسير لأنه أدخل الكثير من الإسرائيليات إلى الفكر الإسلامي. ولم يقتصـر الخِلاَف على تأويل هذه الآيات على الفقـهاء القدامى بل تعدَّاهم إلى فُـقهاء ومُفكّري القـرنين التاسع عشر والعـشرين، مثل العلماء والمفكرين الشوكاني، ومحمد عبده، ومحمود شلتوت ووهبـة الزحيلي وسليم العـوا، ويورد بالتـفصـيل آراءهم في هذا الموضوع. لكن مُعَظمَهم ينصـرف رأيه إلى ختَان الإناث لا الذُكُور اعتـقادًا مـنهم بما يروجه الأطبـاء عن فوائد الخـتَان للذكـر، رغم تعارُض الختَـان في رأيهم مع فلسفة القرآن في كـمال الخلق، ومع نهى الرسول عن تعديل الجسد حتى بالوشم والوخز

و يعتمد مؤيدو الختَـان على السنة، التي يرونها المصدر الثاني للتشريع في الإسلام. لكن علمـاء الحديث تناولوا مُعظم ما يندرج تحت السنة بالجـرح والتـعـديل، حـتى بَلَغَ عـدد الأحـاديث التي اعتبرها أبـو حنيفة صحيحة سـبعة عشر حديثًـا، ولم يثبت الإمام مالك في مـوطأه أكثر من ثلاثمـائة حديث. بل أن الروايات التي تتناول خـتَـان الرسـول، ﷺ لم تتّـفق وتَضـاربَت بين أنه ولد مختونًا، وأن جبريل ختنه حين شق قلبه، وأن جده ختنه. ويعتمد مؤيدو الختَان أيضًا على حديث يذكره الشيعة بأن النبي ختن الحسن والحسين في سابعهما. ويقول أبو ساحلية أن هذا الحديث لم يُذكر في كتب السنة السـتة ولا في مسند ابن حنبل. ومن أحـدث أمثلة

التضارُب بين الفقهـاء حول هذا الحديث أن الشيخ جاد الحق على جاد الحـق قال إن هذا الحـديث غيـر مُسلَّم بثـبوته، لكن الشـيخ محمـد طنطاوي يستخـدمه للتأكيـد على أن ختَان الذُكُور شـعيرة إسلامية عكس ختان الإناث.

و يستعرضُ المؤلف سير الصـحابة ورواياتهم التي تدلّ بعضها على أن الختان كان من عادات العـرب أيامهم ويدل البعض الآخر على أنه لم يكن مـسألة يهـتمـون بها لا هم ولا الرسـول ومن أمثلة ذلك رفض الصـحابي عثـمان بن أبي العاص حُضـور مأدبة ختـان بحجة أنهم لم يكونوا يشـاركون في مثل هذه الاحتـفالات بالحضور ولا بالدعوة، وقـول الحسن البصري بأن النبي ﷺ لم يفـتش أي رجل اعـتنق الإسلام ليـرى هل هو مُـختن أم لا على اختـلاف ألوان وثقافات وأجناس هؤلاء الرجـال. وقول ابن المنذر «ليس في الخـتان خبـر يرجع إليه ولا سـنّة تتبع» وقـصة رفض الخليفة عمر بن عبد العزيز لاقتراح والي خراسان بأن يشترط ختَان منْ يُسْلِم من أهلهـا حتى لا يستـسهلُون الإسلام فَـيَقلّ دخل بيت المال من الجزية التي يدفعها غير المسلمين، فرّد عليه الخليفة بأن الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه خاتنًا.

ويعـرض أبو ساحليـة كتـابات المفكرين المحدثين المعـارضين للختَان، ومنها كتابات المصريـين، مثل ترجمة عصام الدين حفني ناصف لكتـاب جوزيف لويس **باسم الإنسـانيـة** الذي نُشِر في طبعة محدودة سنة ١٩٧١ بعُنوان **الختَان ضلالة إسرائيلية مؤذية** مع

مقدمة مُطَوّلة للمؤلف[1] والعرض الذي قدمه محمد عفيفي لهذا الكتاب في مقال «مرسد الحيران في عملية الختان»[2] وسيّتم عرضهما ببعض التفصيل في القسم التالي.

بل أن بعض شيوخ الدين الإسلامي المُحدثين بعد الدرا. المتعمقة- توّصلوا إلى أن الإسلام لا علاقة له بِختَان الذُكُور ولا الإناث. وأبرز مثال على ذلك كتاب د.الشيخ أحمد حجازي السقا بعنوان **الختَان في الشريعة اليهودية والمسيحية والإسلامية: لا ختَان للذُكُور في دين الإسلام**.

٢- التاريخ الثقافي للختان في المجتمعات الحديثة

في وقتنا الحاضر يمارس الختان كسلوك اجتماعي اكتسب صفة العادة المتوارَثة. لذلك تكتسب الدراسات التي تناولت السلوك الاجتماعي عمومًا أهمية لهذا البحث. من هذه الدراسات مقال تالكوت بارسونز وإدوارد شيلز «القِيَم والنُسُق الاجتماعية»[3] يشرح بارسونز وشيلز التحليل النظري لسلوك الأفراد في المجتمعات. يهدفُ سلوك الأفراد إلى حفظ توازن النظام الاجتماعي. وتضبط المُجتمعات سلوك أفرادها لتحقيق هذا الهدف عن طريق النُظُم الثقافية. وسلوك الفرد تجاه موضوع ما يحكم

(١) ناصف ١٩٧١

(٢) عفيفي ١٩٧١

(3) Parsons and Shils 1951.

اتجـاهاته نحو ذلك الموضـوع، فـسلوك الأفراد مُـحـصِّلة لتفـاعل مُكونات شخـصياتهم، مع النظام الاجـتماعي الذي يحكم عـلاقة الأفراد ببعـضهم البعض، والنظام الثقافـي الذي تمثل رموزه القيم والمعتقدات المعبرة عن النظام الاجتماعي.

تتكون النُظُم الثـقـافيـة من رمـوز تمثل النظام الاجـتمـاعي، ويبتـكرها أفراد ذوو قدرات إبداعـية، ومنهم تنـتشر وتتـغلغل في النظام الاجتمـاعي العام، ويتوارثها بقـية أفراد المجتمع جـيلاً بعد جيل. وعندما تسـتقر النظم الثقافـية تصير تلك الرموز قـوة فعّالة توجه اخـتيارات الأفراد والجـماعات وفقًـا للقيم والمعايير المقـبولة اجتماعيا وعندما تنضوي هذه القيم والمعايير تحت رعاية مؤسسات المجتمع، ويتـبنَّاها أفراد المجتمع كـجزء لا يتجزأ من شخـصياتهم فإنها تُحدّد الاتجاهات التي تحكم اختياراتهم السلوكية. وعلى ضوء هذه المعايير يتوقّع الفرد ردود فعل الآخرين تجـاه اختياراته ويضعها في حسبـانه عند اختيـاره لسلوك اجتماعي مـا. والثقافة المُشـتركة عامل مهم ييسر التفاعل بين الذات والآخر على نحو ملائم لما هو مقبُول اجتـماعيًا. وهذه الرغبة في القبول الاجـتماعي هي أساس ميل الناس لمسايرة المعاييـر السائدة، التي يختلّ بدونها توازن النظام القيمي المستقر

لكن المجتـمعات ليـست وحدات ثقافيـة مُتجـانسة، ولا كل النسق الثـقافيـة المُستقـرة تناسب احتـياجات الحـياة الاجـتماعـية المتطورة، ومن هنا يُعيـد البشر تقييم مـورُوثاتهم الثقافيـة وينتقون

منها ما يناسب حقائق الحياة العملية. وقد يتمسّك المجتمع أو أفراده بقيم موروثة بدافع مواجهة أي تهديد للقيم المستقرة، لكن هذه المواجهة لا تصمد إذا كان الموروث الذي يُدافعون عنه يشكل عائقا جدِّيًا لأداء الوظائف اللازمة لاستمرار الحياة العملية على ما ينبغي. هنا، يجد الناس أنفسهم أمام اختيارين، إما أن يُخضِعوا واقع حياتهم قَسرا للقيم الموروثة ويَفرِضوا المسايرة، أو يُرَاجِعوا نظام القيم السائد ويعدلوا مُعتقداتهم أو نظمهم المؤسسية جزئيًا بحيث تناسب الواقع الجديد. وتضطرّ المجتمعات عمومًا، والمركبة منها خصوصًا، إلى السماح ببعض الحركات التي تعتبرها خاطئة ومناقضة لنظام القيم السائدة، كحلّ وسط يسمح باحتواء هذه الحركات المغايرة بدرجة لا تهدد النظام القائم. ومن تعايش هذه المتناقضات الظاهرية قد ينبثق التغير الاجتماعي. في رأيي تصلح هذه الدراسة لتفسير استمرار الختان في المجتمع الحديث بقوّة نزعة المُسايرة، كما تُلقي الضوء على أهمية المُغامرة بالخروج عنها لجلب تغيير اجتماعي.

وإذا كان رؤساء القبائل والكهنة والسحرة قد تولوا عمليات الختَان في الثقافات القديمة، فقد انتقل هذا الدور إلى المؤسسة الطبيّة في العالم الحديث. وللمؤسسة الطبية خصائص تُرشّحها لوراثة هذا الدور. شرح ميشيل فوكو التطوّر التاريخي للخلفية المعرفية للطب الحديث التي أوصلته إلى امتلاك سلطة السيطرة على الجسد في كتابه **مولد العيادة: أركيولوجيا الإدراك الحسي في**

الطب[1] بدأ الطب الوضعي الحديث مع بداية القرن التاسع عشر، وتغيّرت فيه علاقات الذات بالموضوع عما كانت عليه في القرنين السابع عشر والثامن عشر. يرجع هذا إلى تحوّل أسلوب إدراك الطبيب لموضوع عمله، أي للإنسان المريض. كانت عملية التشخيص قبل القرن التاسع عشر عبارة عن نظرة اختزالية، أي أنها تختزل الفرد إلى جانب موضوعي مُستقل عن ذاتيته، إذ يبدأ الطبيب عمله بمُحاولة إخضاع أعراض المرض لمعارِفه النظرية، مُنفصلة عن الإنسان المريض ذاته. افترضت هذه النظرة أن معرفة حقيقة المرض لن تتأتّى للطبيب إلاّ إذا تجاهل خُصُوصية المريض ككيان ملمُوس وتعامل معه ككيان مُجرّد، أي أنه يتعامل مع المرض وليس مع المريض. بذلك اعتمد تشخيص الأمراض في القرن السابع عشر على التفسير النظري لأعراض المرض في ضوء معارف الطبيب، مَفْصولة عن الإنسان ومُحيطه الطبيعي. ولم يكن الأطباء يعترفون بالطبيعة، ولا يلتفتون إلى مُلاحظة التطورات الطبيعية التي تطرأ على المريض إلاّ عندما يثبت بمرور الزمن فشل أحكامهم النظرية. أما في القرن التاسع عشر فقد اكتسبت الملاحظة العيانية لأعراض المرض أهمية، وبذلك ظهرت مكانة وهيمنة الطبيب بفضل نظرته التي يُلاحظ بها. وهي ليست أي نظرة، بل هي نظرة عين عارفة، وبالتالي من حق صاحبها إصدار الأحكام، وعلى الآخرين الخُضُوع لأحكامه. وتتميز هذه النظرة أيضًا بأنها

(1) Foucault 1975.

نظرة مدقَّـقة راصـدة لا تفلت منها أي صـفة عيـانيّة خـارجة عن المألوف تبدو على العضو أو النسيج أو الشخص المفحُوص. ونظرة الطبيب لا تُكسـبه هذه السطوة إلاَّ بانتمـائه لمؤسسة تسـانده وتبرر رؤيته الأ وهكذا استولت مِهنَة الطب على جانب من السلطة الأبوية بفضل هذه النظرة.

ويصف إدوارد فاليرشتاين في كتابه **الختَان خرافـة أمريكية**[1] كيفية دُخُول الختَان للمرّة الأولى إلى الطب الحديث في إنجلترا في النصف الثاني من القـرن التاسع عشـر إبّان حكم الملكة فكتوريا، وانتقاله منها إلى المؤسسات الطبيـة في المستعمرات والبلدان الناطقة باللغة الإنجليزية. ويحكي ديفيد جوللاهار في مقاله «من الطقوس إلى العلوم: انتقـال الختَان إلى ساحـة الطب في أمريكا» كيـفية دخول الخـتَان إلى الطبِّ الحديث في أمـريكا بعد إنجلتـرا بحوالي عقـد من الزمان، وكيـفية تطور الحـجج الطبيـة المؤيدة له. يقول جوللاهار إن الخـتَان قـد انتشـر في أمريكا إلى حـد أن الأطباء وأولياء أمور الأطفال لم يعودوا يعتبرونه جراحة أصلاً لكن الختان لم يبدأ في الدخول إلى أمـريكا إلاَّ في سنة ١٨٧ دخل الختَان إلى الطب في فتـرة لم تكن فيها النظريات المـعرُوفة الآن لتفـسير الأمراض قد اكتشفت بعد، وأهمـها الإصابة بالميكروبات كمسبب للمرض والعلاج بالمُضـادات الحيوية. كان الأطباء حينئـذ يفسرون المرض بنظرية تـسـمى نظرية الانعكاس العـصـبي. تـتلخص هذه

(1) Wallerstein 1980.

النظرية في أن استثارة الأعضاء الجنسية تنعكس على المراكز العصبية العُليا مسببة جملة من الأمراض، منها الشلل والصرع والجنُون. وتحت تأثير هذه النظرية اتسع نطاق استئصال أجزاء من الجسم لعلاج العقل، مثل إزالة المِبيضين السليمين، واستئصال البظر للإناث والغلفة للذكور. لكن التجربة أثبتت أن الختان لا يُعالج هذه الأمراض، ولا يوقّف الأطفال عن ممارسة العادة السرية التي كان الأطباء يعتقدون أنها أحد مصادر الانعكاس العصبي الضار، فتحوّل المُبرّر من العلاج إلى الوقاية، واستمر الختان باعتباره جراحة وقائية مفيدة. وبتغير نظريات علم الأمراض إلى النظرية الجرثومية (أي أن الأمراض تُسبِّبها الإصابة بميكروبات خفية لا ترى بالعين المجردة)، توقف استئصال أعضاء التأنيث الخارجية والداخلية، لكن ختان الذكور لم يتوقّف. بالعكس، ازدادت حجة الجراحة الوقائية رسوخا فالأطباء وحدهم كانوا هم القادرون على مُحاربة الميكروبات الخفية، وقد نزلوا الساحة بكل أسلحتهم، وأمضاها الجراحة، فانتشرت «الجراحات الوقائية» لاستئصال أي جزء يعتقد أنه بؤرة تلوث في الجسم، مثل اللحمية، واللوزتين، وكيس المرارة لحاملي التيفود، وغَلَفَة الذكر صنف الأطباء الغَلَفَة ضمن الأجزاء الملوثة بناء على موقف يعتبر جميع إفرازات الجسم قذارة، وبالتالي تعتبر الأعضاء الجنسية قذرة لارتباطها بالإفرازات، رغم أن إفرازات الغَلَفَة تسمى «سميجما»، ومعناها باللاتيني «منظف» معظم الآراء التي يرددها الأطباء حتى الآن عن الختَان

وردت في كتاب ألفه رومينديو سنة ١٨٨١ عن تاريخ الختَان، خلط فيه الفُلكلور، بآرائه الشخصية، بمعلُومات غير صحيحة من أمثلتها:

الغَلَفة بقايا تذكارية من مُخلَّفات التطوّر، لذلك تعتبر زائدة لا لزُوم لها في الإنسان الحديث. .و للغلفة تأثير خبيث يفعل فعله بأشد الوسائل خفاء وأبعدها عن الظهور، مثلها مثل الجان والعفاريت في القِصَص العربية الذين يُمكنهم أن يطولوا ضحيتهم عن بُعد، فيوجّهوا له ضربة قاضية على حين غرة. فالغَلَفة بالمثل تجعل الرجل ضحية للأمراض والمَتَاعب، وتجعله غير صالح للزواج ولا للعمل، وتحوّله إلى شخص بائس معرض للتوبيخ والعقاب طوال حياته. ففي سن الطُفولة تجعله يتبول على نفسه ويمارس العادة السرية التي تضعفه جسديًا وعقليًا وأخلاقيًا ، وقد ينتهي به الأمر إلى أن يصير نزيل السجن أو المصحة العقلية. لذلك تتعلق حياة الرجل بتخلصه من هذا الجزء الذي يعد أعدى أعدائه.

وقد وَضع عدد من الأطباء اليهود نظريات الوقاية من السرطان ومن الأمراض التناسلية بواسطة الختَان لتفسير تمتع اليهود بصحة أفضل من الأغيار، ويقولُ أحدهم أن «اليهودية وضعت الدين في خدمة العلم». و بحلول عام ١٨٩ ، انفصل الختِان في أمريكا عن ساحة الطقوس وانضم إلى الممارسات الطبيةَ تمامًا. ومن العوامل التي ساَعدت على ذلك انتشار استخدام التخدير والمُطهّرات، وازدياد انتشار المستشفيات في أنحاء أمريكا، وتحول

ولادة الأطفال من حدث عائلي منزلي إلى عملية طبية. إضافة إلى ذلك، لم يكُن الأطباء العاملون بهذه المستشفيات من العلماء، بل كانوا «مُجرّد ممارسين تكونت قناعاتهم وعاداتهم وأساليب عملهم بملاحظتهم لأساتذتهم وزملائهم الأقدم، فنقلوا عنهم خبرتهم العملية وثقافتهم»[1] وقد لعب ازدياد عدد الأطباء الذين يمارسون الختان دورًا في قبول الناس له. وقد وجد أن أهم عامل يحكم نسبة حدوث أي عملية جراحية هو عدد الأطباء الذين يجرونها في المنطقة. ينطبق هذا على الولادة القيصرية والختان، فالناس يعتقدُون أن التقنيات الطبية التي يكثر الأطباء من استخدامها هي أفضل ما يُمكنهم الحصول عليه من خدمات طبية. لكن المؤلف يَرَى أن التقنيات الطبية الصرفة التي لا تستند إلى العلم تتحكّم في أجساد الناس بأكثر مما تخدمهم. فمن حيث المبدأ، يخدمُ العلم المعرفة بينما تخدم التقنيات الصرفة هدف السيطرة.

لم يكن هناك ما يُغري الرجال البالغين الأصحاء بطلب الختان لأنفسهم، لذلك كان مُعظم من يجرى لهم الختان أطفالاً أو صبية من الطبقات العُليا والمتوسطة لديهم أعراض مرضية يعتقد أن سببها وجود الغَلَفة حسب نظريات القرن التاسع عشر. وبالتدريج، أقنع الأطباء الناس بتسليمهم فئة من الذكور لا حول لها ولا قوة ولا رأي ليختنوهم، فئة المواليد والرضع، بحجة أن الختَان لا يزيد ألمه

(1) Gollahar 1994: 13-14.

عن ألم حقنة التطعيم، ومن الأفضل أن يُختن المولود مبكرًا قبل أن يكبر وتزيد فرصة إصابته بالأمراض واكتسابه للعادات السيئة.

ورغم مُحاولة الأطباء إقناع الناس أن الختان جراحة مأمونة، بدأت ملاحظة المضاعفات السيئة للختان منذ ١٩ ٩، حين ظهر مقال في مجلة الجمعية الطبية الأمريكية يُعدّد مضاعفات الختان، من التهابات، إلى تورم ونزف وحدوث تجمع دموي، وتشويه العضو، وقطع رأس القضيب. وبذلك تَضَاربت أفكار الأطباء الممارسين مع الباحثين العلميين. فالممارسون يزعمون أن لديهم مُلاحظات عملية تثبت الفوائد العلاجية والوقائية للختان ومَضَار الغَلَفة والعلماء لم يتمكنّوا من إثبات صدق هذه الملاحظات بالتجارب المعملية. وقد أذاع الأطباء الممارسُون احتقارهم للغلفة، فصار وجودها دليلاً على الجهل والإهمال والفقر، مما زاد من طلب عمليات ختان الذكور.

وقد درست كارين إريكسون بيج في مقالها «طقس الختَان»[1] تطور مبررات الختَان في المؤسسة الطبية الحديثة في أمريكا، وهي مُبرّرات لم تظهر إلاّ بعد أن اتسع نطاق إجراء الختان هناك بيد الأطباء. تقول بيج أن الغربيين اعتادوا على النظر بعين التعجب لأنواع التشويه الجسدي التي تُجريها القبائل في بلاد خارج الغرب، لكنهم اعتادوا النظر إلى طقوسهم التي تشمل تشويها للجسد على أنها مبررة طبيًا، ومنها ختان الذكور. ورغم

(1) Paige 1978.

انتشار ختَان الذُكُور في مُجتمعات تقليدية وفي أخرى غربية صناعية، إلاَّ أن هذا الطقس تطور بشكل مُختلف في المُجتمعات الصناعية عن غيرها بدأت قصة الختان في الغرب من انتشار الرعب من العادة السريَّة في فترة الانتقال من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي ما بين ١٨٠-١٩١٤ ورغم أن العَادَة السريّة كانت تعتبر خطيئة دينية منذ عهد التوراة، إلاَّ أن الجديد أنها اعتبرت مشكلة طبية ولاقى هذا التنظير الطبي هوى في نفوس الآباء من الطبقة الوسطى، لأنه أعطاهم تفسيراً للسلوكيات التي كانوا يخشونها من أبنائهم كالوقاحة والتمرد والعصبية والاهتمام بالجنس. وبذلك خدمت فكرة الرعب من العادة السرية والتحكم فيها مؤسسات العمل والأسرة والسُلطة الوالدية. وقد اقترح الأطباء الإنجليز والأمريكيون أنواعًا متباينة من العلاج لهذه «المشكلة»، شملت أنواعًا من الأغذية والمشروبات تثبط النزعات الجنسية، وأنواعًا من أحزمة العفَّة تمنع الأطفال والمراهقين من لمس أعضائهم الجنسية، ونصائح بالتخويف والعقاب، ووضع القضيب في جبيرة من الجبس أو حبسه في جراب من الجلد أو المطاط، وكي الأعضاء الجنسية، وفي الحالات المُستعصية لجأ الأطباء لإخصاء الذُكُور «المرضى» في ظل هذه الظروف، اعتبر الختَان بديلا أكثر رحمة من هذه الأنواع من «العلاج» وقد روج الأطباء للختَان بأنه يضمن للولد صحة أفضل ويُحسن من قدرته على العمل، ويطيل حياته، ويحميه من العصبية المفرطة والمرض، فيوفر

النقود والوقت الذي كان سينفقهُما على التردد على الأطباء. وفي ١٨٩٠ أسس بعض الجراحين الأمريكيين جمعية جراحة الفتحات، وكانت مهمتها الرئيسية الترويج لإجراء جراحات على الأعضاء الجنسية للذُكُور والإناث. خَدَمت هذه الجراحات الآباء لأنها أعطتهُم وسيلة للتحكم في النزعات الجنسية لأبنائهم، كما خَدَمت الأطباء لأنها منحتهُم فرصة لتأكيد سلطاتهم على أجساد الصغار والنساء. وبعد سنة ١٩٢٥ نقص مُعدّل نشر الكتابات الداعية لاستخدام وسائل بشعة لمنع العادة السرية بعد أن خفت حدة الرعب الذي ساد الغرب منها. لكن الخِتَان استمر بفضل ظهور نظرية عن دوره في الوقاية من السرطان. ظهرت هذه النظرية في سنة ١٩٣٢ مُعتمدة على بحث أجراه أحد الأطباء وخَلُص إلى أن سرطان الأعضاء التناسلية أقل بين اليهود والمسلمين لأنهم يمارسُون الختَان. وقد ساعدت هذه النظرية على نشر عادة تختين الرضع لحماية الرجال من السرطان، أي أن القوي يتحكم في الضعيف الذي يعتقد أنه ملوث ليضمن طهارته. لكن النقد أثبت أن هذا البحث تجاهل أبسط قواعد المسوح الإحصائية، وبالتالي لا يعتدّ بنتائجه، حيث إنه اعتمد على تصنيف المرضى حسب ديانتهم فقط دون أن يأخذ في الاعتبار نسبتَهُم إلى مُجمل السكان من أصحاب الديانات الأخرى، ولم يأخذ في اعتباره مُستواهم الاقتصادي والاجتماعي وعاداتهم الصحية. من المبررات التي ذكرها الأطباء أيضًا التجميل، فقد كتب أحدهم «يظهر القضيب المختن بمظهر

القضيب المنُتصِب، حتى وهو في حالة ارتخاء، وبذلك يبدو كأداة لتأكيد نوايا صاحبه». ويبدو أثر تغير التحيزات الاجتماعية في تغير مبررات الختان عبر العقود. فعندما ساد التحيز ضد الجنس والعادة السريّة في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولى من القرن العشرين، اعتبر الأطباء الختان وسيلة لتثبيط الدوافع الجنسية، وحين انعكس التحيز في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وساد الاعتقاد بأن مُمارسة الجنس والعادة السرية أمور مفيدة وعادية روج الأطباء أن الخِتّان يزيد الحساسية الجنسية للجنسين. وعندما تبُرر عملية ما بمبررات متناقضة، فإن هذا مؤشر دال على أن الفكر الذي بررها فكر طقسي أسطوري وليس فكرًا علميًا رشيدًا.

ويقولُ المحللون النفسيون أن الختان يمثل استعداد الولد للتضحية بجزء من قضيبه خضوعا لسلطة والده، أو يمثل جهود الأب ليظهر لابنه أنه صاحب السلطة الأبوية عليه. درس كارين وجيفري بيج ٢٣ مجتمعًا محليًا يمارسون الخِتَان، ووجدوا بعض العوامل المشتركة بينهم، أهمها أنهم ذوي ثقافات زراعية أو رعوية، ووجود مجموعات مصالح مكونة من عزوة من الرجال يربطهم رباط الأخوة، وأن الرجال لهم سطوة وسُلطة على النساء، اللاتي يتم تبادلهن في صفقات القرابة والزواج. وفي هذه الثقافات لا يُجرى الختان لمصلحة الولد، بل لمصلحة كبار الأسرة أو القبيلة. ولا يندر أن يُمارس كبار القرية ضغوطًا على الأب الذي يبدي

تلكُّؤا أو مُعارضة لتختين ابنه. ويعتبر خُضوع الأب لهذه الضغوط علامة على إبداء الـولاء لجماعة الرجال. ويتم الطَقـس المُعبر عن هذا الولاء باستـئصال جزء من القـضيب وليس الأذن مثـلاً بسبب ارتباط القضـيب بالقدرة على الإنجاب، لأن انسـحاب أي فرد من العزوة بأبنائه يـعنِي حرمان الجـماعة من زيادة قـوتها بذرية هؤلاء الأبناء، مما يهدد مصـالحها الاقتصـادية والسياسية تجاه الجـماعات المنافـسة. لـذلك يخلق انفـصال الابن عن الأسـرة المـمتدة أزمـة سياسية واقتصادية في مثل هذه النظم الاجتماعية. تفسر بيج قصة سفر التكوين تفسيرًا اجتماعيًا فتقول أنها تمثل انشقاقات وصراعات داخل قبيلة تتسع ويزيد أفرادها وتحتاج لقوة ذكورها ليدافعوا عنها، لذلك كان اليهودُ القدماء يعرفون طبيعة الختَان الذي ذكر في العهد القديم كصفقة سيـاسية بين الإله وإبراهيم، دون أن يلصقوا بها أي فوائد صـحية مزعُـومة كمـا يفعلُ الأطباء اليـهود ومن تَأثّروا بهم اليوم.

من أسباب انتشار قبول الأطباء لإجراء ختان الرضع اعتقادهم بأن المواليـد لا يحُسّون بالألم، لذلـك لا يعطيهم الأطبـاء تخديرًا أثناء الختان. دفع هذا الزعم بعض الدارسين لدراسـة علاقة الطفل المولود بالألم. من هذه الدراسات مقال دافيـد تشامبرلين: «المواليد لا يحـسون بالألم: قـرن من الإنكار في الطب»[1] يصف المقال كـيف تاثرت المعـاملة التـي يَلقَـاها الأطفـال على أيدي الأطبـاء

(1) Chamberlain 1991.

بنظرتهم إلى الأطفال كآدميين ناقصي الأهلية. ففي النصف الأول من القرن العشرين اعتقد الأطباء أن ردّ فعل الأطفال للألم انعكاس عصبي يحدث دون وعي منهم. وفسروا ذلك بأن القشرة المخية لدى الرضع غير متطورة. لكن الملاحظات الأحدث لرد فعل الأطفال لتجربة الختان أثبتت أنهم يحسون الألم، ويعبرون عنه بصراخهم، وتعبيرات وجههم. وتظهر على الأطفال المتألمين من الختان علامات موضوعية دالة على الألم، فيزداد مُعدّل تنفسهم وضربات القلب، ويهبط مستوى الأكسجين ويزيد مستوى الكورتيزون في الدم. وبعد الختان، يتغير نمط نوم الأطفال، ويبدون علامات انسحاب اجتماعي، ويختل نمط رضاعتهم، وتفاعلهم الطبيعي مع أمهاتهم. ويرى تشامبرلين أن الأهل يختنون الطفل خضوعا لضغوط اجتماعية لأنهم يجهلون أنه سيُكَابِد كل هذه المعاناة. يعطي تشامبرلين تفسيرات عدة لإنكار الأطباء لآلام الأطفال. قد يكون السبب تمثل الأطباء المؤيدين للختان لقيم المجتمع الذكوري التي تستهين بمشاعر الطفل، سواء كانوا أطباء رجال أو طبيبات نساء دربهن رجال. وقد يرجع الإنكار إلى أن الأطباء يُحاولون الظُهور بمظهرِ العُلماء، ومن السمات التقليدية لهذا المظهر تبلّد الإحساس وعدم الانسياق للعواطف. وربما لا زال بعض الأطباء مقتنعين بالاعتقاد القديم بأن الألم خير وضروري ومقدس، بل أنه من علامات الحياة. وهناك دلائل على أن إنكار الأطباء لآلام الطفل الذي يُختن يرجع إلى التحيز ضد الضعيف.

ففي بداية دُخُول التخدير إلى الممـارسة الطبية في الولايات المتحدة الأمريكية لم يـكُن يُعطى لأي شخص، إذ كان الأطباء يحـجبونه عن الزنوج والآسـيـويين والألمان والأيرلـنديين والبـحـارة والجنود والقرويات والفقراء، بزعم أنهم فئات أكثر تحملاً للألم.

وقد قـدم فالريشتـاين في كتابه الـذي ذكر سلفًا قـراءة نقدية للأبحاث التي أجريت في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين لتبرير الختان على أساس صحي، وأظهر ما في هذه الأبحـاث من نواحي ضعف منهـجي تهبط بـها إلى مـصاف الكتـابات التي لا يعتـد بهـا وقد فـسر السـبب في أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الغربيـة الصناعية الوحيدة التي يجرى فيها ختان الذكـور على نطاق واسع لأسباب غير دينية. يرجع هذا إلى شُيوعِ بعض الأوهام عن القيمة الصـحية للختَان، وإلى وجود منتفعين من تسويق عمليات الختان ببيع غَلَفات الأطفال إلى معامل مُستحضرات التجميل والمُستحضرات الدوائية

ولما كانت «الفوائد» الصحيّة للخـتان مزاعم وافتراضات نظرية لم تثبت صحتها بدراسات مضبـوطة خالية من الجرح والتحيز فقد بحث بعض الدارسين أسـباب قـبول الأطبـاء لإجرائهـا. من هذه الدراسات مـقال: «وباء يسبـبه الأطبـاء»، لجورج دينيسـتون[1] يفسر د. جورج دينيـستون قبول الأطباء الأمريكـيين لتُختين الذكور الرضع بنظرية الإنكـار. وفقًا لهـذه النظرية، يرى دينيـستـون أن

(1) Denniston 1994.

الأطباء الذين أجري لهم ختَـان في طفولتهم مستفيـدين نفسيًا من تختين الأطفال. تعـمل آلية الإنكار على تخفيف شـعور الفرد بما أصابه من أذى أو تخفـيف شعوره بالذنب لإصابتـه غيره بالأذى. ومما يُساعـد الفرد على الإنكار أن تتكرّر أمـامه التـجربة المؤذية أو يكررها في غيره. بذلـك مع كل عملية ختان تجـرى بيد طبيب أو طبيبة يؤكد الأطباء المختونون لأنفسهم أنهم بخير، وتؤكد الطبيبات والأطباء الذكور غير المختنين أنهم أبرياء من إيذاء الأطفال.

وقد درس رونالد جولدمـان الختان دراسة مُوسعَّـة من الناحية النفسيـة في كتابه الختـان: **الصدمة الخفـية**[1] وفي مقاله «الأثر النفسي للختان»[2] يقول جولدمان «إن الأطباء يتجاهلون آلام الأطفال الذين يتـعرضون للخـتَان لأنهم مواليـد رُضّع لا يُمكنهم مُقـاومة الختَـان أو منعه عن أنفسـهم. وقد ثبت بدراسة التـشريح والتوصـيل الكيمـيائي داخل الخـلايا العصبـية ووظائف الأعـضاء وسلوكيـات الرضع أنهم يتأثرون بالألم بنفس كـيفيـة تأثر البالغين به، لكن بقدر أشد» وقد لاحظ الباحثون من أعضاء قوة العمل التي شكّلتها الجمـعية الأمريكية لأمراض الأطفـال لبحث موضُوع الختَان أن نمط نوم الطفل وتعامله مع أمه يتـغيَّران بعد الختَان، وأن قدرته على تحـمّل الألم تقلّ. وقد عـبرت أمَّهـات هؤلاء الأطفال عن أن يوم ختَان الابن كان أسـوأ أيام حياتهن، وأن الطفل يصرخ

(1) Goldman 1997.

(2) Goldman 1999.

كما لو كان أحد قد ذبحه والصدمة وفقا لتعريف دليل الجمعية الأمريكية للأمراض النفسية هي «حدث يتجاوز الخبرة الحياتية العادية للكائن البشري، مثل التعرّض لانتهاك (جنسي أو بدني)، أو تعذيب، أو أي ا يشكل تهديدًا للسلامة البدنية للفر والانتهاك هو هجوم على الجسد، والتعذيب هو فعل يسبب الألم أو الكرب الشديد، وليس من الضروري أن يكون الهُجوم أو الإيلام بقصد التعذيب لكي يعتبر صدمة، فهذا التعريف ينصب على الفعل نفسه وعلى تجربة الفرد الذي يتعرض له»[1] وكُلّما صغر سن الطفل عند تعرّضه للصدمة يزداد احتمال أن تترك لديه أثرًا نفسيًا ضارًا ويُعطي جولدمان عدة أسباب لتفسير عدم تصريح الرجال بشعورهم الحقيقي نحو تجربة ختانهم. قد يرجع ذلك إلى قُبُولهم للمعتقدات السائدة حول الفوائد الصحية للختان مثلاً، أو إلى مُحاولة الهرب من تذكر التجربة لأنها أليمة جدا، فيكبتوها لحماية أنفسهم من الألم أو لخوفهم من سُخرية الآخرين، أو قد يرجع السبب إلى أن الرُضّع يُختنون قبل اكتسابهم للغة المنطوقة، لذلك لا يمكنهم التعبير عن هذه الخبرة بالكلام، لكنهم يعبرون عنها بأساليب غير لفظية تظهر في سلوكهم وانفعالاتهم مع الآخرين، مثل التبلّد العاطفي، أو التعرض لنوبات غضب عارم لا يتناسب مع مسبباته. ويحلّل جولدمان الأسباب التي تدفع الأطباء وغيرهم ممّن يجرون الختان إلى عمله للأطفال. هؤلاء الأطباء

(1) Goldman 1999: 94.

تعرّضوا هم أنفسهم للختَان، ومن السلوكيات المعرُوفة أن تعرض الفرد لصدمة يخلق لديه دافعا قويا لتكرارها في غيره. ويُكيّف الناس معتقداتهم لتناسب ما اعتادوا على فعله، وهذا هو ما يفعلهُ الأطباء الذين يروّجون المبررات النظرية لتبرير الختان الذي فعلوه كثيرا. من أمثلة المُعتقدات التي تيسر للأطباء الاستمرار في فعل الختان اعتقادهم أن الغلفة غير مفيدة وأن الأطفال لا يحسون. والأطباء المُتعصبون للختان يرفضون الاعتراف بالمعلومات الجديدة التي تَتَعارض مع رأيهم. وكلما زادت الهوة بين مُعتقداتهم النظرية والنتائج العملية لأفعالهم يزداد تجنبهم للمعلومات الجديدة، وبذلك يصابون بالجمود الفكري ويتشبّثون بمعتقداتهم القديمة لتثبيط الشكوك التي تثار حول ممارساتهم. ويقول الأطباء المُؤيدون للختَان أنهم يختنون الطفل بناء على طَلَب والديه، وبذلك يكونَ الختَان هو الجراحة الوحيدة التي يقررها غير المتخصصين في الطب والجراحة. لكن الأطباء يتحكمون في قرار الختان لأنهم يخفون عن الأهل المعلومات عن وظائف الغلفة ومضار الختان، وأحيانا يُوصونهم بإجرائه للولد. أما الآباء والأمهات فيقولون أنهم يطلبون الختان لأن الأطباء يجرونه، فلابد أنّه مفيد. فالطرفان يتحالَفَان لإجراء الختان لأنه مقبول اجتماعيًا.

وأساطير القبول الاجتماعي لا تنتهي بسُهولة. فالضغوط الاجتماعية تجعل الناس يُعطّلون ملكة التفكير النقدي لديهم ويُسايرون الجماعة. وبالذات في المسائل التي تتضارب فيها الآراء

يزداد تأثّر الناس برأي الجماعة. ومن دراسة الديانة اليهُودية وجد جولدمان أن الختَان انتشر بين اليهُود لمدة ألف عام قبل كتابة التوراة، وبذلك قد يكون لذكر الأمر الإلهي بالختان وظيفة تخفيف إحساس الآباء والأمهات بالذنب أو المسؤولية عن ختَان أبنائهم. والختان لم يذكر في القرآن، ووجد خلاف بين علماء المسلمين على شرعيته الدينية. وبسبب هذا الشك الذي يحيط بالمبرر الديني للختان، يعتمد اليهود والمسلمون على المعتقدات الاجتماعية لتبرير الختان، ويُحيطونه بسياج من الصمت يمنع التشكيك فيه فيحمي استمراره. ويفسر رونالد جولدمان الدور الذي لعبته «العلوم» الطبية في استمرار عادة اجتماعية لا ضرورة لها بل ضارة بالصحة كالختان بأن العلوم ليست مؤسسة محايدة، بل تتأثر بالقيم الثقافية وتضع نفسها في خدمتها. وأحد الأساليب التي تتّبعها النُظم الاجتماعية للحفَاظ على القِيَم الاجتماعية القديمة هو إلباسها ثوب المصدَاقَية عن طريق الأبحاث العلمية التي تنقصها الدقة. وبهذا يلعب المثقفون دورًا في حجب الحقيقة الواقعية.

ويفنّد مقال كريستوفر كولد وجون تايلور «الغلَفة»[1] الأوهام السائدة وسط الأطباء والعامة عن عدم أهمية غَلَفة الذكر. يشرح هذا المقال بالتفصيل التطوّر الجنيني للغلَفة، وتركيبها التشريحي

(1) Cold, C.J, and J.R. Taylor. 1999. "The Prepuce" The British Journal of Urology. Vol. 83. supplement 1. January 1999. pp:34-44.

والمجهري، ووظائفها المتعددة. تتكون الغلفة في أجنة الذكور والإناث على قدم المساواة، وتكون مُلتحمة برأس القضيب أو البظر في السنوات الأولى من العمر لوقايتهما من التهيّج بفعل إفرازات الجسم، ثم ينفصلان تدريجيا بشكل طبيعي، ويتم ذلك في سن يتراوح ما بين ٤-١٧ سنة. اكتشفت هذه الحقيقة التطورية التشريحية سنة ١٩٤٩، لكن كثيرًا من الأطباء يجهلونها، فيفسرّون الالتحام الطبيعي بين الغلفة ورأس القضيب/البظر على إنها ظاهرة مرضية علاجها الختان. تتكون الغلفة مجهريًا من خمس طبقات من الأنسجة الغنية بالأوعية الدموية والأعصاب الحسية المتخصصة في الشعور باللمس الخفيف. وهي أكثر أجزاء أعضاء التذكير حساسية، وتُقارن حساسيَّتها بأطراف الأنامِل وحافة جفن العين والشفاه. اكتشف د. جون تايلور(أحد كاتبي هذا المقال) التركيب الدقيق للغلفة وتغذيتها العصبية ووصفها في مقال نشر بالمجلة البريطانية للمسالك البولية سنة ١٩٩٦ تُوجد بالغلفة أيضًا ألياف عضلية شبيهة بالألياف الموجُودة بكيس الصفن. تلعب هذه الألياف دورا في حماية مجرى البول من التلوث في الرضع والأطفال بأن تَعمَل كصِمَام يسمح بمرور البول للخارج ويمنع مرور أي مواد في الاتجاه المضاد من الخارج إلى الداخل. وكُلّما اقترب الذكر من سن البُلوغ، تتناقص الألياف العضلية وتزداد الألياف المرنة حتى يتوازنان بما يسمح بحركة الغلفة بالراحة أثناء المُمارسة الجنسيّة. ويُوجد بالغلفة خلايا مناعية تعتبر من خطوط الدفاع

الأولى للجسم عند التعرّض لتلوث أو عدوى ميكروبية. وتفرز الغَلَفة مادة طبيعية مرطبة تيسر الجماع دون ضيق للطرفين. والختَان يحرِم الذكر من كل وظائف هذا التركيب الهام الذي حبَتْه به الطبيعة.

وقد راجع بعض الأطباء موقفهم من الختَان بناء على ما وصلهم من معلومات وقاموا بعملية نقد ذاتي، وأخذوا على عاتقهم طرح القضية للنقاش وَسَط زملائهم. وقد ذكر بيللي راي بويد أن بعض أطباء الأطفال الأمريكيين أقلعوا عن تختين الأطفال بعد أن راجعوا موقفَهم من الختان ومن مشاعر الطفل، وذلك في الكتاب الذي ألّفه بعُنوان **فضح الختان: إعادة النظر في عادة طبية وثقافية**[1] يتناول بويد الجوانب الطبيّة والثقافية لعادة ختان الذكور في الولايات المتحدة الأمريكية. من جهة الجانب الطبي يصفُ بويد تركيب ووظائف الغلفة، وأوجه التشابه بين ختان الذكور والإناث. وينقد بويد تورط المؤسسة الطبية الحديثة في إجراء الختان وتبريره، سيما أن البحث العلمي فند كل مبرر تحجَّج به الأطباء لإضفاء طَابَع صحّي رَشيد على عملية الختَان. فعلى التوالي تم تفنيد ما راج لفترات عن أن الختَان «يُعالج» أو «يقي من» العادة السرية، والأمراض الجنسية، وسرطان العضو الذكري وعنق الرحم، والتهاب المسالك البولية، وأخيرًا الإيدز يثبت ذلك أن الختَان ليس جرِاحة رشيدة ذات قيمة علاجية واقعية لمرض

(1) Boyd 1998.

بعينه، بل هو «جـراحة تبحث عن مرض». ويعـرض بويد جهود بعض الأطباء الأمريكيين الناقدين لختان الذكور.

من الجانب الثقـافي يعرض بويد الختَان كعادة يُمـارسها أتباع جميع الديانات في المجتمعات التي تنتشر بها هذه العادة، حتى لو لم يرد بها نص ديني. ويعـرض أيضًا تصريحات عـدد من اليهود الذين وجدوا أنـفسهم في صـراع بين شعـورهم الغريزي بحـماية الطفل من الأذى وبين مطالب المؤسسة الدينية، فأخذوا موقفًا نقديًا من الخـتان، واكـتفـوا في الاحتـفال الـديني بالمولُود بالصلوات، باعتـبار أن الجـانب الروحي هو مغزى العَـهد الإلهي دون حـاجة لإيلام الطفل وسـفك دمه وحـرمـانه من جزء مـهم من جسـده. وتوجد دلائل تشير إلى أن الختان أداة يستخدمها المجتمع الذكوري للتحكم في الضعفاء، وأن إلباسـها ثوب القداسة الدينية ليست إلاّ وسـيلة للإبقاء عليـهـا. يَستَـشهـد بويد على ذلك بآراء الطبـيب اليهـودي موسى بن ميـمون الذي عـاش في القرن الثالث عـشر، والذي فـسر سبـب التبكيـر بختـان الطفل في اليهـودية بأنه يمكن التحكم في الرضـيع وفَرَض الختَان عـليه على عكس المُراهق الذي قد يرفض الختَان، وأن عاطفة الأبوين نحو طفلهـما تتعمّق بتقدّمه في العُمر مما قد يجعلهما يرفضان إيلامه بالختان.

يتناولُ بويد الأثر الاجتـماعي للختَـان كأداة لإكسـاب الأفراد الإحساس بالضـعف، حيث يؤدي تعرض الفرد في باكـورة حياته للألم الشـديد دون تمكنه من التـحكم والمقـاومة إلى أن يتـعلّم أن

العُنف الغاشم ضد الضعفاء أحد سنن الحياة التي لا مفر منها. يزيد من هذا الإحساس إنكار المجتمع للآثار النفسية للختان، واعتبارها شكاوى فردية غير ذات أهمية، وهي نظرة المجتمعات نفسها التي تميز ضد النساء أو الفقراء أو الأقليّات العِرقية إلى شكاواهم من أشكال التمييز التي يعانون منها. ويرى بويد أن الوحيد الذي له الحق في أخذ قرار الختان هو الفرد صاحب الجسد الذي سيجرِى عليه القطع. ويُشاركه في هذا الرأي أطباء ومحامون ومثقفون أمريكيون من تخصصات أخرى مختلفة يعملون ضد ختان الذكور.

ينقد بويد النسويات الأمريكيات اللاتي يحاربن ختان الإناث ويرفضن أخذ موقف من ختان الذكور بحجة أنه لن يكون موقفًا عمليا، ويرى أنه من غير المقبول أن ينقدن مُمارسة تُجريها شعوب أجنبية عنهن ويصمتن عن عادة متأصلة في ثقافتهن لا تقلّ عنها انتهاكًا لأجساد الأطفال وحقوقهم. يرى بويد أن هذا الموقف صفقة سياسية تلجأ إليها النسويات ليبدين بمظهر من يحترمن الثقافة السائدة فيكسبن أرضًا في مُحاربة ختَان البنات وسط المهاجرين، وهي نفس الاستراتيجية التي كان يتبعها بعض زعماء الحركة العُمّالية البيض برفضهم تناول قضايا السود.

لكن المفكرات النسويات بدأن أيضًا في مراجعة أنفسهن، وبالذات في إعادة النظر في الحجّة التي يمتنعن بمُقتضاها عن طرح ختان الذكور، وهي أن ختَان الإناث قضية مُختلفة عن ختان

الذكور. من أبرز الكتابات النسوية مقال الباحثة الأنثروبولوجية هاني لايتفوت كلاين: «المعتقدات الخاطئة التي يقوم عليها التشويه الجنسي للإناث في أفريقيا جنوب الصحراء، وختان الذكور في الولايات المتحدة الأمريكية: تقرير موجز منقح»[1] تقول هاني لايتفوت كلاين أنها لم تكن تهتم كثيرًا بموضوع ختان الذكور رغم شكها في مصداقيته لأن اهتمامها كان منصبا على دراسة شئون النساء. لذلكَ لم تقم بنشاط ضد ختان الذكور باعتباره «من شؤون الرجال» التي لا تفهمها النساء، كما أنه موضوع لا يمسها كامرأة. وبمرور الوقت وبدراستها لعادة ختان الإناث في أفريقيا انتبهت إلى أوجه التشابه بين عمليات التشويه الجنسي للذكور والإناث. وجدت الباحثة أن المبررات نفسها التي يرددها الأفارقة لختان الإناث هي نفسها التي يرددها الأمريكيون لختان الذكور. تتلخّص المبررات المتشابهة في أن الختان لن يحرم الطفل أو الطفلة من جزء مهم، فما يقطع ليس إلا قطعة زائدة من الجلد لا فائدة لها، وأن الختان عملية تجميل، وله فوائد صحية لأنه يمنع الالتهابات والروائح الكَرِيهَة والأمراض، والأطباء يجرونه فلابد أنه مفيد. وفي الحالتين، لا يربط الرجل أو المرأة أعراض المضاعفات طويلة المدى التي قد تصيبهما بالختان الذي أجري لهما منذ عشرات السنين. ويُقَال أيضًا أن الفتاة أو الرجل لن يجدا من يرضى بالزواج منهما لو ظلاً بلا ختَان.

(1) Lightfoot-Klein 1994.

وقد تنبّه مُفكّرون آخرون لأهمية تحالف النساء مع الأطفال من الجنسين من أجل غد أفضل، ومنهم لويد دي موس، مؤسس ورئيس الجمعية الدولية لعلم النفس التاريخي، ومُحرر مجلة علم النفس التاريخي الذي نشر مقالاً على شبكة الإنترنت عنوانه «النساء والأطفال على تخوم التغير الاجتماعي»[1] في هذا المقال يقول دي موس أن التطور التاريخي يأخذ مجراه إلى الأمام عندما يراجع الجيل الأكبر ما أصابه من صدمات في طفولته ويعزم على عدم تكرارها مع أطفاله. وفي مقال «نظرية النشوء النفسي للتاريخ»[2] يقول دي موس أن هذا التحسُّن في تربية الأطفال يسمح بظهور شخصيات تاريخية من نوع جديد، تقُود تغيرات اجتماعية واقتصادية إلى الأفضل، أي أن التحسن في تربية الأطفال وتجنيبهم الصدَمات التي تعرّض لها الجيل الأكبر يأتي بثمار جيدة على المُستوى السياسي للمجتمع ككل.

يتّفق النشطون والنشطات في مجال حقوق الإنسان مع هذا التوجّه، ومن أمثلة كتاباتهم مقال اليزابيث نوبل: «قولوا لا، ولا شئ غير لا: قضايا التمكين»[3] تستنكر إليزابيث نوبل فكرة «الموضوعية» في القضايا التي تمس حُقوق الضعفاء إزاء الظلم الذي يقع عليهم من الأقوياء، وتتساءل، لماذا نكون «موضُوعيين»

(1) DeMausse n.d.1.

(2) DeMausse n.d.2.

(3) Nobel 1991.

في مسائل كالاغتصاب، وضرب الزوجات، وختان الأطفال؟ فلنكن منحازين ونقول: «حان الوقت لنعلن أن الإمبراطور عار»

«تشيرُ المُؤلفة لقصة أطفال من تأليف هانز كريستيان اندرسن بعنوان «**ثياب الإمبراطور الجديدة**» وفيها خدع أحد النصابين الإمبراطور وأوهمه بأنه قد صنع له زيّاً سحريًا لا يراه إلا الأذكياء، وخرج الإمبراطور فى موكبه عاريًا لأنه خجل من أن يتّهمه النصاب بالغباء إذا اعترف بأنه لا يرى الثوب المزعوم وخاف الجميع من التصريح بأنهم يرون الإمبراطور عاريًا لكن طفلاً جريئًا صاح بصوت عالى «أمى، إن الإمبراطور عار»

وبعد قد أدّى نشاط أمثال هؤلاء المثقفين الأمريكيين ضد ختَان الذكور إلى نَجَاحهم في الهبوط بنسبة انتشاره الختَان في أمريكا من ٩ ٪ في الثمانينيات إلى ٦ ٪ في بدايات التسعينيات. ويوجد وصف لهذه الجهود في كُتيب أصدرته الهيئة الأمريكية لوقف التشويه الروتيني للذُكُور والإساءة إليهم، كما يضم الكتيب شهادات لرجال مختونين عن معاناتهم من الختَان[1]

لم يبحث موضوع ختان الذُكُور في مصر بتوسع، نذلك لا توجد حصيلة كبيرة من الكتابات النظرية عنه بأقلام مُفكّرين مصريين، والكتابات الموجودة لا يوجد بينها أي بحث أكاديمي.

(1) NOHARMM, 1994.

أقدم الكتـابات التي وجدتهـا ترجمـة عصام الدين حـفني ناصف لكتاب جوزيف لويس الختَان **ضلالة إسرائيلية مؤذية (١٩٧١)** مع تعليقـه عليه. تناول الكتـاب تاريخ الخِتَان فـي الثقافـات القديمة. وعلق ناصف ببحث في أثر الإسرائيليات التي دسـها بعض اليهود الذين أسلموا على إعطاء انطباع خاطئ بأن الخِتَان مطلب إسلامي، بينما هو ضلالة مؤذية دسّها علينا أحبار اليهود، وشَعِيرة ذات طابع سياسي كرمز يدعو الإسرائيليين للتمسّك بنهب أرض فلسطين.

وقد قدّم الكاتب الساخـر محمد عفيفي عرضًـا لكتاب عصام حـفني ناصف في مـقاله «مُـرشِـد الحَيـرَان في عَـمليّـة الخِتَـان» (١٩٧١). يرى عفيفي أن الختَان تجسيد لسادية الكهنة، وأنه تجسيد عبري جديد للآلهة الدموية القديمة التي توقف عندها خيال الإنسان البدائي. ويسـخر عفيفي من الأسـاطير الطبية التي تتـذرع بالوقاية من الأمراض لتـبرير الختان، ويصـفُها بأنها جـدل مثير للسـخرية والرثاء «فلمـاذا نفترض وجـود ذلك الرجل الفذ في قـذارته الذي يرفض الاغتسال ويترك إفرازات جسـمه تتراكم يومًا بعد يوم حتى تصيـبه بالسـرطان؟! وإذا صحّ وجود مثل هـذا الحلوف أفلا ترى معي أنه يستحق أن يصاب بالسرطان فعلاً؟!» ويُنوّه عفيفي بأن من يموتُون بسبب الختان أكثر بكثـير ممن يموتون بـسرطان القضيب، ثم يستـطرد سائلاً سـؤالاً استنكاريًا عن سـبب عدم اسـتئـصال ثدي المولُودة الأنثى في اليـوم الثامن من عـمرها لوقِـايَتّها مـن سرطان الثدي المُنتشر بـين النساء. ثم يعرض عفيفي تعـقيب عصام الدين

حفني ناصف على كتاب جوزيف لويس الذي يفنّد فيه نسبة الختَان إلى الإسلام، مُبرزًا رأي الشيخ شلتوت الذي يقول

والذي أراه أن حكم الشرع في الختان لا يَخْضع لنص منقُول وإنما يخضع في الذكر والأنثى لقاعدة شرعية عامة وهي أن إيلام الحي لا يجوز شرعًا إلاَّ لمصالح تعود عليه وتربو على الألم الذي لحقه. وقد خرجنا من استعراض الروايات في مسألة الختَان على أنه ليس فيها ما يصح أن يكون دليلاً على «السنة الفقهية» ؛ فضلاً عن «الوجود الفقهي» وهي النتيجة التي وَصَل إليها بعض العلماء السابقين وعبر عنها بقوله «ليس في الختَان خبر يرجع إليه ولا سُنّة تُتّبع».

ويخلص عفيفي إلى أن التمسّك بالختَان في عصر الفضاء جمود فكري.

وكان المفكر جمال البنا قد كتب رأيه في الختان خصيّصًا سنة ١٩٩٧ لينشر كمُلحق لكتاب سامي الديب أبو ساحلية (٢)، ونشره أيضًا في مجلة أدب ونقد[1] ينفي جمال البنا أن الختَان سنة ملزمة، فالملزم من الحديث في رأيه «هو ما يصدر عن الرسول تبليغا عن الله أو تبيانا لبعض ما أجمله القرآن والختان لا يدخل في هذين». ويرى البّنا أن الختان يُنَاقض فكرة كمال الخلق التي

(١) البنا جمال. «**وجهة نظر في ختان الذكور والإناث**» أدب ونقد، فبراير ١٩٩٩، ص: ٩-١١

نص عليها القرآن. ويرى المؤلّف أن الختَان لا يتضمن إضافة للجسم، بل بترًا منهُ، لذلك لا يدخل في باب مُقتضيَات الولاية على أمر الطفل، بل يحرمه من العيش كما خلقه الله ومن حقه في عدم العبث بجسده.

وكتبت د. نوال السعداوي مقالات عدة متفرّقة عن الموضُوع في الصحافة المصرية. كتبت د. نوال أول هذه المقالات في مجلة أكتوبر سنة ١٩٩٥ حكت د. نوال في هذا المقال تجرِبَتَها حين رَفَضت إجراء الختَان للأطفال من الجنسين عقب تخرّجها من كلية الطب سنة ١٩٥٤، لاقتناعها أن المَشْرَطْ يجب ألاّ يقطع جزءًا سليمًا من الجسم. ثم عرضت د. نوال بعض الجراحات التي اعتاد الأطباء في فترات من التاريخ اعتبارها «عمليات وقائية» ثم أثبتت الأبحاث ضررَها، مثل استئصال الزائدة الدودية أو اللوزتين أو اللحمية دون أن تكون هذه الأجزاء مصابة بأي اعتلال. ثم ذكرت د. نوال الدراسات الحديثة التي أثبتت أضرار ختَان الذكور والإناث، والمُؤتمرات التي عقدت عن هذه الموضوعات في أوروبا وأمريكا ترى د. نوال أن ختان الذكور عادة عبودية وبقايا من طُقُوس تقديم القرابين البشرية للآلهة الوثنية، فقد عُرِف الختَان قبل ظهور الديانات السماوية. ثم تسرد د. نوال الوظائف الوقائية للغلفة ومضار ختان الإناث والذكور.

نشرت د. نوال السعداوي مقالاً آخر في مجلة روزاليوسف

سنة ١٩٩٨ ربطت د. نوال في هذا المقال بين نشأة ختَان الذكور والمُجتمع الذكُوري، وفسرت قصة ختَان إبراهيم في التوراة بأن سارة أمرت بِختَانه انتقامًا منه على تلكؤه في طرد هاجر وابنها إسماعيل. أما شعار «الأرض مقابل الختَان» فترى أن تفسيره يستلزم مزيدًا من دراسة العصور العبودية وتاريخ صراعات السلطة والأرض بين مُختلف الجماعات البشرية. وتكتب د. نوال السعداوي أن المبررات الصحية التي يُردّدها الناس والأطباء ليست إلاَّ غطاء لإخفاء الطابع القَمْعِي لعملية الختَان. عرفت د. نوال أضرار ختان الذكور من اطّلاَعها على الأبحاث الحديثة التي أجريت عنه أثناء وجودها للتدريس بجامعة ديوك الأمريكية من سنة ١٩٩٣-١٩٩٥ تعرض د. نوال آراء الشيخين محمد عبده ومحمود شلتوت اللذين يريان أن الختَان لا علاقة له بالإسلام. ثم تعرض أهمية الختَان من وجِهة النظر اليهودية كتطهير للمولُود من دنس دم الولادة بإراقة دم الختَان، وهو الطقس الذي تطوّر إلى التطهير بالماء في المسيحية. وتقول أن الرازي، وهو طبيب عربي مُسلم عاش في القرن العاشر الميلادي عارض كل ما يمسّ الجسم السليم، بما في ذلك الختَان، ونوّهت بأن كتب هذا الطبيب منعت من التداول في بلادنا، ولو أبيحت لعرف الناس أن الدعوةَ لمنع الختَان لم تأتنا من الغرب ؛ بل هي عريقة في بلادنا عراقة الصّراع بين العقل واللاعقل.

ثم نشرت د. نوال السعداوي مقالاً آخر بمجلة روزاليوسف أيضًا[1] ردًا على أم شابة اتّصلت بها وحكت لها كيف دافعت عن طفلها الوليد لكنها لم تعرف كيف ترد على الطبيب والأسرة المصممين على تختينه بزعم أن ختَان الذُكُور مفيد وغير ضار، وناشدت د. نوال نشر معلومات عن هذا الجانب من الختان. ردّت د. نوال بأن المجلّة بعد أن نشرت مقالها عن الجانب التاريخي والثقافي للختان رفضت نشر الجانب الطبي. ثم أعطت د. نوال معلومات موجزة عن مدَى حساسية الغلفة، ودورها الوقائي، ومضار حرمان الذكر منها ثم ذكرت المشاكل النفسية والصدمة التي يتعرض لها الطفل والألم الذي يحسه مع الختان حتى لو بتخدير موضعي، لأن المخدّر الموضعي لا يخترق كل الطبَقَات الخمس للجلد، ومَخَاطِر التخدير العام، كما شَرَحَت كيف يؤدّي الإحباط الجنسي للرجل إلى توتّره وعدوانيته، مما ينعكس على معاملته للنساء، لا سيما زوجته.

❁ ❁ ❁

(١) السعداوي، نوال. «رسالة من أم شابة عن ختان الذكور». روزاليوسف، ٨-٣-١٩٩٩، ص: ٧٢ ١

الفصل

الثالث

3

مفاهيم مهمّة:

سياسات النوع والمثقف

المفهوم الأول: سياسات النوع:

وصفت المفكرات النسويات في كتاباتهن «النوع» كمفهوم اجتماعي يمتد إلى تدخل المجتمع لتشكيل الأطفال من الجنسين في قالب يتفق مع الرؤية الثقافية للذكُورة والأنُوثة في إطار أدوار اجتماعية يحددّها المجتمع الذكُوري للرجال والنساء والفكر النسوي يضرب بجذوره في فكر التنوير الذي يشمل مفاهيم الحرية والعَدَالة، وينطلق منها في محاولة لفهم النظام الاجتماعي القائم بغية تغييره لتوفير مُعاملة أكثر عَدَالة للفئات الضعيفة والمحرومة[1] يستهدف التغيير المُرتقب -من وجهة النظر النسوية- النساء في المقام الأول، مع أخذ خُصوصياتهن العِرقية والطَبَقيّة في الاعتبار، كما يستهدف كل الفئات المحرُومة التي أُزيحت إلى الهامش في إطار

(1) Lennon and Whitford 1994.

النظام الاجتماعي الذُكُوري، ومنهم الأطفال من الجنسين بصفتهم مجموعة مهمشة بحكم فئتهم العمرية[1]

بنية سياسات النوع وتحيزات المجتمع الذكوري

في المُجتمعات الذكُورية تحتلّ النساء والأطفال من الجنسين موضعا اجتماعيا متدنيا بحكم اعتمادهم اقتصاديا على الرجال البالغين، فتعتمد النساء على أزواجهن والأطفال على آبائهم للحصول على الحماية واحتياجات المعيشة مُقابل الخضوع لسلطة الأب[2] وتزداد وطأة هذه التبعية في مَرَاحل الانتقال من التنظيم الاجتماعي التقليدي المُعتَمد على اقتصاد الكَفَاف -حيث تقُوم النساء ببعض الأنشطة المنزلية ذات القيمة الاقتصادية/ الاجتماعية-

(1) Sacks 1989.

(2) Lerner 1986.

إلى اقتصاد السُوق الذي لا تقيم فيه الخدمات المنزلية تقييما اجتماعيا[1] في هذه الظروف، تعتبر أي مُحاولة من النساء لأخذ قرار مستقل دون لف ولا دوران أمرًا مستهجنًا، ومن تجرؤ منهن على هذه المُحاولة تُهاجم باعتبارها قد تجاوزت حدودها.

و من العوامل التي لعبت دورًا في تدني مكانة المرأة في المجتمع الذكوري أن الأعراف والقوانين التي وضعها الرجال لا تجعل في مُتناولها المشاركة في علاقات الحكم، بل أن أهم مُنتجاتها بحكم تقسيم العمل بين النوعين، أي الأطفال، ليسوا ملكها، بل ملك أبيهم وأسرته بعد فترة حضانة طالت أو قصرت[2] والنساء لسن بريئات من إقرار هذه السياسات، فهن يُشاركن في استمرارها بَصمتهن[3]

تشكيل صورة الذكورة والأنوثة

تفسر شيري أورتنر تدنّي وضع المرأة في المجتمع الذكوري بتصور هذا المجتمع للذكورة والأنوثة، حيث تربط الأنثى بالطبيعة والذكر بالثقافة. فالمرأة تحقق نفسها وتشبع طاقاتها الخلاقة بالاعتماد على قدرتها على الإنجاب، بينما يضطّر الرجل إلى الاعتماد على التكنولوجيا والثقافة لتحقيق قدراته الإبداعية.

(1) Meillassoux 1972.

(2) Moghadam 1993: 105.

(3) Smith 1987:34.

وبذلك ترسم صورة الرجل كـكائن قوي، عالي المكانة، مُـثقّف، طَاهِر، مُســيطر، بينما ترسم صورة المـرأة على عكس ذلك، فهي مُرتبطة بالطبيعـة الخام، مُتدنّية المكانة، ضعِيفـة، دَنسِة، وخاضعة وحبيسة جدران بيتها[1]

و في المجتمعات التـقليدية يكون الإنجاب هو نصيب المرأة من العمل الاجـتماعـي، لكنها لا تَملِك ناتج هذا العـمل: الأطفال، فهم لأبيهــم وأسرته كما سَلَف القـول. وتتأثّر المكانة الاجتمـاعية للأم الشــابة بهذا الوضع الذي يعطي الكلمـة العُليـا فيمـا يخص أطفالها للأب وأسرته. فمن محددات المكَانة في المجتمع مدى تمتع الفرد بالتصرف في نواتج عمله[2] والمرأة بحُكم سياسات النوع وتقسيم العمل بين الجنسين في المجتـمع الذكوري محرُومة من هذا الحق.

ارتباط طفولة النوعين بالإناث

الأطفال، وبالذات الـذكور منهم، من أغلى ما تطَـمح النساء إلى الحـصول عليـه. فهم من عـوامل تحديد مكَانتـها فـي الأسرة والمُجتمع[3] والنساء يهتممن بأطـفالهن الذكور أكثر من الإناث لاعتقادهن بأن الذكر أرهف إحساسًا وأكثر عرُضة للأخطار، لذلك

---

(1) Moore 1988: 12-24.

(2) Moore 1993: 31-32.

(3) Inhorn 1996.

ينصرف جل اهتمامهن إلى حماية الأبناء الذكور وتجنيبهم أي ألم أو مُعاناة[1] وحسب نظرية دوروثي سميث الداعية لطرح مسائل الحياة اليوميّة كإشكاليات، وبحث علاقتها بعلاقات الحُكم يكون لهذا الهمّ الخاص بالنساء طابع سياسي ككل الأمور الخاصة التي تخفي وراءها سياسات قُوى مُجتمعية[2] لذلك يُمكن الكشف عما وراء هذا الهم الخاص بطرح تساؤلات عن المُمَارسات التي تنتهك هذه العاطفة، والتي يحرص المجتمع على تغليفَها بالصمت، وأهمها الختان. ويعني طَرح الهُموم الحياتية العادية على بساط البحث أن ينقب الباحث عن علاقة الموضُوع المبحوث بعلاقات الحكم الممثلة في المؤسسات والمعارف والإيديولوجيات السائدة ذات الصلة بالموضُوع المبحوث. وفي إطار هذا النهج لا يُوجد ما يسمى مُوضوعات تافهة أو ليست لها أولوية أو ما شابه من الحجج التي يشهرها المجتمع في وجه من يضع هذه القضايا موضع التساؤل، فمثل هذا البحث كفيل بكشف النقاب عن ما خَفِي تحت مُمارسات تبدو عادية وبريئة، وإني لأفترض أن مَا خَفِي كان أعظمُ.

استخدام الجنس كوسيلة للتحكم

تناولت دراسات عدة علاقة الممارسات التي تتم على جسد الإنسان بسياسات الضبط الاجتماعي، فالجسد يصلح عُمومًا

(1) Abd el-Salam 1998.

(2) Smith 1987.

كوسيط عمـلي يجرى عليه التحكم الاجتمـاعي في الفرد بتشكيل جسـده حسب تصور المجتـمع لما ينبغـي أن يكون عليه الفـرد، ويتـضح هذا مثـلاً في الخطَاب الذي يتناول الشكل المُلائم لجسد المرأة ووزنها، ومـا يترتّب على ذلـك من ترويج لأساليب لمُعَـالجة الأجساد التي تخرج عن التصور الاجتماعي لما هو ملائم[1] وقد وصفت الباحثة نانسي شيبر هيوز[2] ثلاثة مستويات للتعامل مع الجسد البشري تتدرج من الملموس إلى المجرد. أول هذه المستويات وأكثرها مبُـاشرة هو المستوى الفردي، وفيه يتم التَـعامل مع الجسد كـجسـد فرد آدمي يحس بالألم والـلذة. ويتم على هذا المُستـوى مرور الفـرد بالخبرات الذاتيـة الملموسة والاستـجابة لها. المُسـتوى الثاني هو المُستوى الاجتمـاعي، وفي هذا المُستوى يتم التعامل مع الجسـد كأداة مجـردة من أي خصـائص فردية ملمُـوسة، وبذلك ينقُش المجتـمع رُموزَه على الجسد. والمُـستوى الثالث للتـعامل مع الجسد مُستوى سياسي، حيث يتدخل المجتمع لضبط ورسم حدود الممنوع والمباح في استخدام الأفراد لأجسادهم.

رغم ارتبـاط الجنس بالجسـد على المسـتوى الفـردي، إلاّ أن الجنس بمفهومه الاجتماعي لدى البشر ليس مُجرّد ممارسات غريزية جسدية آلية، بل هو مُركَّب مُعقّد من الرموز الثقافية ووجهات نظر المجتمع المرتبطة بأجساد الأفـراد، بما في ذلك تصوّر المُجتمع لمعني

(1) Bordo 1993.

(2) Scheper-Hughes 1987.

الذكورة والأنوثة وربط هذا التصور بالرجـال والنساء كما يجب أن يكونوا في إطارِ ثقافة هذا المجتمـع. لذا يعمل الجنس بهذا المفهوم كوسيط بين الجانـب الجسدي والجـانب الاجتـماعي للـفرد[1]

والجنس من وظائف الجسـد التي استخدمهـا أصـحـاب السيادة في المجتـمع الذكوري في العصـر الحديث للتحـكّم في المنضوين تحت سيادتهم، سيـما النسـاء والأطفـال. ففي فـتـرة التحـول الرأسمـالي حدَّدت عـلاقات القـوى السائدة السلوكـيات الجنسـية المقـبُولة، ومـا يجبُ أن يكتبُ أو يقـالُ أو لا يقـالُ عن الجنس، ووضعت كل هذا الخطاب في خـدمة أغراضها. ولمـا كان الإنتاج هو أهم هدف للمـجـتـمع في هذا الحين، وضـعت الكثـيـر من التحريمات حـول استخدام الجنس لغير غـرض إعادة إنتاج الأيدي العَاملَة، فصـار الجنس المقبول هو الذي يُمارسه الزوجـان البالغان بغرض الإنجاب، وكل ما عدا ذلك ينـظر إليه المجتمع شذرًا، ولا يتورع عن التدخل بمؤسساته -و أهمهـا المؤسـستان الطبية والدينية- لوقفه عند حده بصفته انحـرافًا جسديًا يؤدّي إلى شيُوع الفوضـى في المجتمع[2] فعندمـا يجتـمع الاغتراب الذي يُمـيّز عـلاقات الإنتاج في المجتمع الرأسمالي مع التـحيزات ضد النساء والأطفال التي تميـز المجتـمع الذكوري فلا غـرابة في أن يسـعَى المُجـتـمع للتحكّم في أجساد هؤلاء الأفراد بكل الوسـائل المُمكنة وإخضاعها

(1) Abd el-Salam 1998.

(2) Foucault 1984.

بحـيث لا تَحيد عن وظيفة إنـتاج البضائـع في المصنع والأطفال فـــي الأسرة[1]

و لا ينفع لإزالة التمـييز ضد الـنساء والأطفال ترحيل قـضايا النُوع إلى ذيل قائمة أولويات العمل الاجتماعي بحجة أن الأولوية يجب أن تعطى للتنميـة الاقتصادية في المجتـمعات الناميـة، فهذه الرؤية للقضايا فيها تبسـيط مُخل وتجاهُل لموازين القوى وسياسات السيطرة الاجـتمـاعية في المجـتمع الذكـوري. فالتنمـية لن تُؤتي ثمارها دون الالتفات لقضايا النوع[2] وهذا التحليل ينطبق على الأطفـال من الجنسين كـمـا ينطبق علـى النســاء. لذلك ليس من مصلحة النساء الصمت عن المُمارسات الضارة بالأطفال أو اعتبارها خـارج الأولويات التي قـد تُحسِّن أوضـاع النســاء فالأقـوياء لا يفرضون على الضـعفاء حدودًا لا يتخطونها بمجرد الـتآمر عليهم، بل يشارك الضـعفاء في هذا بـصمتهـم واختيـارهم الطوعي لعدم تخطِّي هذه الحدود المفـروضة عليهم. ومما يفرِضُ عليـهم الصمت إحساسهم بعـزلتهم وضعفهم وعدم ثقـتهم بأنفسهم[3] وحسب تحليل فوكو، يـبشّر طرح الممارسات الاجـتماعية المتـعلقة بالجنس للنقاش العـام بحُدوث تغيـير في موازين القـوى لصالح الأطراف الأضعف[4]

---

(1) Trask 1986.

(2) Hatem 1986.

(3) Janeway 1980.

(4) Foucault 1984: 6-8.

حركة تحرير الرجل:

لا يَقْتَصر التمييز بسبب النوع في المجتمع الذكوري على النساء وحدهُن، فالقهر يمتد أيضًا إلى الرجال. فطن الرجال المعنيين بالمُساواة بين الجنسين إلى هذه الحقيقة، ومن هنا، نشأت حركة تحرير الرجل في الغربِ في النصف الأول من السبعينيات. قارن الرجال من قادة هذه الحركة بين المكاسب التي يمنحها لهم المجتمع الذكوري بتمكينهم من احتكار السلطة في مؤسساته وبين المعاناة التي يحملون عبْأها بسبب ما يفرضه عليهم المجتمع الذكوري من تشكيل للهُويّة والجسد بحيث تلبيان صورة الذكر التقليدي وتخدمان دوره المحدد سلفا والمُوصى بموجبه بابتعاد الرجال عن الرقة وحملهم لصفات الخشونة والعنف والصلابة، وحقهم في استخدام هذه الصفات لتحويل حياة النساء إلى جحيم. ثار هؤلاء الرجال على فكرة تقسيم الأدوار بين النوعين، بحيث يفرض دور الذكر على الرجل الصرَامة ويحرِمَه من التعبير عن الانفعالات والعواطف، ويرون أن تحديد دور الرجل على هذا النحو قد أضر بالرجال وزاد من قهر النساء. ونادى النشطون في حركة تحرير الرجل بألا يكون النوع أساسًا لتحديد أدوار النساء والرجال، بالضبط كما لا تُحَدِّد الهوية الطبقية أو العرقية أدوارا معينة للمنتمين إلى مُختلف الطبقات الاجتماعية أو الجماعات العِرقية، بمعنى أنه يمكن قبول تباين الهوية النوعية لكن الأدوار الاجتماعية يجب أن تكون مفتوحة للجميع بحيث يمكن أن تتولى

المرأة السلطات ويتـولّى الرجل الرِعَـاية والحنو على قدم المسـاواة. عـلاوة على ذلك، رأى المُنخـرِطُون في حـركـة تحـرير الرجل أن تقسيم الأدوار وفـقًا للنوع فيه تناقض غير قـابل للحل إلاَّ بتجاوز هذا التقـسيم والتـحول عنه. فرغـم أن المجـتمع الذكـوري يحابي الرجال بتسـليمهم مقَاليـد السُلطة في مؤسسـات المجتمع، إلاَّ أن معظم الرجـال لا يشعرون بأنـهم ذوي حول وقوة بالفـعل. فأهم معيار للذكورة في هذا المجتمع هو نجاح الرجل في مُمارسة الجنس مع امرأة. وهو حسـب هذا المعِيَار مُلتزم باتخـاذ المبادرة وأخذ كل الخطوات الإيجابية نحو تحقيق هذا الـهدف، لكنّه ممنوع من التعبير الحر عن عواطفه الدافئـة بحكم الصورة التقليدية لدوره مما يصعب عليه لعب هذا الدور بكفاءة وبـذلك يرغم على أن ينحصر دوره في علاقـاته الجنسية والاجتـماعيـة مع النساء في الأداء الآلي، ممَّا يحرمه من جزء مهم من حقـوقه الإنسانية. وبذلك يقع القهر على كل من يعيش وفقا لمعايير المجتمع الذكوري، سواء في ذلك النساء أو الرجـال. فالقـهر العاطـفِي الذي يواجهـه الرجل ينعكس على المرأة، إذ يستخدمها الرجل لإثبـات ذاته للرجال الآخرين. فالنساء في هذا النمـوذج يتـحـوّلن إلى مـوضـوع للجنس والرجـال إلى موضوع للنجاح بمعايير المجـتمع الذكوري. وبذلك يتحوّل النوعان من ذوات إنسـانية فاعلـة إلى موضُوعـات مفـعول بهـا ويعتـبر المنظِّرون الاجتـماعيون أن هذا التـحوّل من نظرية الدُور إلى نظريه الهُويَّة في علاقات الجنسين مـؤشر دالٌّ على تحوّل النموذج النظري

في دراسة علاقات النساء بالرجال من النمُوذج البنيوي/ الوظيفي كما وصَفَه تالكوت بارسونز وروبرت بيلز في الخمسينيات إلى النموذج النسوي.

تَصور الرجال أن تحالفهم مع الحركة النسوية سيأتي بالتغيير المرتقب في علاقات النوعين. لكن مع بداية الثمانينيات انقسمت حركة تحرير الرجل إلى جناحين. رأى الجناح اليميني المُحافظ أن النساء ركّزن على تحقيق مكَاسب لنوعهن وأهملن ما يُلاقيه الرجال من تمييز جنسهم، فانفصلوا عن حركة تحرير الرجل ورفعوا شعار «حقوق الرجل» باعتباره ضحيَة ومقهوراً. وبدلاً من أن تأسيس حركتهم على التحالف مع النساء، أسسوها كمعركة مع النساء وفي مواجهة حركتهن التي أنها حققت لهن نصيب الأسد، فقد احتفظن من دورهن التقليدي بحق التعبير العاطفي الإنساني وزاحمن الرجال في أدوارهم التقليدية في مواقع السلطة.

أما الجناح اليساري التقدّمي من حركة تحرير الرجل فاستمر في التحالُفِ مع حركة تحرير المرأة من أجل رفع عبء الأدوار التقليدية عن النوعين معا يرى أعضاء هذا الجناح أن المجتمع الذكوري يمر بأزمة، وأن الخروج من هذه الأزمة لن يأتي إلاَّ بتحالف الرجال مع أجل جلب تغيير اجتماعي بتحوِيل مُؤسسات المُجتمع ومنها مؤسَّسة الأسرة - إلى مؤسسات يسُودها التعاون والمساواة والسلام بين الجنسين. يرى أعضاء هذا الجناح أن المجتمع الذكوري يشكل جسد الرجل بحيث يحمل

رموزًا دالَّة على القوة والعنف الجسدي في آن واحد. فالممارسات الاجتماعية الرامية إلى تشكيل الذكورة - كالمباريات الرياضية مثلاً- تترك آثارها على جسد الرجل بقصد بناء هوية النساء والرجال على أساس النوع. والنوع ليس مُجرّد نسق رمزي من العلامات والمعاني. فهذا النسقُ الرمزي له انعكاس مادي على الحياة المعاشة، إذ يؤثر على تقسيم العمل بين الجنسين في البيت وخارج البيت، فيعطي الرجال مُمارسة السُلطة والعنف والنساء حمل الأطفال ورعايتهم. ولا خُروج من هذه الأزمة في رأي الجناح التقدّمي من حركة تحرير الرجل إلا بالتحالُف مع النساء في سبيل إصلاح سياسات النُوع من أجلِ الوصُول إلى تحقيق العدالة الاجتماعية[1]

المفهوم الثاني: المثقف:

لا يصحّ في أي حديث علمي أن نتحدّث عن أي مفهوم بدون تعريف كل جوانبه، حتى إذا كان هذا المفهُوم مُتداولاً على نطاق واسع. وقد اعتمدتُ في تعريف مفهوم «المثقف» ودوره في التغيير الاجتماعي على كتابات أنطونيو جرامشي[2] ، وإدوارد سعيد[3]

(1) Martin 1998; Connell 1998, Lorber 1998; Messner1998.

(2) Gramsci 1971; Hoare 1971. p.

(3) Said 1996. p.

تناول جرامشي مفهُوم المثقّف بالتحليل في الإطار الكبير للتنظيم الاجتماعي، إطار العلاقات الطبقيّة ورغم أن هذا الكتاب يتناولُ علاقات البشر في مستوى أصغر من التنظيم الاجتماعي، هو مستوى علاقات النوع، إلاَّ أن تحليل جرامشي يُمكن أن ينطبق في مجمله على هذا المستوى من العلاقات الاجتماعية. أما تناول إدوارد سعيد للمثقف فكان أكثر عمومية وأقل ارتباطا بأي مستوى معين من مستويات تنظيم علاقات البشر، لذا يصلحُ لإلقاء المزيد من الضوء على المثقفين المعاصرين المهتمّين بقضايا النوع وتفسير خلفيات اتجاهاتهم من بعض القضايا، وأثر هذه الاتجاهات على أهدافهم العامة المُعلنة.

تعريف المثقف:

المُثقّف في رأي جرامشي هو من يتفلسف، بمعنى أنه الإنسان الذي يُكوّن تصوراً عن العالم يقتدي به في حياته. والتفلُسف بهذا المفهوم ليس وقفًا على نخبة من المثقفين المحترفين، فكل إنسان لديه تصور عن العالم. فالفلسفة لا يحدها نشاط ثقافي واحد، إذ توجد في اللغة التي تحدد مفاهيم، والحس العام والحس السليم، وكل النظام الثقافي الموروث الذي يشمل المعتقدات، والخرافات، والآراء، ووجهات النظر، وأساليب السلوك. تأتي بعد تلك المرتبة العامة التي يشترك فيها البشر كافة مرتبة التفكير النقدي في العالم، أي الوعي الذي يكتسبه الإنسان بالعالم نتيجة تمحيصه لما يقدمه له

المجتمع ويفـرضه كحكمة جمـعية[1] ولا ينفصل المثـقف وفقًا لرأي جـرامشي عن الوعي الطبـقي. ومن هنا، يوجد نوعـان من المثقفين: المثقف المحترف، والمثقف العضوي(*) المثقف المحترف هو الذي يعتبر نفسه طَلِيعة تقُـود غير المثقفين، بينما يلتحم المُثقّف العُضوي بـالجماهير ومن العلامـات الفارقة بين المثقـف العضوي والمحتـرف أن المثقف العـضوي لا يكتـفي بالفصاحـة البلاغـية أو التنظير، بل يُسهم إسهـامًا فعالاً في خضم الحياة العـملية للبشر، ويتصور التاريخ في علاقته بالإنسانية، وهو ليس كالمثقّف المُحترف الذي يحصر نفـسه في إطار تَخصّصه، بل هو مُـتخَصِّص يوظف تخصصـه في دفع عجلة التاريخ بما يُصلِح من حَال البَـشر وبهذا المفهُوم ينُوب مُثقّفو الطبـقة السائدة عن جماعاتهم في أداء وظائف الهيمنة الاجتماعية والسيادة السياسية على بقية الطبقات[2]

ويعرض إدوارد سعيد تعريفات بعض المُفكّرين للمُثقّف. يرى بعض المفكرّين المثـقّف فردًا مُنفصـلاً عن العامة مـتباعـدًا عن قاع المجتمع، مثل المفكّر جوليان بيندا الذي يرى المثقف أداة في خدمة الحكومة، أو شـخصًا رمـزيًا يتعالى على الواقع ويُشـرِف عليه من

(1) Gramsci 1971.

(*) «العضوى» هو المصطلح الشائع ترجمة لـ Organic ، لكن المعنى الأصح لها هو «المنتمى» ، أي الذي لا ينفصل عن مجـتمعه وفي نفس الوقت يتسق مع ذاته وقـد اسـتخدمت لفـ «العـضوى» رغم أنه خطأ شـائع ، لأن الناس اعتادته

(2) Hoare 1971.

برج عاجي. والبعض يصف المثقفين وصفا طبقيا، مثل عالم الاجتماع الأمريكي آلفين جولدنر الذي يقول إنّ المثقفين يكونون طبقة جديدة حلت محل طبقة أصحاب الأملاك. وتجمع بين أفراد هذه الطبقة الجديدة ما يسميه جولدنر ثقافة الخطاب النقدي، ويتحاورون مع زملائهم في مجال تخصصهم المشترك بلغة متخصصة لكن مفكرين آخرين لا يعتبرون المثقفين طبقة، بل شريحة ممثلة لطبقاتهم. فوفقا لرؤية جرامشي للمثقف العضوي الملتحم بالجماهير والملتزم بقضاياها، يعتبر كل من ينتج المعرفة أو يبثها لغيره في أيامنا الحالية مثقفا ووصف ميشيل فوكو المثقف العام بأنه شخص يعمل في تخصُّص معين، لكنه قادر على توظيف خبرته في مجالات أخرى خارج مجال تخصصه. ويرى إدوارد سعيد أن كل الثورات الحديثة، والثورات المضادة للحداثة لم يكن من الممكن أن تقوم بدون المثقفين، فالحركات الاجتماعية تولد من رحم المثقفين. والمثقف القادر على إحداث هذا التغيُّر الاجتماعي هو الذي يقوم في الحياة العامة بدور «الهاوي» المهمش الذي يقلق ركود الأمر الواقع المستقر ويوجد بالطبع في كل مجتمع مثقفون على خلاف هذا التصور الذي وصفه سعيد، فمنهم من يخدمون السلطة، ومنهم من يرفعون شعارات براقة ثم يدافعون عن سياسات رجعية منافية لشعاراتهم النظرية الحالية أو الماضية. وهؤلاء يسميهم سعيد المثقفين المحترفين. يعرف سعيد ويرى النزعة الاحترافية بأنها التعامل مع الثقافة كوسيلة لكسب

العيش، وبالتالي الحرص على عدم تجاوز حدود السلوك المقبول للمؤسسة التي تبتاع خدماته، فبهذا وحده يُعرف بأنه شخص موضوعي غير خلافي ويرتفع سعره في سوق العمل. وهذا في رأيه أهم خطر يهدد نزاهة المثقف(1)

من تحليل أنطونيو جرامشي وإدوارد سعيد نستخلص وجود نوعين من المثقفين: نوع أسميناه كلاهما المثقف المحترف، وأفراده يضعون أنفسهم في خدمة الأطراف الاجتماعية الأقوى في أي مستوى من مستويات العلاقات الاجتماعية/السياسية، والمثقف المنحاز للأطراف الضعيفة والمهمشة في علاقات القوى، والذي أسماه جرامشي المثقف العضوي، وأسماه إدوارد سعيد المثقف الهاوي. لا يستخدم إدوارد سعيد مصطلح «الهاوي» لوصف المثقف المنحاز للضعفاء بالمعنى الدارج للكلمة، الذي يحمل ظلال اللهو، بل يقصد به المعنى الأعمق لها، أي الشخص الذي يهوى عمله، بمعنى يحبه ويتفانى فيه ويسعى لإجادته، والذي يمكن تسميته في رأيي المفكر الحر وهذا يفسر وجود بعض المثقفين في جميع المجتمعات ممن يأخذون جانب مؤسسات السلطة الاجتماعية الراهنة، حتى لو أدى هذا الموقف إلى محاربة بعض المعلومات الجديدة التي قد تحدث تغيراً اجتماعياً لصالح الفئات الضعيفة، وبهذا يختارون الانتقال إلى موقع التعتيم وليس التنوير لم ينف كل من جرامشي وإدوارد سعيد وجود النوعين من المثقفين جنبًا إلى

(1) Said 1996. P.

جنب في كل المُجتمعات، لكنهما أعليا من قيمة المُثقّف المُنحاز للضعفاء لأنه وحده القادر على دَفِع عَجَلة التَطَوّر الاجتماعي للأمام.

وظيفة المثقف

يُسهِب جرامشي في شَرحِ فكرةِ المثقّف العُضوي. يرى جرامشي أن المثقفين ليسوا طَبَقة مُنفصلة عن بقيّة الطبقات، فكل طبقة تنشأ عبر تطوّر التاريخ تُفرز من بينها شريحة أو أكثر من مثقفيها، تكون مُهّمتهم تفتيح وعي طبقتهم على تميزها الاجتماعي والسياسي عن غيرها من الطبقات يجد هؤلاء المثقّفون أنفسُهَم في مُواجهة مثقّفي الطَبَقات الأقدم الذين يتصدّون لمُحَاولات التغيير الاجتماعي، وعلى رأسهم رجال الدين والطب[1]

و يرى إدوارد سعيد أن من مهامِ المثقّف تحَطيم الأنماط والقوالب التي تُكبّل الفكر الإنساني وتحدّ من التواصل بين البشر. يعرف إدوارد سعيد المثقفين بأنهم شخصيات لا يُمكن صبُّها في قوالب ولا ربطها بشعار مُعيَّن، أو خط حزبي متشدد، أو فكرة جامدة متسلطة. ويكون التزامهم الأساسي بقضايا البؤس الإنساني بغض النظر عن انتماءاتهم الحزبية أو القومية أو ولائهم لفئة مُعيّنة. والمُشكلة التي يواجهها المثقف هم حفنة المهنيين العالمين ببوَاطن الأمُور الذين يشكّلون الرأي العام ويدفعُونه لمُسايرة مَا هو مُتّفق

(1) Hoare 1971.

عليه. من واجب المثقّف أن يسعى للبُعد عن الضغُوط التي تمارسها عليه مـؤسسات المجتـمع، ومن هنا يأتي تعريف المثقّف كمُـهمّش وهاوٍ وصاحب لغة تحاول توصيل الحقيقة للقوى الحاكمة. والمثقف شـخص يتمـتَّع بخاصـية القـدرة على تمثـيل وتجسـيد وتوصـيل الرسائل، والآراء، والاتجـاهات والفلسفات إلى عـامة الناس ومن أجلهم، كمـا أنه يَقدِر على مُـواجهة الأفكـار الجامدة المتـشددة، وينبغي عليه ألا يعـيد إنتاجها لأن دوره هو تحـدّي وتخطّي المعايير السائدة ودفع الجمـاعة إلى تغيير مـوقفها من الإجمـاع على قبول هذه المعايير إلى مُعارضتها. كما يرى أن مبرر وجود المثقّف هو أن يمثل البشـر والقضايا التي جرت العـادة على تجاهلها أو «إخفـائها تحت البُساط»، يحـدوه في هذا إيمانه بمبدأ أن للناس جمـيعا الحق في الحياة الكريمة والمُعـاملة العادلة من قبل أصحاب مـراكز القوى في المُجتمع، وأن من واجبه أن يمتلك شـجاعة مواجهة الظلم وأن يُكافح ضد انتـهاك حقوق الضـعفاء والمثقّف لدى إدوارد سـعيد شخصية عامة بحُكم هذا التعـريف، لكنه أيضًا مثقّف مستقل عن مؤسـسات السلطة. وحـيث أن مِهنَة المثقّف هي تمثـيل من يتناول قضـاياهم، فلابد أن يقبل ضـمنًا بالالتزام بواجـبه تجاههم وقـبول احتمالات المخاطرة التي ينطَوي عليها هذا الواجب. ومن واجبات المثقّف أيضًا أن يربط بين الأَزمات التي تعانيها جماعته وبين معاناة الجماعات الأخرى المثِيلَة في كل العالم.

ومن أهم المُشكلات التي يُواجـهها المثقّف وجـود أصوات في

الساحة الثقافيَّة وظيفتها إبقاء الأمُور على ما هي عليه والحفاظ على توازنات القُوى الراهنة والوقوف ضد أي محاولة لتحديها أو لتغييرها. هذه الأصوات تُخَدِّر عقُول الناس وتُؤخِّر تَفتُّح وَعْيِهِم بأوضاعهم وتُغريهم بالركون إلى القبول السلبي دون تمحيص للأفكار التي تروجها هذه الأصوات، فالأسهل دائمًا تبني الوصفات الجاهزة وتكرار ما اعتادت عليه الجماعة. ومن مَهَام المثقّف الذي يَختَار الانحياز لجماعة الضعفاء أن يكشف للجماعة كيف تكوّنت الاعتقادات التي يَتَبنونَّها بوصفها حقائق اجتماعية ثابتة، وأن هذه القناعات ليست فطرية، بل مصنُوعة، فالحقيقة بالنسبة للحكَّام والمُمسكين بِزِمَام الأمُور غيرها بالنسبة للمحكُومين والخاضِعِين للوِصَاية[1]

المثقف بين المسَايرة والمغايرة

يرى جرامشي أن أي فرد مهما بلغ تفكيره النقدي يُساير الثقافة السائدة بشكل أو بآخر. ولأن ثقافة أي جماعة في أي عصر تتكون من مَزِيج العناصر التي شكلت بنيتها عبر التاريخ، فالمحك الذي يفرق الخضوع السلبي للموروث عن الانتقاء النَقدِي منه ليس المُسايرة في حدٍّ ذاتها، بل كنه الحقبة التاريخية التي يُسايرها الإنسان. ويبلُغ الإنسان هذه الدَرَجة من الثقافة حين يستجيبُ للمشكلات التي يطرحها الواقع بحلول مبتكرة تَتَماشى مع مستوى

(1) Said 1996

الفكر في الوقت الحاضر، وليس بوصفات متحجِّرة عَتِيقة مُستعارة من الماضي ولا تصلح للعالم الحديث. وقد يتصرّف المرء في حياته العملية بوحي من تضور عن العالم مستمد من واقعه المعاش، بينما تهيمن على أفكاره النظـرية تصورات أخرى اكتسبـها من مورُوثاته الثقافية، وهنا يكون عليه أن يوفق بين النظرية والتطبيق(1)

و يشرح إدوارد سعيد أهمية أن يعمل المثقف برُوحِ الهاوي إذا أراد أن يمثل حقًا المستضعفين والمهمـشين ويجلب تغيرًا اجتمـاعيًا لصالحهـم، فهذا وحده قادر على أن يُـقوّيه في مُواجَهَـة الضغُوط التي يتعـرّض لها المثـقّف المُحتَرِف في الـعالم الحـديث. وأول الضغُوط التي يواجهها المهنيون المتخصصون هو الانحصار في دائرة التـخـصص الـدقـيق ومن ثم الالتـزام الجـامـد بمـواقف مُنَظِّري التخصص. الضغط الثاني يواجهه الخبراء المُعتَرف بعلو مكانتهم في تخصصـهم، وهؤلاء يخضعون للالـتزام باختيارات المؤسسة التي نصبـتهم خبـراء، علما بأن «الخـبيـر» المعـترف به رسـميـا ليس بالضرورة أكـثر حائزِي المعرفة في مـجاله، بل قد تمنحـه المؤسسة ذات السُلطة هذا اللقب لمسايرته لتوجهـاتها الأيديولوجية. الضغط الثالث هو نُزُوع المتـخصِّصين والخـبراء نحو التطلّع إلى الانضـمام لذوي السلطة، وبذلك يحـرص على نيل رضـاهم لـيضمـوه إلى زمرتهم. ويزدري إدوارد سـعيـد العادة العقليـة التي تدفع بعض المثـقفين إلى تجنّب اتخـاذ موقِف في القـضايا المبـدئية التي تتـسم

(1) Gramsci 1971. P.

بالصعُوبة، فـيُقرِّرون التخلّي عن مُساندة قـضايا رغــم تأكدّهــم من عدالتها. ويرى أن رسوخ هذه العادة في ضمير المثقّف هو أكثر ما يُمكن أن يجرّد الحيـاة الثقافية من طابعها الحـماسي الحار حتى يقتلها[1]

❁ ❁ ❁

(1) Said 1996. P.

الفصل

الرابع

4

مـــاذا تعــرف النســاء عـــن الرجـــال...

وماذا يعرف الرجال عن أنفسهم ؟

معلومات ومعتقدات المثقفين/المثقفات عن ختان الذكور

سأعـرض في هذا الفـصل وصفًا لمـعلُومات ومُـعتقـدات من حاورت من المثقفين والمثقفـات عن ختَان الذُكور في بداية الجلسات التي أجـريتهـا معـهم.ومـعهن، قـبل أن يعـرفوا منِّي مـزيداً من المعلُومـات التي كَشَفَـت عنها دراسات أجـريت حديثـا في العلوم الطبيَّة. يشكّـل هؤلاء المثقفات والمثقـفين قطاعًا مهمًـا من المُجتمع يؤثّر فيه ويتأثر به. تكمن أهمية تأثير المثقفين في المجتمع في نظرته إليهم كَطلِيعَة تنشغل بتحصيل المعرفة وتدقيقها ومُضاهاتها بالموروث الثقافي، وصياغة تصورات جديدة عن الحياة، قد يقبلها العامة وقد يرفـضُونهـا، لكنَّهم في كل الأحـوال يرونَهـا جـديرة بالاهتمـام والاشتبـاك في حوار وصراع حولَها. وقد بلغت نسـبة الأطباء في مجـمُوعة المثـقّفين الذين حـاورتهم حوالي ٥ ٪. هذا التركيب

المهني الذي تميَّزت به مجمُوعة المثقَّفين/ المثقفات في هذا البحث المعني بدراسة ختان الذكور له أهميَّته. فعندما يتعلَّق الأمر بالسلامة الجسدية والصحة - كما هو الحال في موضُوع الختان- يصير لاتجاهات الأطباء أهمية شديدة، فاتجاهات الأطباء نحو مسألة ما تتأثر بتحيزاتهم، التي تتحدد كحصيلة للتفاعل بين معتقداتهم الاجتماعية الموروثة، وتجاربهم الشخصية الملمُوسة، ومعلُوماتهم المكتَسبة. وقد وجد «بايرون جود» أن الطب يجمع في لغته ما بين نظامي المعرفة والاعتقاد[1] وللمُجتمع المصري تجربة ملموسة مع أثر اتجاهات الأطباء على قضية تنظيم الأسرة، اتضح فيها أن الأطباء يحملون معهم إلى عملهم الميداني مزيجًا من المعلومات الطبية والمعتقدات الدينية والاجتماعية[2]

(1) Good 1994. P.

(2) El-Mehairy 1984. P.

وجهت لمن حاورتهم من المثقفات والمثقفين سؤالاً مفتوحًا لاستكشاف المنظور الذي يرون منه ختان الذكور. سألتهم: ماذا تعرفون عن ختان الذكور؟ ثم أجريت مع كل منهم حوارًا تفصيلياً حول كل معتقد ذكره من منظُوره الأوَّلي للختَان. ومن واقع إجاباتهم على هذا السؤال الاستهلالي وجدت لديهم منظُورين رئيسيين: منظور ثقافي/ اجتماعي ومنظور طبي/ صحي.

(أ) - المنظور الثقافي/الاجتماعي

رأى بعض المثقَّفين/ المثقفات أن الختان عادة اجتماعية ذات أبعاد ثقافية في المقام الأوَّل، وقد ذكر هؤلاء عدة معتقدات شكلت ملامح هذا المنظور. وأهم ملامح هذا المنظور المعتقدات الخاصة بأن ختَان الطفل الذكر طقس لتدشينه وإدخاله إلى عالم الرجال. يرتبط بهذا المَلمح الاعتقاد بأن مَظهَر الرجل غير المُختن غير مقبُول، وبالتالي يكون ختان الذكور أحد شروط القُبول الاجتماعي. الملمح الثقافي الآخر أن للختان خلفية في ديانات مصر القديمة، واليهُودية والمسيحية والإسلام.

بعض هذه المعتقدات لا يُصدِّقها أحد من المثقَّفين/ المثقفات، لكنهم يعرفُون شيُوعها بين العامة، وبالذات الاعتقاد بضرُورة الختَان لإدخال الطفل إلى عَالَم الرجال، وإن كان بعضهم الآخر قد عبر عن دهشته حين شاهد مؤخرًا صورًا لرجال غير مُختنين لا يدعُو مظهَرهَم إلى النفُور. من جهة أخرى عبرت إحدى المثقفات

عن أن الذكر المُختن أقوى جنسيًا، لذلك تعتقدُ أن نساء الغرب يتهافتنَ على الزواج من الرجال المصريين لهذا السبب. قليل من المثقفين/ المثقفات يعتقد فعلاً بأن الختان واجب ديني، سواء للمسلمين أو المسيحيين، بينما يعتقدُ بعضهم أن له خلفية دينية غير ملزمة، أما معظمهم فقد ذكروا علاقة الختان بالدين كجزء من مَعَارفهم عن المُعتقدات السائدة بين عامة الناس بل أن بعضهم عبر عن معرفته بأن الختَان لم يذكر في القرآن ولا السنة الصحيحة المتفق عليها. وقد ربط بعض المثقَّفين/ المثقفات بين ختان الذكور والإناث لتشابه الطُقُوس في الحالتين، مثل رمي الجزء المبتور في النيل، مما يدل على أصل الختان كقُربان للنهر حتى يَفِيض، وينفي علاقته بديانات التوحيد السماوية

ويتقدم الحوار في الجلسات مع هؤلاء المثقفين/ المثقفات، اتضحت تفاصيل وخلفيات المُعتقدات التي ذكروها جملة في إجابتهم على السؤال الاستكشافي الاستهلالي. وردت هذه التفاصيل في حواري معهم عن معتقداتهم بشأن الفرق بين ختان الجنسين، وبين الذكر المُختن وغير المُختن، وعلاقة الختان بالرجُولة والسلوك الجنسي للذكر، وعن إدراكهم للمبررات الاجتماعية لتمسك المصريين بالختان ومدَى إيمانهم بصدق هذه المبررات، وإدراكهم لمدى انتشار عادة الختَان على مستوى العالم، وتصوّراتهم عن الشُعُوب التي لا تُختن الذكور، ومعارِفَهم ومُعتَقَداتهم عن موقفِ الأديان من ختان الذكور. وفيما يلي عرض تفصيلي لما

كشف عنه الحوار مع المثقفين/ المثقفات من مُعتقدات ومعارف اجتماعية وثقافية.

تفاصيل خلفيات المنظور الاجتماعي/ الثقافي

أولا: إدراك المثقفين/المثقفات للفرق بين ختان الجنسين

ذكر المثقفون/ المثقفات ما ينم عن اعتقادهم بأن ختان الذكور والإناث عادتان مختلفتان. بعض الفروق التي ذكرها المثقفون/ المثقفات لدعم هذا الرأي مستقاة من معلومات اكتسبوها بحكم نشأتهم في المجتمع المصري، مثل الفُروق العمرية بين ختان الجنسين. لكن بعضها الآخر مُستمدّ من اعتناق من ذكروها لمعتقدات ثقافية مثل الفُروق المتعلقة بالتكوين الجسدي والنفسي للطفل، أو التي تعبر عن مصالح ذاتية، سيما للأطباء المثقّفين/ المثقّفات، كتيسير عملهم، وهي الأكثر قُدرة على كشف التحيّزات التي تدفع أصحابها لقبول ختان الذكور بضمير مستريح، أو على الأقل للسكوت عنه.

١- فروق تتعلق بسن الختان:

مُعظم المثقّفين/ المثقّفات يعرفون بوجود فرق في السن الذي يجرى عنده ختان الذكور والإناث، أي يعرفُون أن الطفل الذكر يُختن في الأيام أو الشهور الأولى بعد الولادة، وبعضُهم يعرف أن الاتجاه إلى التبكير الشديد بخِتَان الطفل الذكر عقب الولادة أمر جديد حيث جرت عادة المصريين في الماضي القريب على ختان

الذكور في سن ٣-٦ سنوات. فمثلاً حاورنا سيف ، وهو شاب مسـلم فى الثلاثينات من عـمره يعـمل فى تخصص قـانونى ختن ولديه ، ود. يارا وهى طبيبة أمراض نساء مسلمة فى الثلاثينات من عـمرها خـتنت ابنها ولم تختن ابنتـها ربط سـيف ود.يارا التـبكير بخـتان الولد بانتـقال المُمـارسة من حـلاّقي الصحـة إلى الأطباء، وقالت دينا وهى شابة مسلمة فى الثلاثينات من عمرها تعمل بمجال التنمـية ختنت ابنها ولم تختن ابنتـها ما يعني هذا ضمنا: «بدأت الحكاية دي تبقى موضة» وأضافت د.يارا: «زمان ..ن الولد يخلوه لما يكبر علشان تبقى فيه احتفالية ويركب حصان، وكمان حلاّق الصحة يقدر يتـعامل مع ولد عمره ٥-٦ سنين أكثر مما يمكن إنه يَتَعَـامل مع طفل صغير» ومـعظم المثقّفين/المثـقّفات يعرفُون أيضًا أن ختان الإناث يجرى عمومًا قرب البلوغ أو في سن الطفُولة المتأخّرة.

مُعظم المثقّفين/المثقّفات لا يعـرِفُون معلُومات أكيدة موثقة عن أسباب الفروق العمرية بين ختَان الجنسين. لكن بعضهم تَمكّن من سرد معلوماته عن معتقدات عامة الناس بهذا الخصوص، أو التعبير عمـا يعتقده شـخصيا بـخُصوص هذا الفرق، والبـعض الآخر لم يتمكن. ويمكن تصنيف معارف ومعتقدات المثقفين التي فسروا على أساسها فرق العمر بين ختان النوعين إلى مُعتقدات ومعارف خاصة بفروق بـين نمو أعضاء التـأنيث والتذكـير ومُـعتـقدات خـاصة بالتكوين الجسدي والنفسي للمولود.

كل المثقّفين/ المثقّفات اختلطوا بقطاعات واسعة من الشعب المصري بحُكم أنشطتهم أو نشأتهم، وهم بذلك على علم بالمُعتقدات التقليدية الشائعة عن الفُروق بين أعضاء التأنيث والتذكير. يرى مُعظم المثقّفين/ المثقّفات أن هذه المعتقدات هي الخلفية التي يستندُ إليها التبكير بختان الذكر وتأخير ختان الأنثى. أكثر هذه المعتقدات شيوعًا أن البظر لا يكون قد نما تمامًا قبل الفترة العمرية التي تختن عندها الأنثى لكن الغلفة تكون قد اكتمل نموها عند ميلاد الطفل الذكر بعض المثقفين ذكروا أنهم سمعوا هذا الاعتقاد من العامة، لكن بعضهم عبروا عن أن هذا ما يعتقدُونه هم شخصيًا. فمثلاً، قالت دينا: «يمكن الأولاد بيبقى سهل يكون فيه حاجة تتقطع أول ما يتولدوا، البنت يبقى لسَّة، العضو بتاعها ما بيبقاش مُغري إن يقطعوا منه حاجة، ده تفسيري لكن ما أعرفش ليه» وقالت د. خديجة وهي طبيبة أمراض نساء، مسلمة فى الأربعينات من عمرها غير متزوجة «الأولاد يختنون مبكرًا بعد الولادة، والبنات في سن ٩-١٠ سنوات. لأن البظر بيكون على أشده في الفترة دي» هناك اعتقاد آخر بين العامة بأن الغَلَفة لن تنمو مرة أخرى لكن البظر والشفرين سينموان لو قُطِعَا في سن مبكر، وقد عبر د. نادر، وهو طبيب مسيحي في الأربعينيات من عمره ختن ولديه ولم يختن ابنته، عن معرفته بانتشار هذا الاعتقاد بين العامة، لكنه لا يعتنقُه.

يشترك المثقّفون/ المثقّفات مع العامة أيضًا في المعتقدات الخاصة

بالتكوين الجسدي والنفسي للمولود، سيما ما يروج عن قدرة المواليد على تحمل الألم ونسيانه بعد أن يكبروا. يميل المثقفون/المثقفات المؤيدون للختان إلى الاعتقاد بأن الختان لا يعرض الطفل إلاّ لضيق بسيط سرعان ما يزول، وأن بكاء الأطفال أثناء الختَان ناتج عن ضيقهم من تكبيل حركتهم لا عن إحساسهم بالألم. كما ينكرُ الكثيرون منهم - كغيرهم من الرجال الذين ناقشتهم في اجتماعات أخرى - دوام ذكرى الختَان، ويُبَرِّرون هذا بأنهم لا يتذكّرون ختَانَهم الذي جرى وهم رضَّعٌ.

و يشترك مُعظم المثقَّفين/المثقّفات (من الأطباء وغيرهم) مع العامة في تصور أن للمواليد الجُدد خصائص جسديَّة ونفسيَّة تُؤهِّلهم لتَحمُّل الصدمات والآلام والجروح أكثر من غيرهم من الفئات الأكبر سنا يقول د. نادر مفسرا فرق العمر بين ختان الذكر والأنثى: «كل ما يبكروا بالختان الجرحِ يخف أسرع والألم يكون أقل».

وتقول د. أفكار ، وهى طبيبة أمراض باطنية مسلمة في الأربعينات من عمرها ، ختنت ولدها «للولد كنتُ حاسة إن دي حاجة طبيعية ونخلص بقى من الشُغلانة دي قبل ما يكبر ويحسّ». وتقول مثقّفة لا تعمل بالطب هي نهال في تفسيرها لسبب التبكير بختان الذكور: «علشان ما يحسش بالألم» ونهال شابة مسيحية في بداية الثلاثينات من عمرها ، غير متزوجة ، وتعمل في مجال التنمية ، خاصة التوعية بمضار ختان الإناث

لكن بعض الأطباء من المثقّفين/ المثقّفات على وعي بأن مبدأ «كلما بكرنا بختان الولد عقب ولادته كان أفضل» الذى يتبنونه بناءً على معتقداتهم بشأن تبلد إحساس الطفل بالألم يتعارض مع بعض معطيات العلوم الطبية الأساسية التي تؤكّد أن ختان الذكور في سن مبكر أمر محفُوف بالمخاطر والمعاناة للطفل. تقول د. أفكار: «الأولاد يختنوا وهم بيبي علشان ما يتألموش، بس مش قبل ٤ يوم علشان ما ينزفوش لأن عوامل التجلط ما بتكتملش إلا بعد ٤ يوم».

وتكشف د. يارا عن حيرتَهَا لتضارُب معتقداتها/ معلوماتها الطبية: «طبيًّا، التغذية العصبية بتبقى أقل في السن الأصغر فالأولاد ما بيحسوش والتئام الجرح بيبقى أسرع في الأعمار الأصغر، بس فيه مشكلة أخرى، كل ما يكُون السّن أصغر تكون الغَلَفة مُلتَصِقة برأس القضيب بشكل أشد، وبتبقى عملية مؤلمة قوي إن الطبيب يرجع الجلد لورا وبعدين يشده علشان يقطعه. بتبقى مؤلمة دي قوي في السن الصغير لأن ساعات الالتحام بيبقى كامل ما بين الغلفة ورأس القضيب».

ولا ينكر د. نظمي وهو طبيب أمراض نساء في الستينات من عمره مسلم ، وقد ختن ابنه ولم يختن ابنته ، أن المولُود يحس بالألم، أي أنه لا يعتقدُ بصحّة الأسطُورة الشائعة عن تبلّد إحساس الطفل، لكنه يرى أن من الممكن قبول تعريض الطفل لهذا الألم لأنه حسب تعبيره لا يستمر أكثر من ثوان معدودة، ولأن

مُحاولة تلافي هذا الألم بالتخدير مغامرة غير مأمونة العواقب «لأن خطر جدا انك تدي بنج لعملية تاخد ثواني .طبعًا بعد ثواني من العملية الطفل بيبطل عياط وانتهى الموضوع».

بعض الأطباء المثقّفين/المثقّفات برروا التبكير بختان الولد بتفسيرات تتمحور حول تيسير عمل الطبيب، فقال د.نادر: «كل ما كان الولد صغير لا يتعب الجرّاح، إذ يمكن التحكم فيه حتى بدون بنج من غير مشاكل كبيرة، لكن كل ما الولد يكبر تكبَر عضلاته ويكون التحكم فيه أصعب. علشان كدة مشهور إنها [عملية الختان] في السن الأكبر تتعمل جراحيًا بالتقشير وببنج».

وأضاف د.فهمي وهو طبيب أمراض نفسية مسلم في الخمسينات من عمره ختن أولاده الذكور أنا متصور إن الخِبرة المُتوارثة إننا كأطباء اكتشفنا إن أسهل بكثير عمل هذه العملية للولد وهو صغير الالتئام يكون أسرع، والجزء المقطُوع ضمن جسم صغير بتبقى برضه صغيرة فما تبقاش عملية كبيرة، النسيج بيبقى أقل..الخ، وانت يمكن فاكرة في الامتياز كُنّا بنعمل الطهارة في العيادة الخارجية. كثير من الأمهات بيجوا بأطفال أعمارهم أسبوع إلى شهر وشهرين بيجيبوهم لنا وتبقَى فرصة ندرب إيدينا وحاجات زي كدة أما في البنات فيندر أن يأخذوا بنت لدكتور ليختنها، زي ما تكون ثقافة سرية، لازم الداية هي اللي تعملها، ممكن واحدة ست كبيرة، ممكن ما تكونش داية لكن مُمارسة لذلك الشكل من أشكال التدخل الجراحي، وبالتالي ما ياخدوهاش

لمستشفى أو عيادة بالبساطة اللي بيودّوا بيها الولد للدكتور علشان يختنه، فيمكن ده سبب تأجيل الختان للبنت وتبكيره للولد».

فرق آخر ذكره البعض الآخر من المثقّفين/ المثقّفات يقُوم على أساس التمييز الاجتماعي ضد الإناث عمومًا، فقد فسرّوا تأخير ختان البنت والتبكير بِختَان الولد بحرص المجتمع على عدم إيذاء مشاعره، لذلك يجرى ختَانَه في سن يُعتقد أنه لا يحس فيه الألم بنفس القدر كالكبار، ويعتقد أنه لا يتذكر خبرة هذا الألم فيما بعد، ولتجنيبه الشعور بالخجل لو جرى ختانه في سن أكبر لكن البنت لا تلقى نفس القدر من الاهتمام أو الاكتراث بمشاعرها وبذلك يعتبر هؤلاء المثقّفين/ المثقّفات أن فرق السن الذي يجرى عنده ختَان الولد والبنت يجعل ختان الذكور أقلّ وطأة من ختان الإناث، مما يبرر عدم اعتباره أولوية للمهتمِّين بِمسألة السلامة الجسدية كأحد حقوق الإنسان وقضايا النوع.

٢- فروق تتعلق بدوافع ختان النوعين:

من الفروق التي يرى المثقّفون/ المثقّفات أنها تُبرر عدم الاهتمام بِختَان الذُكُور كقضيّة نوع اختلاف موقع هذه القضية من السياسات الاجتماعَية الضابطة لسلُوكيات النوعين. لاحظ بعض المثقّفين/ المثقّفات من واقع عملهم الميداني أن العامة يقصدون أن تتذكر الفتاة الألم المُصاحب لختانها كأحد أدوات الضبط الاجتماعي، ولكنهم لا يحرصون على هذا بالنسبة للولد، وخمّنوا

أن هذا القصد يقف وراء تأخير ختان البنت عن الولد، حيث إن ختان الذكور ليس له بعد تأديبي أو ردعي، ولا يَقصِد به تخويفه من الجنس أو حمايته من الانحراف. وهم يرون أن المجتمع لا يربط ختَان الذكر بالفضيلة، عكس البنت، لذلك لا يفكرون في أن يختنوها وهي رضيعة لأن هذا لن يحقق غرض تعليمها الفضيلة. والفضيلة في هذا السياق تعني الحفاظ على العذرية. وفي رأي المثقّفين/ المثقّفات أن وُجُود هذا البعد يستدعي إرسال رسالة اجتماعية أليمة لا تنسى للبنت عن طريق الختَان «يعني لما تتوجع في هذه المنطقة وهي واعية تخافُ من هذه المنطقة، لكن لو هي رضيعة لن تَرتَبِط الصدمة بأي حاجة» ويرى المثقّفون/ المثقّفات أن هذه الرسالة الاجتماعية لا تنطبق حتى على الذُكُور الذين يختنون في سن ٧-١٢، حيث يصحُب خِتَانهم نوع من الاحتفالية، ويعلمونهم أن الختان يعمل لهم كنوع من الزينة لإعدادهم للرجولة وتعزيز قدراتهم الجنسية والحفاظ على صحتهم، وبذا يختلف عن ختَان الإناث الذي يليه نوع من القيود في الدخول والخروج والاختلاط بالأولاد وتأكيد التحريمات الجنسية والتأكيد على أن الختان يعمل لها للحفاظ على شرف العائلة.

يرى بعض المثقّفين/ المثقَّفات أيضًا فرقًا في الدوافع الثقافية لختان الجنسين، إذ يعتقد معظمهم أن ختان الإناث لم يرد به أمر في أيٍّ من الديانات السماوية الثلاث، لكنّهم يعتقُدون أن ختان الذكور شعيرة دينية يهودية، ويختلفُون في اعتقادهم بوجوبه في

الإسلام والمسيحية. إلاَّ أنَّهم يعتقـدون أن كثيراً ممَّن يرفُضُون ختَان الإناث من عامة الناس يقبلُون ختَان الذُكُور بوصفه موصى به دينيًا رغم أنهم يعتقدون أيضًا أن ختَان البنت أمر ديني.

٣ - فروق تخص طبيعة الإجراء وعواقبه:

يعتـقد المثـقّفون/ المثـقَّفـات بوجود فرق في طبـيعـة الإجراء الجـراحي في حـالة الذكَـر والأنثى بناء علـى وجـود فـروق تشريحيـة/ وظيفية بين ما يُقْطَع من كل منهم، حيث يـعتقدون أن ختان الذكر مجرد عمليـة تجميل تزال فيها قطعة زائدة من الجلد لا تتمتـع بحساسية ولا وظيـفة لها، عكس الحال فـي ختَان الإناث، حيث يقطع عُـضو حسّاس مـسؤول عن اللذّة الجنسيـة. حتى من كانت لديهم معلُومات من قبل عن مَدَى حساسية الغَلَفة، وأن لها وظيفة فسيُولوجية ونفسيّة ولحماية رأس القضـيب مثـل د. ليلـى -وهى طبيبة نفـسية في السبعينات من عمـرها مسلمة ، ختنت ولدها ولم تختن ابنتها - يرون أن «قطع عضـو غير قطع الغَلَفَة». كمـا يعتقُدون أن لخـتان الذُكُور درجة واحـدة، هي إزالة الغَلَفَة، بينما لختان الإناث درجات وأنواع كثيرة.

أبو الفـتوح رجل في الخـمـسينات من عـمـره يعمل بأحـد مجالات الفنون وهو مـسلم وقـد ختن ولده قرأ أبو الفتوح بعض الدراسـات الطبـية الحـديثة، ويعـرف أن القـذف المبكر من العـواقب السلبيـة المحتـملة لخـتَان الذكـور لأن الغطاء الذي على

العُضو يحميه من القذف السريع، لكنّه يقُول إن انطباعه عن قلة حساسية الغلفة مستمد من أن كتب التشريح تصور القضيب بلا غلفة ولا تذكر معلومات عن مدى حساسيتها.

لكن أكثر الفروق التي يراها المثقّفون/ المثقّفات بين ختان الذكور والإناث تنحصر في مُعتقداتهم بخصوص العواقب النفسية للإجرائين. يرى المثقّفون/ المثقّفات أن العواقب النفسيَّة لختَان الذكور إمَّا نادرة وتافهة أو معدُومة، ويعزون ذلك إلى إجراء الختان للولد في سن مبكر علاوة على ذلك، يعتقد بعض المثقّفين/ المثقّفات أن اللذة الجنسيّة لدى الإناث وظيفة نفسية وليست مجرد وظيفة بيولوجية، لذلك يعتبر ختَان الإناث في رأيهم مهانة وقهرا لهن، في حين لا ينتقص ختَان الذكر من لذته الجنسية.

من الفروق الأخرى التي يعتقد المثقّفون/ المثقّفات أنها تجعل من ختان النوعين قضيتين مُختلفتين المضاعَفَات الجسدية لكل منهما فيرُون أن ختان الذكور مأمون الجانب لو أجري بيد طبيب في مستشفى، عكس ختَان الإناث الذي توجد له مضاعفات كثيرة، يتوقع حدوثها جميعًا في حَالة إجراء ختَان البنت بيد غير طبيب، ولا يختلف الأمر لو أجراه طبيب غير في قلة احتمال حدوث تلوث للجرح.

كما أن بعض المثقّفين/ المثقّفات يرون أن اختلاف العواقب الجنسية والصحيّة لختَان الجنسين من أهم الفروق بينهما. فهم

يعتقدون أن ختان الذُكُور مفيد لهم ولزوجاتهم في المستقبل، إذ يُزِيد حساسيّتهم الجنسيّة ويضمن النظافة الشخصية.

٤ - فروق تخص أدبيات العلوم الطبية:

هذا النوع من الفروق ذكره بعض المثقَّفين/ المثقَّفات الأطباء يقول د. نادر «هناك فرق يهم الأطباء. «إن فيما يخص ختان الذكور تحت أيدينا فوائده مُوثَّقة ومكتُوبة، لكن لا يوجد أي وثيقة طبية تحت يدنا لوظيفة أو فوائد لختَان الإناث. على المُستوى الطبي ختَان الذُكُور كان إجراءً مشروحًا علمه لنا أساتذتنا وعملناه، لكن ختَان الإناث لم يُعلِّمه لنا أحد ولم نُمارسه في سنوات الامتياز ولا سنوات الطب الأولى»

ثانيا: إدراك المثقفين/ المثقفات للفرق بين المختن وغير المختن

يتصوّر بعض المثقّفين/ المثقّفات عدم وجود أي فروق على أي مُستوى بين المختن وغير المختن. فمن وجِهَة نَظَرهم، لا يُمارس الأوروبيون الختان لكنهم يتمتعون بالصحة والقُدرة الجنسيّة والفرق الوحيد يمكن الإحساس به في المُجتمعات التي تمارس الختان كالمجتمع المصري، وهو أن المُختن يحظَى بقبُول اجتماعي أكثر من غير المختن.

لكن البعض الآخر من المثقَّفين/ المثقَّفات عبروا عن إدراكهم لوجُود فُروق جنسيّة بين المُختن وغير المُختن. تتعلّق بعض هذه الفروق بالحساسية الجنسية، إذ يعتقدُ بعض المثقَّفين/ المثقَّفات بوجُود

احتمال لأن يؤدّي كشف رأس القضيب بالختَان إلى تقليل الحساسية الجنسيـة لدى الرجل المُختن لتعرض رأس القَـضيب للخُشُـونة بعد نزع غطائها الحامي، بينمـا يعتقد بعضـهم الآخر العكس تمامًا، إذ سمـعوا ممـن حولهم أن كَـشف رأس القضـيب بالختَـان يزيد من حساسيتها. من الفروق الجنسيّة الأخرى التي رآها المثقفون/ المثقفات الإخـتـلاف في القـدرة الجنسيـة بسـبب الختـان، إذ يرى بعض المثقَّفين/ المثقَّـفات أن ختَان الأنثى يؤثر على قدرتها الجنـسية، بينما لا يحدث هذا في الذكر، وبذلك يتـساوى المُختن وغير المُختن في رأيهم في هذه الناحية. والقُدرة الجنسيّة حـسب فهمهم تنحصر في الانتصاب والجماع. يقول سعـيد وهو من العاملين بأحد مجالات الفنون ، في الأربعينات من عمره ، مسلم ختن ولده ولم يختن ابنته: «بالـنسبة للذكـر، في حالة الانتـصاب تتراجع الغَـلَفَة ويتم الاحتـفاظ بمواصفـات العضو نفـسها ، لكـن في الأنثى الموضوع يختلف. بتشيلي الجزء المسؤول عن اللذة». أما المثقّفة (نهال) التي تعتقد بوجود فرق في القدرة الجنسية بين المُختن وغير المُختن فسّرته لصالح الرجل المختن: «بيقـولوا رجالة الخارج عندهم برود جنسي لأنهم مش مخـتنين، ويقال إن هنا سـخنين علشان متـختنين لأن الجزء اللي بيـتقطع بيـخلي الراجل أداؤه أحسن بعـد قطعه». هذا ليس رأي نهال وحدها، فقد سمعـت هذا الاعتقاد من آخرين غير المثقّفين/ المثـقّفات الذين حاورتهم، منهم رجل سـألني كيف يمكن لرجل أن يفض بكارة امـرأة لو كان لديـه غلفة؟ ألن تقف الغلفـة

عقبة أمامه؟. وقال رجل آخر إنَّ البشريّة كانت ستَفَنى لو لم يكن الرجال مُختنين، لأنه يتصور أن الغلفة تمنع الجماع.

ذَكَر مثقف واحد هو صلاح ، الذي يعمل بأحد المجالات الفنية، وهو مسلم في الثلاثينات من عمره لم يختن ابنته الوحيدة، أن الرجل غير المُختن أكثر قدرة على إمتاع الشريكة، وقد عرف هذا الفرق من اختلاطه بأصحاب ثقافات أخرى لا تتمسك بختان الذكور: «أعتقد المرأة أكثر استمتاعًا بالرجل غير المختن. مش عارف ليه بس لما كنت في الخارج واحدة قالت لي هذا»

عبر البعض الآخر من المثقّفين/المثقّفات عن اعتقادهم بوجود فروق صحية بين الذكر المُختن وغير المُختن. يتأرجح الكثير من المثقّفين/المثقّفات بين تصديق وتكذيب الاعتقاد بأن الختَان يسهل تنظيفُ القضيب. يرجع سبب شك بعضهم في صحة هذا الاعتقاد إلى علمهم بوجود رجال آخرين في العالم لا يُختنون، ولا يُعانون من مُشكلات صحية ولا يمكن وصفهم بالقذارة. البعض الآخر يتشككون لأنهم قرأوا، أو تصوّروا أن الغلفة يسهل إرجاعها للخلف وتنظيفها أما من يصدقون هذا الاعتقاد فيرون أنه اعتقاد وارد نظريًا تقول د. يارا: «اللي مش مختن عنده إفرازات مش موجُودة عند التاني ولو مهتم بنظافته الشخصية لن تكون هناك مُشكلة، ما عنديش تخيّل حتى عن الكميّة اللي بتفرز وإيه عواقبها، ما أعرفش هل لو قعدوا يومين بدون استحمام مين فيهم تبقى ريحته وحشة».

وتقـول د. أفكار: «كنت متـخيلة إن أنضف مـا يكونش فـيه الغلفة، كنت بأعتقد إنها مُـجرّد جِلدَة مالهاش فايدة خالص جلدة كدة مدلدلة وعليه يتصرف معاها كل لحظة حسب الظروف، يعمل بول يبقى لازم ينضّفها من البول، عندي خيال كدة إنها زي أنبوبة حوالين القضيب بتتوسخ ويُمكن ما يعرفش ينضفها كويس وبرضه لما ييجي يعمل عـلاقة مع مراته يبقى لازم يرفعهـا ولا ما أعرفش حايعمل فيها إيه، يعني مش متخيلة الموقف. مش متخيلاه لأني ما شفـتوش» ومن المُفارقات أن سعـيد عانى بنفسـه من التهابات بمجرى البول امتدت لعدة أشهـر بعد الختان، لكنّه يعتقد أن الرجل غير المختن أكثر عُرضة للالتهابات البولية.

رأى فـريق آخر من المثـقفين/ المثـقّفـات أن المظهر هو الفـرق الأساسي بين المختن وغير المختن دون أن يكون لهذا الاختلاف أثر وظيفـي أو صحي. وقد تَـرَاوح موقفَـهم من هذا الاختـلاف بين الحـيادية والاسـتهـجان. ممن اتخـذوا موقـفًا حـياديًا تجـاه هــذا الاختـلاف صلاح، وبنى رأيه علـى أن هذا الاختلاف في المـظهر يتلاشى في حالة الانتصاب، فـيتساوى شكل المختن وغير المختن: «الست الشـعبيـة تقول لك شكله حلو. مش عـارف شكله حلو إزاي يعني. ما قعدتيش مع واحدة شـعبية وقالت لك كدة؟ طيب ـا هو لما بينتـصب بيـبقى نفـس الشكل، ما هـو الاثنين شكلهم حلو»

أما د. سلمى التي رأت طفلا من أبناء معارفها في سن المدرسة بلا ختان فقد قالت أن منظره لم يثر اشمئزازها، بل أثار تعجبها ليس إلا علمًا بأن د. سلمى طبيبة نفسية ، مسلمة في الأربعينات من عمرها ، ختنت ابنها

أما عن الأشخاص الذين استهجنوا هذا الفرق ,فقد برروا موقفهم أيضا باعتيادهم على منظر القضيب المختن، لكنهم أضافوا مبررًا آخر يتعلق بصفة الغلفة كتركيب رخو غير صلب. قالت د. أفكار: «طبعًا فيه فرق في الشكل. مُتخّيلة إن فيه جلدة مترهلة متدلية من القضيب. كنت متخيلة إن لو حد ما اطاهرش حايبقى عنده حاجة مرخرخة كدة متدلية ومش عارفة لما يكبر حايبقى حجمها قد إيه. ويُمكن كمان علشان أحنا اتعودنا نشوف شكل القضيب المتطاهر، ولما العين تتعود على حاجة بتحسي إن ده هو الطبيعي. مرة شفت فيلم أجنبي فيه ممثل عريان مش متطاهر واستغربت المنظر وقلت [متعجبة] الله!! دا الولد ده فيه حاجة غريبة وشعرت إن الشخص المتطاهر أحسن يمكن علشان عيني اتعودت على كدة».

وقالت دينا: «الفرق بين الولد المختن وغير المختن بس في شكل العضو ، ما فيش حاجة تانية ، لأن فيه ولد ابن ناس أصحابنا مش متطاهر كل الفرق إن عنده حتة جلدة زايدة، يعني مدلدلة شويّة (عبرت بوجهها تعبيرًا يحمل الاشمئزاز). لكن ما فيش فروق تانية».

ثالثا: إدراك المثقفين/المثقفات لعلاقة الختان بالرجولة والسلوك الجنسي للذكر

عندما سألت المثقّفين/ المثقّفات عن علاقة الختان بالرجولة ساووا كلهم مفهُوم الرجُولة -من وجهة نظرهم الخاصة- بالذكورة، ورأوها ممثلة في القدرة الجنسية، عدا سامية وهى سيدة مسلمة في العشرينات من عمرها، حديثة الزواج ولم تنجب بعد، تعمل بمجال التنمية والأبحاث الاجتماعية. قالت سامية أن الذكورة -حسب فهمها- لا تتركز في القضيب فقط، وكذلك د. فهمي الذي يرى أن الرجولة صفات مركبّة. اتفق كل المثقّفين/ المثقّفات أيضا في اعتقادهم بعدم وجود علاقة بين ختان الذكور وتقييد سلُوكهم الجنسي. بعض المثقّفين/ المثقّفات كانوا يعتقدُون أن الختان لا يؤثر أيضا على الوظائف الجنسية، لكن بعضهم اعتقدوا أنه يؤثر على هذه الوظائف، إمّا بالإيجاب أو بالسلب.

مُعظم المثقَّفين يدركون أن الختَان لا علاقة له بالرجولة سلبا أو إيجابا، فغير المختن يُمكنه الزواج والإنجاب بلا مشاكل، والدليل على ذلك أن رجال العالم كله يتزوجون وينجبون سواء كانوا مختنين أم غير مختنين. لم يكْتَف المثقفون/ المثقفات بذكر رأيهم الخاص، بل عبر بعضهم أيضًا عن إدراك لتصور الثقافة الشعبية السائدة للعلاقة بين الختان والذكورة. فمثلاً عايشة سيدة مسلمة فى الثلاثينات من عمرها تعمل بالمجال القانوني وقد ختنت ولديها وظلت تتصور لفترة طويلة أن ختان الذكر ضروري لقدرته

الجنسيـة، حتى اطلعت حـديثا على بعض الكتـابات التي أقنعتـها بالعكس.

وسيف، لا يعتقد شخصيًا بوجُود علاقة بين الختان والذكورة، لكنه يقول: «لو قسناها بمقاييس المجتمع التي تقُول أن المختن يكون أكثـر انتصابـا يبقى كدة فـيه علاقـة لكن أنا ما اعـتقدش إن فـيه علاقة»

وأضاف صـلاح أن الأفكار السائدة وسط العـامّة عن عـلاقة شَـأن الذكُور والإناث بالذكـورة والأنوثة ليست إلاّ وهمـا ذكُوريا يتصور أن الختَان يجعل المرأة عنيفة لزوجها والرجل أكثر رجُولة.

أما من اعتقدوا بأن الختان لا يؤثر على الوظائف الجنسية فبنوا هذا الاعتقاد على أن الانتصاب هو أهم الوظائف الجنسية، والغلفة لا تلعب دورًا فـيه، وبالـتالي لا أثر للخـتَـان عليه. عـلاوة على ذلك، يرى أصحاب هذا الاعتقـاد أنه طالما لا يتذكر الرجل الخبرة الأليمة لختَانه فلن يؤثر على سلُوكه الجنسي، عكس ما يحدثُ مع الإناث. اتّفق جميع المثقّفين/المثـقّفات على أن الختَان لا يُؤثّر على الرغـبـة الجنسية، ولا على آلـية الجـمـاع، لكنهم اخـتلفُـوا في معلُوماتهم واعتقاداتهم بشـأن تأثيره على الحساسية، ومن ثم اللذة الجنسية.

بعض المثقـفين/المثقـفات كانوا قـد اطلّعوا على كِـتَابات عن وظائف الأعضاء الذكورية في حالتها الـطبيعية قبل أن ألتقي بهم،

وهؤلاء يرون أن للختان أثرًا سلبيًا على الحساسية الجنسية، مما قد يُقلّل استمتاع الرجل بالجنس.

من جهة أخرى، اعتبر بعض المثقّفين/ المثقّفات أن عدم الختان قد يؤثر بالسلب على الرجل بسبب نظرة المجتمع إلى غير المختن على أنه غير طبيعي وفقًا لمفاهيمهم عن الطبيعي، مما قد يؤثر بالسلب على صورة الذات عنده، وبالتالي، يكونُ للختَان أثر إيجابي على الرجولة. قال سعيد: «في الصعيد يقدم الختان كتاشين وتعميد للرجولة. بيعمل له الختَان بيبقى رجل في حالة ذُكُورية كاملة، مش يبقى عنده جلدة. يعني يُرَدِّدون أن وجود هذه الجلدة ضد الذكورة بسبب الشكل. وأحنا صغيرين بيبقى العضو الذكري صغير وضعيف، فلما بتبقى الجلدة عليه بيبان إنه جلدة فعلا. كله على بعضه، لما يتطَّاهر بيبقى شكله ذكوري، لأن الجلدة بتبقى طاغية على العضو. فمظهر العضو المُختن يبدو أكثر ذُكُورية لأن تشريحيا كدة الجزء اللي بيسمّوه راس العضو بيبقى باين. كتشكيل يعني، عدا ذلك، يتمكّن غير المُختن من الزواج والإنجاب. كل الناس تعمل هذا، أمال الشُعُوب التي لا تُختن عايشة إزاي؟»

و قال د. فهمي: «الرجولة لا علاقة لها بالجنس، هي صفات مركبة، والختَان له علاقة بالرجُولة لأن مفردات الرجولة منذ سن مبكر إن الطفل علشان يبقى راجل لازم يبقى زي أبوه وبقية رجال الأسرة، وفي المدرسة بيشُوف عيال أكبر منه،

فدايما بيقيس نفسه هل هو مستوفي مُفردات الذكورة أم لا، لأن الرجُولة تحتوي الذكورة يعني الذكورة جزء من الرجولة، الرجُولة مجموعة الصفات وسُلُوكيَّات الفارس بمفهوم القرون الوسطى، المجدع الذي يحمي الآخرين ويتحمل الصعاب.. الخ».

و قالت د. سلمى: «لا علاقة لكن اجتماعيًا هو تشطيب لرجل المستقبل لأن المعتاد أن الرجال يختنون، فلما يولد ولد بيتقيف على الفورمة اللي المجتمع عاوز الراجل يكون عليها» بعض المثقّفين/ المثقّفات - وكلهم من الأطباء - رأى أن للختَان أثرًا إيجابيًا على الإشباع الجنسي، وبنوا موقفهم على معلومة قديمة تقول بأن كشف رأس العضو بعد إزالة الغَلَفَة يجعلهُ أكثر حساسية. أما المثقَّفون/ المثقَّفات الذين أعطوا تفسيرًا اجتماعيًا لاعتقادهم بأن للختَان أثرًا إيجابيًا على الوظائف الجنسية فقالوا أن حدوث الختَان في سن يكون فيها الولد واعيًا بما يجري له قد يزيد وعيه واهتمامه بأعضائه الجنسية، لما يُقال له أن هذا يعمل له تحضيرا لدور جديد، وبالذات لو حدث قرب سنّ المُراهقة، لا سيما إذا صحبته طُقُوس تقليدية يؤكد له من خلالها المحيطون به أنه قد كبر وصار رجلا، ويردّدون على سمعه اعتقادهم بأن الختان ضرُوري للانتصاب، ويهنئونه بنعته بلقب «عريس».

- رابعًا: إدراك المثقفين/المثقفات للمبررات الاجتماعية لتمسك المصريين بالختان

كثيرًا ما صرح المثقفون/المثقفات أن مرجعيتهم في الختَان هي مُسايرة ما اعتاد الناس عليه عمومًا في مصر. لذلك استطلعت معارِفهم ومعتقداتهم عن الأسباب التي يختن المصريين الأولاد لأجلها. من أبرز ما يعرفه المثقّفون/المثقّفات عن المبرّرات السائدة في مصر لختان الذكور الاعتقاد بأن الختان شعيرة دينية، فقد اتفق معظم المثقفين/المثقفات، مُسلمين ومسيحين، على أن الدين من أهم العوامل التي يبرر بها المصريون تمسكهم بالختان، رغم أن بعضهم شكك في هذا المبرّر لأن الختان لا يرتبط بدين معين ليعتبروه من شعائره، فمثلا، المسيحيين والمُسلمين يختنون الأولاد في مصر عبّر مُعظم المثقّفين/المثقّفات عن اعتقادهم بأن الختان من سنن الدين الإسلامي، وقال بعضهُم أنها سنة مؤكدة لا شك فيها عكس ختان الإناث الذي يرونه سنة غير مؤكدة. ورغم معرفة بعض المثقّفين/المثقَّفات المسيحيين بأن الختان ليس واجبًا في العهد الجديد، إلا أن حورية مثلاً وهي سيدة مسيحية في الثمانينات من عمرها تعمل بمجال التنمية ، وقد ختنت ولديها ، تقول أن كثيراً من المسيحيين يلتزمون بالعهد القديم، وتقول نهال أن الختَان انتقل من الشريعة اليهودية إلى المصريين، وتعتقد أن إبراهيم أبو الآباء أتى قبل المصريين.

التـقـاليـد الموروثة أيضًـا من المبـررات القـوية التي أدركـهـا المثقّفـون/ المثقّفات لاستـمرار عادة ختان الذكـور في مصر، بل أن بعـضهم يراهـا أقوى من مـبـرر الدين لأن المسلمين والمسـيحـيين يتبـعونها. يقول سـعيد مثـلاً «إن الختان خبـرة انتقلت إلينا من أجدادنا الفراعنة. ويرى المثقّفون/ المثقّفات أن استمراره عبر الأجيال أعطاه قوة، بحيث صار كل جيل يُحـاكي من سبقُوه دون تساؤل، بل أن المجتمع يستنكر أي تشكيك في جدوى هذا التقليد، وبذلك لا يتوقّف أي فـرد ليسأل نفسـه عن سبب إجراء الخـتَان. د. منى طبيـبة أطفال في الأربعينات من عـمرها مسلمة وقـد ختنت ولديها ولها تجربة مع رد فـعل الناس على التشكيك في الختان، فـقد طرحت مـوضُوع خـتان الذكـور في اجتـماع لهـا مع بعض العاملين فـي جمعـيات أهلية بمـحافظات مُخـتلفة من مـصر ممن يُناهضُـون ختَـان الإناث، فانزعـجـوا لأنها جـرؤت على تحـدي عــادة قـديمة، ودافعـوا عن خـتان الذكـور بأنه أمـر ديني. لكن د. منى ترى أن الناس يعـتـصـمون بمبـرر الدين لأنهم يـقدسـون الممارسـات التي اعتادوا عليـها ويخشـون تغيير مـا استقـرّوا عليه وليس لأنها أمر ديني بالفعل»

ويسود اعـتقاد بين المثـقفين أن المبـرر الصحي أقوى من بقـية المبررات لدى المتـعلمين. فرغم أن جـميع الشعب المصـري يسمي هذه العادة «طهارة»، بمعنى نظافة مادية ومـعنوية، إلاً أن عامة غير المتعلمين يتمسّكون بـها كجزء من التقاليد، بينمـا يعرفُ المتعلّمون

عن طريق القراءة أو الاختلاط بالأطباء ما يكتب وما يقال عن الفوائد الصحية للختان.

رغم أن المثقَّفين/المثقَّفات أنفسهم يتشككون فيما يشاع عن ضرورة الختان لتيسير الأداء الجنسي والإنجاب، إلاَّ أن بعضهم يعرف بسيادة الاعتقاد بين العامة بأن لختان الذكور فوائد جنسية. فمما سمعه سيف إن الختان يساعد العضو الذكري في عملية الممارسة الجنسية. إذ يقال إن من لم يُختن في صغره يرتخي عضوه الذكري عندما يُحاول مُمارسة الجنس عندما يكبر. وتروي د. يارا قصة شاب من أقاربها توفي والده ووالدته دون أن يُختنوه، فلمَّا بلغ الثانية والعشرين من عمره وأقبل على الزواج أخذ المبادرة بنفسه واستدعى حلاق الصحة الذي ختنه لأنه يُعتقد أن من الصعب أن يتزوج بدون ختان.

خامسا: إدراك المثقفين/المثقفات لصدق المبررات الاجتماعية للختان

مما سبق يتضح أن المثقّفين/المثقّفات يُدركون المبرِّرات السائدة في المُجتمع المصري لموضوع ختان الذكور، ويسايرون التقاليد فيختنون أولادهم، وكثير من الأطباء يختنون من يجلبه لهم أهله من أولاد (كما سيأتي بالتفصيل في الفصل التالي). لكن هل يصدقون هذه المبررات في قرارة أنفسهم؟ لاستكشاف الوعي الخاص للمثقفين بصدق التبريرات الاجتماعية للختان سألتهم. ماذا يمكن أن يحدث لمولد لو لم يُختن؟ أجمع المثقّفون/المثقّفات على أن الطفل الذكر لن يُضار لو ظل بلا ختان. معظمهم أجاب على

السؤال إجابة وجيزة دالة: «و لا حاجـة». وبعضهم أضاف شرحًا وتفسيرًا لرأيه، فقال فـتحي أن نمُو الطفل لن يتأثر، وقالت عايشة أنه لن يمُوت لو لم يختن، وأضافت د. منى إنهـا ترى أن الأجدى للطفل أن يظلّ بلا ختَان. وقد استشهد أكثر من مُثقّف على صحة رأيهم بأن الأوروبين لا يُختنون الذُكور ويعيشُون حياة طبيعية.

سادسا: إدراك المثقفين/المثقفات لمدى انتشار عادة الختان على مستوى العالم

يمكن تصنيف المثقّفين/ المثقّفات من حيث معارفهم ومُعتقداتهم عن مدى انتشار الختان في العالم إلى قسمين: قسمٌ يرى أن مُعظم رجال العالم غير مختنين، وقد استمدّوا هذه المعرفة من اختلاطهم بشعـوب أخرى أو من قراءاتهم، والقِسم الآخر يُعتقـد أن مُعظم رجال العالم مختـونون، وقد استنتجوا هذا الاعتقاد مـن معرفتهم بانتشار الخِـتَان بين المسلمين واليهود، وتصـوّرهم أن معظم سكان العالم يتبعون هاتين الديانتين.

كل من يعتقدُون أن معظم رجال العالم لا يُختنون يعرفُون أن رجال أوروبا لا يُختنون، وبعـضهم يعتقـد أن الأمريكيين أيضًا لا يختنون الذُكُـور، وهؤلاء اندهشوا عندما أخـبرتهم بانتشار خـتان الذُكُـور في أمـريكا الشمـاليّـة. لكن بعـضهـم الآخر يعـرف أن الأمريكيين يخـتنون الذكور بسبب وجـود جماعات ضـغط يهودية تروج لهـذه العادة هنـاك. وكثـير من أصـحـاب هذا الرأي يبنُون اعتقادهم على معرفتهـم بأن اليهود والمسلمين والمسيحيّين المُختلطين

بهم هم الذين يتمسكُون بختــان الذكور، وبالتالي يرون أنهم ليسوا أغلبيــة، بالذات عند أخذ قارة آســيا في الاعتــبار. ومن المواقــف الطريفــة الـتــي قابلتــهــا عند هذه النقطة من البــحث الميــداني أن د. سلمى ضــحكت عندمــا كشــف لها حــوَارنا أنهــا لم تربط بين معرفتها بأن الأوروبيين لا يخــتنون، وأنهم في صحّة جيّدة، وبين ما قرأته وسمــعته عن علاقة وجود الغلفة بِســرَطان القضيب وعُنق الرحم وعدم النظافة.

وتتعــجب نوسة وهي فــتاة في الثــلاثينات من عمرهــا تعمل بالبحث في العلوم الاجتماعيــة مسلمة لم تتزوج بعد ، فهى تعرف أن رجال الغرب لا يختنون، وهُم مســيحيون، لكنها تعرف شقيقا مخــتُونًا لصديقة مسيحية مصــرية «مش عارفة ليه الغرب ما بيطّاهروش الأولاد مع إنَّهم مــســيحــيين. ومش عــارفة ليــه إحنا بنطاهر»

أما من اعتقــدوا بأن مُعظم رجال العالم مختــونين فقد ذكروا مجمُوعة مُنوّعة من المعتقــدات، كلها لا تستند إلى خبرة عملية أو دراســة نظرية، لكنهــا اســتنتــاجات. تراوحت الآراء بــخصــوص الأوروبيين والأمريــكيين بين أنهم جميــعًا أو مــعظمهم مــختنين. بعض المثقّفين/ المثقّفات حدّدوا نســبة انتشار ختَان الذُكُور في العالم بقدر ٩٠ ٪، ومنهم أبو الفتوح الذي بــنى رأيه على ما شاهده من أفــلام من إنتاج دول مُــختلفــة يظهــر بها ممثلون عــراة مخــتنون، وبالتالي استنتج إن الختَان مُمارسة اتفق عليها الإنسان في كل مكان

ووافق عليها الطب. ومنـهم سامية التي تعتـقد أن من لا يختنون هم جماعات محـدودة من سكان أستراليا الأصليين وبعض مناطق أفريقيا. وتبنّي حُرّية اعـتقادها على أن أي بلاد تأثرت بالإسلام أو بالمسيحية يُختنون الأولاد.

وتعلم حورية بوجـود حملة ضـدّ ختَان الذُكُـور في الغرب، وتعتقـد أنها في أوروبا بالتحديد، إلاً أنها ترى أنها ليـست ناجحة إلى حد التأثير في نسبة المختنين هناك.

ورغم أن مصطفـى وهو رجل في الثلاثينات من عـمره مسلم يعمل بمجال التنمية غير متزوج أقام لفترات في ألمانيا وفـرنسـا، ويعـرف أن الرجـال هناك لا يخـتنون، إلاً أنه لا زال يتصوّر أن الأغلبيـة على مُستوى العالم مختنين لأن الختَـان مقترن بالإسلام واليهودية، وهو يعتقد أن رجال المُسلمين واليهَود يُشكّلون نسبة حوالي ٥ ٪ من رجال العالم

سابعا: تصورات المثقفين/المثقفات عن الشعوب التي لا تختن الذكور

إذا كان كل المثقّفين/ المثقّفات يعرفون أن هناك نسبة -زادت أو قلت- من شُعُوب الـعالم لا يختنون الذُكُور، فمـا هي تصوراتهم عن الخصائص الاجتماعية والصحية لمن لا يختنون؟

بعض المثـقّفين/ المثقّـفات رأوا أن من لا يخـتنون لا يتمـيزون بخصـائص اجتماعـية معـينة، ففي رأيهم، حيث لا تُوجـد عادة الختان لا يجريها أفراد أي طبقة ولا جماعة. مُعظم الذين تصوروا

خصائص اجتماعية للفئات والأمم التي لا تُختن الذكور أتت تصوّراتهم إيجابية؛ إذ رأوا أن من لا يختنون هم الأعلى في المستوى الطبقي والاقتصادي والثقافي والأكثر ليبرالية في مُجتمعاتهم. برّر د. نادر تصوره بأن: «ربما كلما ارتفعت الطبقة يزيد الكلام عن حقوق الأطفال فيتركون الاختيار للفرد عندما يكبر»

وقال د. حازم، وهو طبيب أستاذ فرع طبى أكاديمي، مسلم في الأربعينات من عمره، ختن ابنه «هم من يَقبَلون الاختلاف ولا يُسايرون، وهم ذوو خلفية ليبرالية»

ويتصور أبو الفتوح أنّهم الشعوب الغنية المرفهة الذين أصبحوا يرون فكرة الاعتداء على الجسد فكرة منفرة جدًا، وهي صفات يراها تنطبق على الشعوب الاسكندنافية. ويُبرر أبو الفتوح انتشار ختان الذكور وسَط الأمريكيين الشماليين بأن أصولهم مُتعدّدة ومختلفة فليس عنَدهم ما يُسمى حضارة أمريكية، فلذلك يُمارسون عادات حضارات أسلافهم، ومنها الختان.

وترى د. يارا أنه كُلَّما تحضر المُجتمع وازداد ثقافة ووعيًا تنازل عن المُعتقدات التي تَشمَل الاعتداء على الجسم البشري لأن أفراده عندئذ لن يأخُذوا الأمُور كمُسلَّمات بل سيناقشُونها ويسعُون لمعرفة أسبابها وأهميتها، فيعرِفُون الحقيقة، ثم يقررون التنازل عن عاداتهم أو التمسك بها حسب الخلاصة التي يخرجون بها أما السبب الذي دفع عايشة لتصور هذه الصورة الإيجابية للجماعات التي لا تختن الذكور أنها قاست تصورها لهم على ما لمسته بالنسبة

لختان الإناث في مصر، حيث يقلّ التمسّك بختان الإناث بين المتعلمين والمثقّفين، من قرأوا وفهموا. أمّا عن الخلفيات الصحيّة لمن لا يُختنون فقد انقسم المثقّفين/ المثقّفات بين من يرونهم الأكثر وعيا صحيا، ويبرهنون على ذلك بارتفاع المُستوى الصحي في الشعوب التي لا تُختن، وبين من يرون أن قبول المخاطرة جزء من ثقافة هذه الشعوب، لذلك يقلعون عن الختان ويخاطرون صحيًا.

حورية هي المثقّفة الوحيدة التي تصورت أن من لا يُختنون هم الأدنى وعيا وثقافة، فهي تعتقد أن مثقفي الشعوب التي يسود فيها عدم ختان الذكور قد يُختنون كنوع من العلم بالصحة، وغير المثقفين لا يُختنون لعدم وجود العلم بالصحة.

ومُعظم المثقّفين/ المثقّفات لديهم تصور إيجابي عن الحالة الصحية للذُكُور غير المختنين، فهم يعتقدون أنهم لا يعانون من أي مشاكل تتعلق بعدم الختان، وبعضهم يبلُغ اعتقادهم حد اليقين، لأن لهم أصدقاء أوروبيين غير مختونين يتمتعون بالصحة الجسدية والجنسية. نفى أصحاب هذا التصور فكرَة انتشار السرطان بين رجال الشعوب التي لا تختن، كما نفوا فكرة كثرة تعرضهم للالتهابات البولية والتناسلية. يصف د.نظمي ما يُروج عن قذارة غير المختنين وكثرة تعرضهم للالتهابات بأنه «كلام فارغ» ويقول أن هذا لا يحدث إلاَّ لمن لا يستحمون ولا يراعُون النظافة الشخصية. ويضيف سيف أنه حتى لو حدث هذا فلديهم طب

متقدم يمكنه علاجهم، ولو أنه هو شخصيًا لا يعتقد أن هذا يحدث أصلا

تُعلّق نوسة على تصرف هذه الأمم قائلة «عملوا خير».

أما د. فهمي فيشفع تصوره الإيجابي عن نظافة رجال الأمم التي لا تُختن بوصفهم بأنهم «أجدع ناس»

ويرى أبو الفتوح أن مسألة القذارة غير مطرُوحة أصلاً لدى الأمم التي لا تختن، سيما الأوروبيين، ويضرب مثلاً مقارنًا بأننا ظللنا إلى وقت قريب نعتبر الحمام مكانا قذرا، أما عندهم فهو بالعكس مكان جميل وإنساني ونظيف وأنيق «يعني الشكل الاجتماعي كله فارض حاجة تانية خالص»

أما الطبيبتان المتخصّصتان في أمراض النساء من بين المثقفين/ المثقّفات (د. يارا ود. خديجة) فتتفقان في أن معارفهما ليست مُجرّد معتقدات، بل هي ثمرة اطلاع على أحدث الكتابات الطبية. تعرف د. يارا من قراءاتها أن المعلومات تغيرت تماما في الخمسة عشرة عامًا الأخيرة، وأن الكتابات الطبية لم تعد تعتبر إفرازات الغلفة (السميجما) من بين أسباب سرطان عُنق الرحم إطلاقا، وهما لا تعتقدان أن الذُكُور غير المختونين يصابون هم شخصيًا بأي أضرار. وتضيف د. يارا أنه بغض النظر عن حالة ختان الذكر، يُوجد ما يُسمى الذكر الذي يحمل احتمالات الخطر لشريكته، وأنها تميلُ إلى أخذ هذه الدراسات الحديثة في الاعتبار

بعد تجربتها الأليمة مع ختان ابنها تتفق د. خديجة مع هذا الرأي، وترى أن من يروّجون لفكرة أن عدم ختان الرجل قد يسبب لزوجته سرطانا في عنق الرحم ينطلقُون من تحيّزات اجتماعية وليس من أسس علمية طبية، ودليلها أنها تعرف من اطلاعها على الأبحاث الحديثة أن هذا النوع من السرطان أقل انتشارًا في أوروبا عنه في مصر، رغم أن رجال أوروبا غير مختنين ورجال مصر مختنين، وتعزوُ ذلك إلى ارتفاع المُستوى التقني الذي ييسر الاكتشاف والعلاج المبكرين للأمراض، وترى في الخُلاصة إن نساء ورجال أوروبا أصحاء عنَّا.

وإذا كان مُعظم المثقَّفين/ المثقَّفات قد علقوا على الصحة البدنية للرجال غير المختنين، فقد علق بعض منهم على الصحّة الجنسية لهؤلاء الرجال. يرى سعيد أن عدم الختان لا يُمسّ الصحة الجنسية بسوء، ولو كان الأمر كذلك لحرص عليه رجال الأمم التي لا تختن لأن لديهم خبرة واسعة بالصحة.

ويعتقد صلاح أن متُوسّط العمر الذي يتمتع الرجل الأوروبي عنده بكفاءة عالية في ممارسة الجنس يصل إلى ٦ سنة، ويعبر عن اعتقاده في سياق المقارنة بالحال في مصر فيقول: «ما اعتقدش هنا يصل إلى هذا العمر من الكفاءة. يادوب لحَدّ سن أربعين وبعدين يأخذ أجازة»

اثنان فقط من المثقّفين/ المثقّفات، وهما أيضا أطباء (د. أفكار

ود. نادر) عبرا عن تصور سَلبي للحالة الصحية للرجال الذين لا يختنون، تبني د. أفكار تصورها على ما درسته في كلية الطب منذ حوالي ربع قرن، حيث كانت المعلومات السائدة وقتئذ أن سرطان عنق الرحم ينتشر أكثر في أوروبا لأنهم لا يُختنون الذُكُور، وهذا ما كان عليها أن تجيب به في الامتحانات. أما د. نادر الذي تخرج من فترة تزيد قليلا عن عشر سنوات فتصوراته ليست بهذه الدرجة من اليقينية، فهو متشكك فيما درسه، لكنّه ليس بقادر على حسم التضارب بينه وبين المعلومات الحديثة التي ظهرت بعد تخرجه.

ثامنا: إدراك المثقفين/المثقفات لموقف الأديان

تراوح إدراك المثقّفين/ المثقّفات لعلاقة الختان بالدين بين اليقين القاطع بأنه أمر ديني، وبين التأكّد التام من انقطاع علاقته بالدين، مع نسبة لا بأس بها منهم يتشككون بدرجات مختلفة في هذه العلاقة.

ممّن يرون أن الختَان أمر ديني د. حازم، الذي يعتقد أن الختان طقس ديني إسلامي سواء ورد فيه نص صريح أم لم يرد. وهو يرى أن الدين نسق ثقافي كامل الختان جزء منه، ولب هذا النسق انصياع الناس لتفاصيل الأوامر الدينية وغيرها من الأوامر، ويعتقد أن هذا الانصياع سيخف مع زيادة الحكم العقلاني والفردية. وهو يرى أن اليهودية أيضا تأمر بالختَان، ومع أنه لا يعرف نصوصا لكنه يعتقد أن في التوراة حكاية عن ختان إبراهيم. يعتقد د. حازم أن

قدرة الله في الإسلام والمسيحية مُطلقة ولا نهائية. لكنه يعتقد أن تصور الديانة اليهودية للإله أقل تطوراً، وهو أقرب للناسوت، أي أنه أقوى البشر مثل هرقل. ويعتقد أيضًا أن الطقوس تكتسب أهمية شديدة في الديانات المغلقة، وأن اليهُودية تحولت إلى ديانة مغلقة على معتنقيها، ومن هنا تأتي أهمية الطُقُوس فيها كعلامة على تمسك الأتباع بهُويتهم. أما الإسلام والمسيحية فيراهما أديان مفتوحة. لكنه يرى أن الإسلام يمر حاليًا بعملية تحول إلى ديانة مغلقة مما يزيد من رغبة المسلمين في تأكيد اختلافهم عن الآخر، لكن هذا شئ حديث لم يكن في الإسلام الأول، إنمَّا اليهُودية فمغلقة منذ زمان بعيد. ويمزج د. حازم بين فكرتي كمال الخلق والنشوء والارتقاء كي يبرر الحكمة من تدخل الإنسان في تعديل الخلقة بالختَان فيقول أنه لو أكمل الإله الخَلق بإرادته المُطلقة فلن تُوجد ضرورة للدين والتعليم والتوجيه الأخلاقي، لكن الدين والتوجيه الأخلاقي يجعلُ الإنسان يستكملُ الصُورة التي خططها له الله من خلال إرادته، وأن الإله لا يتدخل بيولوجيًا وإلاَّ لم يعد هناك دين. الإله يستغل فكرة الإرادة وانصياع الإنسان لإتمام الغرض من خلقه، والغلفة كانت لها وظيفة في إطار تطور معين للإنسان حين كان مُنطلقًا في الطبيعة بلا ملابس، ولكي يقوم بوظيفته في إطار تطوري آخر كان لابد من تهذيبها لأنها قذرة من وجهة النظر الدينية، والتهذيب ثمن مقبول الدفع في إطار وجود ملابس. وهذا لا يعنِي أن الغَلَفة خطأ في الخلق، فهي مثل الغريزة

البرية الـوحشيـة، ليست خطأ، إنهـا موجُودة لكن عـلى الإنسان تهذيبها، فبالمثل يُوجد عـضو يحتاج إلى تهذيب وتنظيف، وعندما يلتزم الإنسان بتهـذيبه يصير مسايرًا وخاضعًا لقـيم المجتمع. فلمّا سألته عمـا إذا كان الختَان إرادة الإله أم إرادة الأب، والد الطفل، قال أنه على المستوى الفلسـفي إرادة الإله وعلى المُستوى الإجرائي إرادة الأب.

وتُبرر نهال اعتـقادها أن الختَان أمر مطلوب في المسـيحية بأن المسيح ختن وله عيـد ختان. فلمًّا سألتها عـمًا إذا كان يجب على كل المسـيحـيين أن يُصلبـوا لأنهم يعـتـقـدُون أن المسـيح صُلب ضحكت، ثم أكدت وجود الصلب فعـلا في حياة المسيحيين على مستوى معنوي رمزي فلسـفي، ليس بالضرُورة بالمسامير والخشب، بل بالتجارب والآلام، وتحمل إدارة الخَـدّ الأيسر لمن يضربهم على الخدّ الأيمن. فلمّا استفسرت منها عن سبب التمسّك بالختَان المادي وعدم الاكـتفاء بتجـارب معنويّة ترمُز للـختَان كمـا هو الحَال في الصلب، قالـت «فيه خـتَان معنـوي. يعني التجارب التـي يمر بها الرجل والمرأة دي ختان معنوي. بيتهيألي هذا الكلام مش واثقة منه قوي. لكن من ناحـية الختان المعنوي مـوجود. إن الصليب هو الختـان». ثم صمـتت لوهلة مُتـأملة ما قـالته، وقالـت ضاحكة: «يالهوي!!».

ويعتقـد أبو الفتوح أن الختَـان له علاقة باليهـودية، وأنه ذكر لأول مرة في التـوراة. و قد قرأ هذه المعلومـة في كتب دينية مـثلاً

للقمني ولمحمد حسين هيكل وللشيخ الغزالي وسمع في مجادلات مع المتدينين، إن الرسول أخذ الختان من اليهودية كما أخذ أشياء أخرى مثل الصيام من الفجر للمغرب وتحريم أشهر مُعيّنة. لذلك يعتقد أن الإسلام أمر بختان الذكور. وهو يعرف بعدم وُجود نص في القرآن عن الختان. وأن ما وَرَد فيه أحاديث لا يتذكر نصها تحكي عن إن الرسول حضر حفلات الختان، الذي كان عادة موجودة وافق هو عليها، ويظنّ أنه مثلما قيل إن الرسول لم يختن بناته، قيل أنه ختن الحسن والحسين. ويقول أبو الفتوح أن ما يفهمه من هذه الأحاديث أن الختَان كان من العادات الشخصية التي وافق عليها الرسول، ولوجدت ضرورة لُمخالفة هذه العادة لأسباب طبية فهذا لا يشكل معصية دينية: «زي ما تقولي إن الرسول كان مربي دقنه ولابس جلابية، فيه ناس بتقول هذه سنة لازم نربي دقوننا ونلبس جلابيب، وأنا باقول إن دي طبيعة عصر، ولو الرسول موجود دلوقتي كان حايلبس بدلة زينا، فمجرد إنه عمل حَاجَة كانت مناسبة لظرف معين ليس معناه إني مضطر أعملها»

أما د. سلمى فقد كانت تعتقد أن ختان الذكور أنزل في القرآن، اعتمادا على ما كانت تسمعه أثناء حضورها محاضرات وندوات ضد ختان الإناث، وتظن أنها سمعت من يقول أن ختان الإناث لم يذكر في القرآن عكس ختان الذكور، فصدقت ما سمعته واعتقدت في صحته.

ونوسة أيضًا تعتقد أن اليهُودية والإسلام يأمران بالختان، ومصدرها كلام الناس. وتظنّ أنها قرأت أو سمعت عن آية تفسيرها البعيد جدًا إن ربّنا أمر إبراهيم بالختَان.

ويستند د. نظمي في اعتقاده بأن الختان أمر ديني على السنة. فرغم أنه يرى أن قدرة الله مطلقة، وأن الغَلَفة مفيدة لأن الله لا يخلق شيئا غير مفيد، إلاً أنه يرى ضرورة إزالتها طالما قال علماء الدين أنها سنة «أمال سيدنا محمد ربنا بعثه ليه مش علشان يقول لنا شرع الله ويشرح لنا، ماهو ربنا ما قالش نصلي كام ركعة ولا نسول إيه قرآن فيها وسيدنا محمد شرح ده كله»

بعض المثقّفين/ المثقّفات لديهم شك في المرجعية الدينية للختان دون وجود ما يؤكد العكس، فيقول صلاح مثلاً أن الديانة اليهودية تأمر بالختَان، رغم أنه يعتقد أنه بالأحرى عادة في ثقافة المجتمع اليهودي. ويقول أنه لا يعرف نصًا في أي كتاب سماوي يأمر ببتر الأعضاء التناسُلية الخارجية، وبالذات «لا توجد آية قرآنية تقول ما معناه جزّوا القضيب»

ويظن فتحي - وهو رجل مسلم في الأربعينات من عمره يعمل في مجال التنمية لم بنجب ذكورًا لكنه متفق مع زوجته على عدم إجراء ختان لأي طفل ذكر ينجبانه - إنَّ هناك حديثًا يمس موضوع ختَان الذُكُور، لكنه لا يعرف مدى صحته ولا نصه. ومصدر معلُوماته السمع في مناقشات كثيرة عن الموضوع مع

للقمني ولمحمد حسين هيكل وللشيخ الغزالي وسمع في مجادلات مع المتدينين، إن الرسول أخـذ الختان من اليهودية كمـا أخذ أشياء أخرى مثل الصيام من الفجر للمـغرب وتحريم أشهر مُعيّنة. لذلك يعتقد أن الإسلام أمر بختان الذكور. وهو يعرف بعدم وُجود نص في القرآن عن الخـتان. وأن ما ورَد فـيه أحـاديث لا يتذكر نصـها تحكي عن إن الرسـول حضـر حفـلات الختـان، الذي كان عـادة موجودة وافق هو عليها، ويظنّ أنه مثلما قيل إن الرسول لم يختن بناته، قـيل أنه ختن الحسن والحـسين. ويقول أبو الـفتـوح أن ما يفهمه من هذه الأحاديث أن الختَان كان من العادات الشخصية التي وافق عليـهـا الرسـول، ولوجـدت ضرورة لمُـخالفـة هذه العـادة لأسبـاب طبية فـهذا لا يشكل مـعصيـة دينية: «زي مـا تقولي إن الرسول كان مـربي دقنه ولابس جلابية، فيـه ناس بتقول هذه سنة لازم نربي دقوننا ونلبس جلابيب، وأنا باقول إن دي طبيعة عصر، ولو الرسول مـوجود دلوقتي كـان حايلبس بدلة زينا، فمـجرد إنه عمـل حَاجَة كـانت مناسـبة لظرف مـعين ليس معناه إني مـضطر أعملها»

أما د. سلمى فـقد كانت تعـتقد أن ختـان الذكور أنزل في القرآن، اعتمـادا على ما كانت تسمعه أثناء حضـورها محاضرات وندوات ضد ختان الإناث، وتظن أنهّا سـمعت من يقول أن ختان الإناث لم يذكـر في القرآن عكـس ختـان الذكور، فـصدقت مـا سمعته واعتقدت في صحته.

ونوسة أيضًا تعتقد أن اليهُودية والإسلام يأمران بالختان، ومصدرها كلام الناس. وتظنّ أنها قرأت أو سمِعت عن آية تفسيرها البعيد جدًا إن ربَّنا أمر إبراهيم بالختَان.

ويستند د. نظمي في اعتقاده بأن الختان أمر ديني على السنة. فرغم أنه يرى أن قدرة الله مطلقة، وأن الغَلَفة مفيدة لأن الله لا يخلق شيئا غير مفيد، إلاّ أنه يرى ضرورة إزالتها طالما قال علماء الدين أنها سنة «أمال سيدنا محمد ربنا بعثه ليه مش علشان يقول لنا شرع الله ويشرح لنا، ماهو ربنا ما قالش نصلي كام ركعة ولا نسول إيه قرآن فيها وسيدنا محمد شرح ده كله»

بعض المثقّفين/ المثقّفات لديهم شك في المرجعية الدينية للختان دون وجود ما يؤكد العكس، فيقول صلاح مثلاً أن الديانة اليهودية تأمر بالختَان، رغم أنه يعتقد أنه بالأحرى عادة في ثقافة المجتمع اليهودي. ويقول أنه لا يعرف نصًا في أي كتاب سماوي يأمر ببتر الأعضاء التناسُلية الخارجية، وبالذات «لا توجد آية قرآنية تقول ما معناه جزِّوا القضيب»

ويظن فتحي - وهو رجل مسلم في الأربعينات من عمره يعمل في مجال التنمية لم ينجب ذكورًا ، لكنه متفق مع زوجته على عدم إجراء ختان لأي طفل ذكر ينجبانه - إنَّ هناك حديثًا يمس موضوع ختَان الذُكُور، لكنه لا يعرف مدى صحته ولا نصه. ومصدر معلُوماته السمع في مناقشات كثيرة عن الموضوع مع

زملاء. لا يـعتَقـد فتـحي أن الختـان أمر ديني، لكـن يعتـقد أن الحديث -الذي قد يكون ضعيفًا- يجعل له أساسًا دينيًا.

ويقـول د. نادر أن الديانات السـماوية الـثلاث، المسـيـحيـة والإسلام واليـهودية، أمـرت بالختـان حسب معلومـاته، لكنه لا يعـرف بالضبط النصـوص التي وَرَدَ بها هذا الأمـر أما تـفسـيره الخاص فهـو أن الإله لم يخلق شيئًا على سبـيل الخطأ، لكنه قادر على عمل الكثير على أيدي البشر، وأن جزءًا من النصوص الدينية كتبها الناس، والختَان يتبع هذا الجزء. لذلك يقطع الناس الغَلَفَة أو يبقونها حـسب ما وصلهم من معلُومات عنها وكل جـماعة بشرية متروك لهـا حرية التصرف فـيها حسب تصـديقهم لما وصلهم من معلومات.

وتقول نهال أن بولس الرسـول فيلسوف المسيحـية تحدّث عن الختَان بمعنى أنه شـريعة ناموسية مكتوبة لكن ليـست حياة تعاش. ولا تعتقد إنه نادى بالختان كضـرُورة لكنّه أخذهُ كمثال من الشريعة اليهـودية. لكن نهال تعـتقـد أن الدين الحقيـقي هو الروح وليس النص. وأن الختَـان كما ورد في العـهد القديم كان رمـزا للفداء، وانتهت وظيفة هذا الرمز فإذا كان المسيح قد ختن فلأنه كان وقتها طفلا أو صبيا عاديـا فكان لابد يجرِي عليه ما يجري على الناس. ونهال تعتقـد بصحة ما سمعته من أن الرسـول محمد ﷺ قال اخفضي ولا تنهكي، ورغم علمها أن هناك من الفُقُهاء من يرى أن

هذا الحديث غير صحيح إلاَّ أنها تستخدمه في سياق قيامها بالتوعية ضد ختَان الإناث، وتعتقد أن هذا القول يعكس حكمة الرسول لأنه لم يعارض الناس تمامًا في عادة يفعلونها حتى لا يكرهوه، لكنه لم يختن بناته. وتقول في خُلاصة كلامها: «في اعتقادنا كمسيحيين المسيح لحد سن ٣ سنة كان عايش كإنسان عادي، في الـ ٣ سنين الأخيرة ظهر كإله، علشان كدة بنقول الصليب لإنسان واحد بس، قبل كدَه عاش كإنسان عادي. وهذا يؤيد إن ما كانش يقدر يقول لهم الختَان وحش زي ما الرسول قال اخفضي ولا تنهكي»

وتعتقد عايشة بوجُود حديث أو رواية عن أن النبي ختن ولدًا وفرح به، لكنها لا تعرف نص الحديث. لكنَّها تقُولُ إن اعتقادها بوجود هذا النص لا يعنِي أنَّها ترى الختَان أمرًا دينيًا، فهو مُرتبط لديها بمورُوث اجتماعي وليس دينيًا

وتعتقد حورية أن الختَان ذكر في الدين في الآية التي تحكي قصة العهد بين الإله وإبراهيم. لكنّها تعتقد أيضًا أن ورود الختَان في الأديان قد تسلسل من الفرعونية إلى اليهودية عن طريق موسى عندما ولد في مصر ودخل بيت فرعون فأخد كثيرًا من طقوسه، وهي ترى أن العهد القديم ملئ بالكثير من الطقوس الفرعونية. وحسب نظرتها، انتقل الختَان من اليهودية إلى المسيحية والإسلام، فهو في مفهومها ليس أمرًا إلهيًا بالمعنى الحرفي، بل هو أمرٌ أتى من تفاعل بين الإله والإنسان. لكنها تعتقد أن الإنسان يتفاعل مع

الشيطان أيضًا، وما يفعله الإنسان إن كان خيرًا يكون من الجزء الإلهي الخَيِّر داخله، وإن كان شرًا يكون من الجزء الشيطاني الشرير داخله أيضا لذلك لا ترى الختَان حكمة إلهية، بل حكمة عملية، عندما قال مُستوى التطور العلمي الطبي أنها مفيدة كانت خيراً، فإذا ثبت عكس ذلك يبطل العمل بها، وتضرب مثلاً مقارنًا باستئصال اللوزتين الذي كان منتشرًا باعتقاد إنه مفيد طبيًا، ثم اكتشفت العلوم الطبية خطأ هذا الرأي فلم يعد يجرى روتينيًا ولا بنفس المعدلات السابقة. وبالنسبة للمسيحية بالذات تعرف أن الرسل تجادلوا في أمر الختَان، ورأى بعضهم أنه شرط لدخول الذكر في المسيحية. لكن جاءت رؤية لبُولس الرسول، إنه كان جوعانا، فوضعت له مائدة عليها من كل الأصناف وقيل له كل، فقال لا استطيع تناول هذه المأكُولات لأنها نجسة، فقيل له ليس ما يدخل الفم هو النجس بل ما يخرج منه. فهذا معناه انتفاء ضرورة الختان لاعتبار الإنسان مسيحيًا، فالأهم قلبه وإيمانه بالمفاهيم المسيحية، وهي ترتكز على هذه الرؤية كبرهان على أن ختان الرجال ليس أمرًا دينيًا بل صحيًا

وقد ظلَّت د. أفكار تعتقد حتى وقت قريب أن ختان الذكور أمر مؤكد في الدين الإسلامي. كانت د. أفكارِ تبني اعتقادها -قبل أن تقرأ- على كلام المحيطين بها، دون أن تحاول البحث بنفسها عن النص المعني. وكانت تعتقد أن الدين الذي أمر بالختان هو الإسلام، رغم علْمَها بأن المسيحيين في مصر يختتنون الذكور

أيضا، لكنها تفسر تصرفهم على أنه اتباع لعادة صارت قوية في المجتمع المصري إلى حد دفع جميع المصريين للتمسك بها.

أما د. خديجة فترى أن الختان موجُود في الدين، لكن هذا لا يعني ألا نناقشه. ففي رأيها أنه ما دام لدى الإنسان عقل فلابد أن يستخدمُه في التفكير والبحث في أسباب ورود أي أمر في الدين. وترى أهمية الاطلاع على الدراسات الحديثة بالنسبة للختان، فلو عززت ضرُورته أو نَفَتها فلابدّ أن نأخذ نتائجها في الاعتبار. وهي تعرف من قراءاتها أن المبررات التي كانت تُذكر لصالح الختان من عشرين عاما بحجة أنه يقي من سرطان عنق الرحم صارت ضعيفة ولا تدعمُها مُعطيات الدراسات الأحدث.

وتتصور د. سلمى أن قدرة الإله وإرادته في الفكر الإسلامي مطلقة. لكن الناس يستخدمون هذه الفكرة عمليًا لتبرير عجزهم عن تغيير أوضاع حياتهم، فهم يحاولون تغيير الأمور بأقصى ما عندهم من طاقة، وعندما ييئسون يقولون هذه إرادة ربنا. وبالنسبة لخبرتها في موضوع الختان، سمعت شخصًا يقول إنه مذكور في القرآن فصدقته، ولم تتوقف لتفكر كيف يتّسق ما يقوله هذا الشخص مع إيمانه بأن من أنزل هذا القرآن قدرته مُطلقة وكان يقدر على عدم خلق الغلفة لو أراد.

ويقول د. حسام وهو طبيب باطني مسلم في الأربعينات من عمره ختن ولده ولم يختن ابنته «لا أعتقد أنا شخصيًا أن هناك دين أمر بالختان. اللي أعرفه أنَّها سنة مستحبة، واختلف

الناس في فهم السنة. لا أعرف نصّاً. أنا لم أذكر الدين في مبرراتي الشخصية. لكن أعرف أن فيه أحاديث مؤكدة عن الختان، لكن رأيي إن السنة يجب ألا تعامل كالقرآن».

وترى د. يارا أن الختان أمر ديني في الإسلام، وهذا لا يَتَعارض من وجهة نظرها مع كلية قدرة وإرادة الإله، فالختان ليس أمرًا إلهيًا لأنه لم يرد في القرآن، لكنه أمر ديني لوروده في أحاديث ذكرت في كتب السنة المؤكدة، وبهذا يكون أمرًا دينيًا لكنه غير مُلزِم.

تعتقد مجمُوعة أخرى من المثقّفين/ المثقّفات اعتقادًا يقينيًا بعدم وجُود علاقة بين الدين والختان. يبرهن سعيد على اعتقاده بأن المسلمين والمسيحيين واليهود يمارسون الختان.

ورغم معرفة سيف بوجود حديث عن الختَان لا يتذكر نصه إلا أنه يقول أنه لم يعتد أخذ المسائل على عواهنها: «في تقديري فيه نصوص كثير ممكن تكون وليدة الظرف وقتها أو مرتبطة بحدود العلم وقتها أو بالثقافة السائدة وقتها إنمَّا تقديري إن اللي يجب أن يفصل في الأمور دائمًا هو العلم. هو الطب. ما اعتقدش إنه أمر ديني».

أما دينا ود. منى فقد سألتا وتأكدتا من عدم وجود نص قرآني عن الختان، لذلك تنفيان بشدة علاقته بالدين. وترى د. منى أن ما يشاع عن علاقة ختان الذكور بالدين شبيه بما يُشيعه مؤيدو ختان الإناث، لكن في رأيها لا علاقة للاثنين بالدين. وتعرف سامية من

قراءاتهــا بوجود النص التــوراتي عن قصــة ختان إبراهــيم، وبعدم ورود أي ذكر للختان في القرآن، وخُلاصــة رأيها أنَّها لا تعتقد أن الدين أمر بالختَان، ومرجعيتها في هذا الأمر أن الدين حريص على عدم الإضرار بالناس.

د. فهمي على درَاية واسعة بالفقه الإسلامي عن دراسة. وهو يرى أن ختان الذكــور، كختان الإناث، ليس من التـعليمات التي أنزلها الله في أي ديانة سماوية. يعتقد د. فهمي أن قدماء المصريين لم يكونوا يختتنون الذكور، وأن اليهود ابتكروا الخــتان كعلامة على الهوية عندمــا تركوا مصــر هربًا من اضطهاد الفرعــون الذي سعى لقتل الأطفال الذكور. وعندما سألتــه عن تفسيره للرسوم الجدارية التي تصور ختــان ذكر في مصر القديمة قال إنهــا ربما كانت ممارسة مرتبــطة بطقوس الديانة المصــرية القديمة. وفي هذه الحــالة، يكون الجذر الذي أفــرز ختان الأنثى هو نفــسه الذي افرز ختــان الذكر، كقربان للنيل حتى يفيض كل عــام، ويكون اليهود قد أخذوها من قدماء المصريين ثم أدخلوها في دينهم، لأنهم رُبمَّا وجدوا الأعراب الذين هربوا إلى أرضــهم من مــصر لا يُخــتنون، وبذلك اتّخــذوا الختان علامة هوية لهم. يعرف د. فــهمي أن الختان ذكر في العهد القديم، ويقول إن رأيه الشخصي كرأي كثيرين من دارسي اليهودية والمسيحية، إن كتب العهد القديم كتبت في عصور مختلفة بواسطة أفــراد مخــتلفين، وهي بذلــك تعكس الثــقافــة الســائدة في تلك العصور. والإشكالية هل هذا كلام منزل من الله أم هو كلام البشر

عليها علامة استفهام. الدليل إن مجلس الكنائس العالمي يعقد اجتماعا كل ٢-٣ سنوات لكي يعدلوا بعض ما ورد، حتى في التوراة. أما بالنسبة للدين الإسلامي فيقول د. فهمي أنه لا يوجد إلا حديث واحد ضعيف عن ختَان الإناث معرُوف بحديث أم عطية، وهو حديث آحاد ومجرح، ولا توجد أي أحاديث عن ختان الذكور. أما نصوص مثل «الختان سنة» و «ألق عنك شعر الكفر واختتن» فيرى أنها ليست أحاديث، بل حكايات. بناء على ذلك يرى أن ختان الذكور ليس سنة، وإن كان الناس توارثوا أنه سنة. ويقول د. فهمي أن تعريف السنة الصحيحة إشكالية كبرى، إذ بدأ تدوين السنة في نهاية القرن الأول الهجري واستمر حتى منتصف القرن الثاني الهجري، أي بِفَارق زمني يتراوح بين ١-١٥ سنة تفصل فترة صدر الإسلام وحياة الرسول عن فترة تدوين الأحاديث. ومن ثم المسائل كلها عنعنة رواية ، ولذلك لجأ البخاري وعلماء الحديث إلى البحث في كيفية التأكد من أن س قال لـ ص، وص قال لـ ع، وكل هذا نقلاً عن الرسول. فعندهم معياران: الإسناد والمتن. الإسناد إن السلسلة لابد أن تكون مُتواترة، وإن القائل الأول لابد أن يكون قد عاصر الرسول وعايشه وجلس معه وسمع عنه مباشرة. ثانيا المتن، وهل يتفق أم يتناقض مع نص القرآن أو مع العقل. ومن ثم جمع البخاري ١٤ ألف حديث واختزلهم إلى ما لا يزيد عن ٦-٧ آلاف حديث. ثم لما جاء الإمام مسلم وابن حنبل قاما بمزيد من الاختزال. والمتفق عليه

الآن وجود ٤٦٢٥ حـديث. بعض علمـاء الحديث يقـولون ليس منهم غيـر ٧ أحاديث صـحاح. وبالتالي القـضيـة إن السنة أقوالٌ وافعال دونت مـتأخرًا وعن طريق العنعنة. وحاول عـلماء الحديث أن يتأكدوا من صدق وثبات هذه الأقـوال بقدر المستطاع، وقد قال الإمـام الغزالي هذا في كـتـابه السنة النبـوية بين أهل الفكر وأهل الحديث، إن ٧ أحاديث فقط هي التي نطمئن إلى تواترها، والباقي حـديث آحـاد، أو حـديث حـسن. إلخ. ويرى د. فـهـمي أن العادات، كالختان، أو تكحـيل المواليد، أو وضع قطرة نترات فضة في عيونهم، كـلها ليست من شؤون الدين، بل من شـؤون الحياة المرتبطة بمرحلة مُـعـيّنة من تاريخ أي مـجتـمع وتتـغيـر من وقت لوقت. وربطها بالدين مـعناه الحد من حركـة الحياة. فـما يصلح لبشـر عاشوا منذ خمـسة قرون فاتت لا يصلحُ للبـشر الآن، ولا يتصور أصلا إن من اختـصاص الأديان إنها تدقق في تفاصيل هذه الأُمور، لأن جوهر الدين حسب فهمه إنه يشق طريقًا للإنسان كي يعبد ربه، والشق الثاني أنه يُعطي تعليـمات أو شرائع تنظم علاقة الناس بعـضهم ببـعض كي يقلل الصـراع المميت بين البشـر كي يتمكنوا من إقامة مجتمع تتحقّق فيه إرادة الله من إعمار الأرض.

(ب) - المنظور الطبي/الصحي

أهم ملامح هذا المنـظُور الاعتقـاد بأن ختان الذكـور جزء من مـتطلبات الصـحة الـعامـة في الثقـافة الـغربيـة الحديثـة. بعض المثقّفين/ المثقّفـات الذين بدأوا من هذا المنظُور ذكروا وصفًا للإجراء

الجراحي الذي تقطع فيه الغَلَفة كأهم ما يعرفونه عن ختان الذكور. هون بعضهم من الإجراء الجراحي بوصفه بأنه «عملية بسيطة» أو «تقشير»، كما هونوا من أهمية الغلفة بوصفها بأنها «مجرد جلدة أو قشرة تغطي رأس القضيب» بعضهم الآخر سرد بعض المبررات التي تربط بين ختَان الذكر وبين صحّته، لتيسير تنظيف أعضائه التناسلية، ومنع احتباس البُول لدى الرضع، وحماية الرجل من سرطان القضيب، أو صحة شريكة حياته لحمايتها من سرطان عنق الرحم. معظم من عبّروا عن معرفتهم بختان الذكور من هذا المدخل يعتنقون فعلا المعتقدات السائدة بشأن علاقته بالصحة، لكن قلة منهم أبدوا تشككهم من باب رفض فكرة العبث بجسد الطفل، حتى لو لم يكونُوا على علم بوظيفة الغلفة. بعض الأطباء من المثقفين/المثقّفات وصلتهم حديثًا معلومات عن أن الجانب الوقائي للختَان خرافة، لكنهم يجدون صعوبة في تقبل هذه المعلومات التي عرفوها بعد تخرجهم. والذين قبلوا منهم التخلي عن الاعتقاد بأن الختان يَقِي من السرطان لا زالوا يتمسكون بالاعتقاد بأنه ييسر النظافة الشخصية للذكر وعلى العكس، يعتقد بعض غير الأطباء من المثقّفون/المثقّفات أن اليهود هم الذين أدخلوا الختان إلى الطب كمُغالطة مزجوا فيها بين مُعتقداتهم الدينية وبين الطب الوقائي. الأطباء المثقّفين/المثقّفات الذين حضروا عمليات ختان أولادهم صرّحوا باعتقادهم أن الختَان عملية صدمية للطفل، لكنهم يعتقدون أنها صدمة وقتية لا تدوم في ذاكرة الولد.

تفاصيل خلفيات المنظور الطبي/الصحي

أولا: إدراك المثقفين/المثقفات لتركيب ووظيفة الغلفة

قال مُعظم المثـقّفين/ المثقّفات، حـتى الأطباء منهم، أن الغلفة مجـرد قطعة من الجلد تمتـد لتغطي رأس القضـيب. وقد وصفـها بعضهم بأنها «زائدة» جلدية، أو «حـتة جلدة مالهاش أي معنى»، بل أن بعضهم لم يعرف إن كانت بها نهايات عصبية أم لا أما من أتيح لهم الاطلاع على قراءات حـديثة عن تركيب الغلفـة، سواء كانوا أطباء أم لا، فلديهم معلُومات عن أنها ثنية مبطنة من الداخل بغشاء مـخاطي فيهـا خلايا لها إفرازات ترطب رأس الـقضيب، وأنها تحتوي على نسيج بـه أعصاب، بل أن د. يارا تعرف أنها في الطفل الصـغير تـكُون مُلتَصقـة ومرتبطة بـرأس القضيب بـحيث يصعب فصلهما بدون جرح ونزف وتقرح.

بعض المثقّفين/ المثـقّفات لم تكن لديهم معلُومـات عن وظيفة الغلفـة، ولـم يتـمكّنوا من تخـمين أي وظيـفة لهـا. حـتى بعض الأطباء الذين لم تتح لهم قراءات خارج المقررات التي درسوها في كلية الطبُ ولـم تسعفـهم المعلومات التي درسوهـا بإجابة. بعض المثقّفين/ المثقّـفات الرجال ممن اعتقدوا أن الغلفة ليـست لها وظيفة برّروا اعتـقادهم بعدم افتـقادهم هم شخصـيًا لوظيفتـها، وبعض الرجال والنساء لم يجدوا مبررًا غير أن الناس اعتادوا على الإعتقاد بعدم أهمية الغلفة، وأن الأطباء اعتادوا إزالتها من المواليد مما أعطى

الختَان صبغة علمية، وهؤلاء طلبُوا البرهنة بتجارب علمية ثابتة على أن للغلفة وظيفة «لازم العلم يُقنعنا إن الفكرة العلمية اللي اتقالت لنا دي كانت غلط ويطلعنا على أبحاث». وبعضهم برّر ذلك بأنها كانت ذات وظيفة وقائية عندما كان الإنسان يسير عاريًا بلا ملابس. فلمّا بدأ الإنسان يغطّي نفسه بالملابس لم تعد لها أهمية.

تعتقد بعض المثقّفات أن كل أجزاء جسم الإنسان، بما فيها الغلفة لها فايدة ووظيفة وإن لم يتمكن من تحديدها ولا يقتنعن بتبرير غياب الوظيفة بأن الرجال المختونين يمارسون الجنس بشكل طبيعي. من أمثلة معتقدات صاحبات هذا الرأي ما تقوله د. منى: «أكيد فيه وظيفة فقدوها. ما ينفعش أقول إني لو شلت صباع حايبقى عندي بديل لأن عندي ٤ صوابع تانيين، لكن يظل هناك واقع إني فقدت إصبعًا. طيب ما هو بيتقال إن النساء المختونات بيحسوا ويوصلوا للإشباع الجنسي مع أزواجهم بالأجزاء التانية، بس تظل الوظيفة عندهن ناقصة»

والحماية أكثر الوظائف التي يعتقد المثقّفون/ المثقّفات من الجنسين بوجودها، سواء كانوا أطباء أم غير أطباء. ومُعظمهم لا يتصوّر للغَلَفة أكثر من وظيفة الحمَاية الآلية لرأس القضيب بتغطيته، ونُدرة منهُم يعرفُون بقيّة آليات الوقاية التي تقُوم بها الغَلَفَة، منهم د. ليلى: «دي غطاء القضيب، وظيفتها حمايته، والتشحيم، والوقاية لأنها بتفرز حاجات ضد البكتريا، حتى بتمنع

الالتهابات وبتمنع القذف المبكر، وبتكشف رأس القضيب للمثيرات، يعني مليون وظيفة. ولها وظيفة جنسية طبعًا. ما هي جزء من القضيب، لما تشيليها كأنك بتعري الرأس من الجلدة بتاعتها تصوري راسنا وتشيلي جلدتها. لا بديل أو نظير يعوض عنها بعد قطعها. الجلدة بتحمي، فلما تتشال التعويض يحدث باخشوشان رأس القضيب الذي كان ناعما، وهنا الخطورة».

مُعظم من ذكروا وظيفة الحماية شفعُوها بأنهم لا يعتقدون أن للغلفة وظيفة جنسية، عدا د. ليلى. أما د. نظمي فيرى أن الوظيفة الجنسيّة للغلفة تنحصرُ في الإفرازات التي تيسر الجماع، لكنه لا يرى لها أي دور في الحساسية الجنسية أو اللذة. ويبني رأيه على أن عالمي الجنس ماسترز وجونسون اثبتا بالتجارب العملية سنة ١٩٦٦ عدم وجود فرق في الحساسية الجنسية بين المختن وغير المختن.

ذكر بعض المثقّفين/ المثقّفات - ومُعظمهم أطباء - أن للغَلَفَة وظيفة ضارّة، إذ يعتقدون أنها تسبب التهابات لاحتجاز البول والإفرازات تحتها. وغير الأطباء الذين يحملُون هذا الاعتقاد سمعُوه من أطباء أو قرأوا كتابات لأطباء بهذا المعنى، بل أن نهال قرأت وسمعت هذه المعلومة في ندوات حضرتها تحدَّث فيها أطباء للتوعية ضد ختَان الإناث، فجعلتها هذه المعلُومة تتصوّر أنه ربما لو كان الحال كذلك لكان الختان مفيدا.

كل من ذكروا أن الغلفة ليست لها وظيفة أو أن لها وظيفة

ضارة وجّهت إليهم سؤالين: لماذا يُولد بها كل مولود؟ وهل تعتقد أن بالجسم أعضاء أخرى ضارة؟ أكثر المثقّفين/المثقّفات لم تكن عندهم معلومات ولا معتقدات تلهمهم إجابة على هذين السؤالين، ولم يتمكّنوا من الوصول إلى استنتاج لسبب استمرار الطبيعة في إعادة إنتاج الغَلَفة على مر هذه الحقب الزمنية الطويلة، وذكروا مبررات عدة لاستمرار ميلاد الذكور بغلفة. اعتقد بعضهم أن الغلفة تصنف ضمن البقايا التذكارية التطورية، مثلها مثل الزائدة الدودية، وهي أكثر الأعضاء التي ذكرها المثقّفون/المثقّفات كتركيب تذكاري من بقايا ارتقاء الأنواع من آكلات العشب وصولا للجنس البشري العاقل، حيث لا تُوجد لها -في رأيهم- وظيفة واضحة، وقاسوا عليها الغَلَفة. وإذا كانت الزائدة الدودية بقايا تطور طبيعي في رأي هؤلاء المثقّفين/المثقّفات، فالغَلَفة بقايا تطوّر ثقافي. فمثلا، يقول أبو الفتوح: «يتهيألي الغلفة أيضا كانت الطبيعة عاملاها لحماية الإنسان المُنطلِق في الطبيعة» ولما كان الإنسان قد اخترع الملابس منذ حقب زمنية سحِيقة حاول د. حازم تبرير عدم اختفاء الغلفة مع هذا التطور الثقافي بقوله: «ما مر على ظهور الإنسان العاقل مسافة زمنيّة قصيرة لا تكفي لاختفاء الغلفة. الإنسان ليقف على رجليه أخذ له نصف مليون سنة. فعلشان حاجة تختفي لسة التغير الثقافي أسرع من البيولوجي، لذلك، رغم ظهور عدم الاحتياج لها ثقافيًا لم تأخذ الطبيعة وقتها بعد لإخفائها». وقد اندهش بعض المثقّفين/المثقّفات عندما عرفوا أن

الزائدة الدُودية جزء من جهاز المناعة.

التفسير الآخر الذي ذكره المثقّفون/المثقّفات لوجود الغلفة هو مُقارنتها بزوائد جلدية غير حسّاسة، مثل الأظافر والشعر. ففي رأي نهال مثلاً أن قص الشعر والأظافر معناه أن من المباح أن يتصرّف الإنسان في جسمه ما دام هذا لن يضرّ الروح، والختان يدخُل ضمن هذا التصرف، لأنَهَا كانت تتصوّر أن الغَلَفَة كالأظافر، تتجمّع تحتها الأقذار. مُشكلتها الوحيدة التي لا ترى لها حلاً في ضوء تفسيرها أن الختَان يجريه إنسان على جسد إنسان آخر. أما د. سلمى فتقارن الغلفة بدهُون الوجه. فبشرة الوجه تفرز دهونا لتحميه من أن يجف، لكن هذا لا يمنع أن يغسل الإنسان وجهه كل يوم ولو زادت الدهون قد يغسله مرتين أو ثلاثة. وتقول د. سلمى أنها لا تقصد بتفسيرها هذا الدفاع عن الخِتَان، بل تقصد إعطاء مثال تقيس عليه سبب وجودها لدى كل مولود.

ومن لم يجد لديه تفسيرًا بيولوجيًا لسبب استمرار ظهور الغلفة في أجساد كل المواليد عبر الحقب الزمانية، مثل عايشة، فسروها بأنها إرادة إلهية، لذلك يُولد بها جميع الذكور تنفيذًا لهذه المشيئة: «لما بنقول البنت ربنا خلقها كدة يبقى برضه الولد ربنا خلقه كدة دي برضه من الحاجات اللي ابتديت أفكر فيها، إن اللي بنقوله على البنت هو اللي يمشي على الولد. بنقول ربنا خلقها كدة وما يجبش نعدل عليه، يبقى ده للولد كمان».

لجأ بعض المثقّفين/المثـقّفات إلى مُقارنة الغلفة بأعـضاء حيوية أخرى يعتقدون أنها غير ضرُورية وربّما تُسبب مشكلات صحيّة أو تتجمّع بها أقذار ورغـم ذلك يولد بها جمـيع الناس. لكنهم لم يتمكنوا من ذكر مـبررات موضُوعيـة لقبولهم باستمرار الاحـتفاظ بهذه الأعضاء «الضارة» ورفضهم الاحـتفاظ بالغلفة. من الأعضاء «الضارة» ذكـرت د. أفكار أصابع القدمين: «أصل مش كل حـاجة الواحد بيفكر فيها، يعني مـثلاً ما فكرتش ليه أنا عندي ٥ صوابع في رجليا، يعني ليه رجليا مـا يبقوش زي البطة ب ٣ صوابع؟ ليه ٥ صوابع مـا باعملش بهم حـاجة؟ يعني كـان ممكن يبقى صـباع واحد صغير وصباع واحد كبير، وحتى لو من غير صوابع خالص في رجليا ما يحصلش حاجة مش حاسة إن لهم فايدة، يعني ممكن الرجل من تحت تبـقى خـشـبـة كـدة، يعني مش لازم يبـقى في الرجلين صـوابع، مـاباعملـش بهم حاجـة غـيـر إنـي مـضطرة أنضفهم وأغسلهم من جوة. الصوابع بتاعة الرجلين ما لهاش فايدة خالص ولـها أضرار، بتـتلوث وييجي فـيهـا تينيا، مش عـارفـة الخمس صـوابع دول إيه فايدتهم لنا، دول حاجـة أثرية كدة يمكن جـايين لنا من أجناس سـبقت علينـا، وفيـهم أعـصاب لكن مـا فكرتش اتخلـص منهم لأن مـا ورثتش إن حـد فكر يتـخلص من صوابع رجليه».

وتُقارن د. يارا الـغلفة بالرحم والمبـيضين، إذ يوجـد اتجاه في أمراض النـساء لإزالتهـم بعد انتـفاء حاجـة المرأة لهم حمـاية من

إصابتها بسرطان في هذه الأعضاء، لكنها شخصيًا لا توافق على هذا الرأي، وترى أن المرأة تحتاج إلى الإحساس بأنها تمتلك جميع أعضائها حتى بعد توقف الدورة. لا يتّفق د. فهمي مع رأي د. أفكار في أصابع القدمين، لكنه يقارن الغلفة بالأذن واللوزتين. فالأذن تفرز شمعًا، لكن لا يفكر أحد في إجراء جراحي يزيلها لمنع هذا الإفراز. واللوزتين ساد اعتقاد بأنهما بؤرة صديدية محتملة، ثم عرف أنهما جزء من خط الدفاع الأول للجسم ضد الميكروبات.

ويرى د. نظمي أن الغلفة موجُودة لأنها نتاج تطور جنيني طبيعي «لأن دي حاجة ناتجة عن النمو الجنسي من البرعم التناسلي في الجنين. رباط الغلفة في الذكر مثل رباط البظر في الأنثى، يعني غلفة البظر كغلفة القضيب جزء من النمو الجنسي من الأسبوع السادس للجنين وبيتحوّل كله إلى أعضاء تناسلية أنثوية أو ذكرية» ورغم علمه بهذا التطوّر، وبأن كل جزء من الأعضاء الجنسية للنوعين له نظيره في التركيب والوظيفة لدى النوع الآخر، إلا أنه يستثني غلفة الذكر من هذه القاعدة، فبينما يرى لغلفة الأنثى وظيفة مهمة لا يرى وظيفة نظيرة لغلفة الذكر «لأن ثبت أن غلفة الأنثى لو أزيلت، يعني إزَالة الغطاء الواقي، فيتعرض البظر المنتصب للاحتكَاك وهذا يسبب ألمًا وتعبًا شديدًا للأنثى في المرحلة الثانية من التهيج الجنسي»

ثانيا: إدراك المثقفين/المثقفات لجدوى الختان وعواقبه الموضوعية

بعض المثقّفين/المثـقّفات لا يعرفُون أي فائدة صحـية للختان، ولا حتى يتخيلون له فوائد، فهو في رأيهم عملية تعمل بلا تفكير ولا سعي نحـو فائدة مـحدّدة، فـهي عادة مسـلم بهـا، فكمـا يعطى المولود اسمـا يختن أيضًا. وتقول د. سـلمى أنه من الصعب عليهـا أن تعتـقد أن أي إنسان يسـتفـيد من إزالة شئ طبـيعي في جسمـه. وقد قالت بعض المثقفـات أنه لم يعن لهن أن يسألن أي رجل، حتى أزواجـهن، عمًّا إذا كـانوا قد اسـتفادوا من الخـتَان، لذلك يجهلن الإجـابة على هذا السؤال. لكن البـعض الآخر من المثقفين/المثقفات تصوروا فوائد للختَان، بناء على معتقدات شائعة سمـعوها في مُـحيطهم الاجـتمـاعي، أو من أطباء. وفي حـالة الأطباء، حـصلوا على المعلومات منذ أن كـانوا طلبة ولم يتـابعوا الجديد منها.

بعض المثقّـفين/المثقّفـات أدركـوا الخـتان بصـفته مـفيـدًا. وأكثر الفوائد التي ذكرها المثقّفون/المثقّفات تيسير النظافة، حتى من لا يؤيدون الخـتان منهم رأوا أنهـا فـائدة في الأوساط التي تهـمل تعليم الأطفال النظافـة الشخصية كـسلاً من الأهل، وبذلك برّروا استمـرارها لآلاف من السنين. البعض ربط هذه الفائدة بسـياقات معيّنة، فمثلا د. ليلى رأيهـا أن هناك منطقًا لظهور العادات الضارة كالخـتان، الذي تعـتقـد أنه أدّى وظيفة الحـفاظ على النظـافة في المناطق الصحراوية التي كان الماء فيها شحيحًا في الماضي.

ومن الفوائد التي ذكرها هؤلاء المثقّفون/المثقّفات منع الأمراض مثل احتباس البول، وسرطان القضيب وعنق الرحم. المثقفون/المثقفات الأطباء استمدوا معلوماتهم مما درسوه في كلية الطب، ويقول بعضهم أنه لم يطلع على ما يناقض هذه المعلومات، لكن بعضهم الآخر اطلع على معلومات أحدث تثبت عكس ذلك. أما غير الأطباء فيرجعون معلوماتهم في هذا المجال إلى الأطباء. وقد ذكرت طبيبتان أن ختان الذكر مفيد للمرأة التي سيتزوجها وليس له هو شخصيا، حيث أن ختانه يقيها من سرطان عنق الرحم.

يعتقد البعض أن الخِتَان يزيد الحساسية الجنسية بزعم أن كشف رأس القضيب يجعلها أكثر حساسية. حاولت نهال تبرير هذه الفائدة التي سمعتها من بعض الأطباء بأنه ربما تكون رأس القضيب المكشوفة أكثر حساسية من المغطاة. أما د. يارا فتنقل عن الأستاذ الذي ختن ابنها تفسيره لزيادة الحساسية الجنسية بعد الختان بتأقلم رأس القضيب على اللمس المستمر مع الملابس فتزيد حساسيته. وبعد أن فكرت قليلا قالت أن هذا كلام متناقض، وأنها لا تجد مبررا يفسر الاعتقاد بهذه الفائدة.

كثير من المثقّفين/المثقّفات تشككوا في الفوائد المتفق عليها للختان، حتى بعد أن ذكروها، ثم ذكروا الفائدة الحقيقية التي يرون أنها تتحقق من ختان الذكر: مسايرة المعايير الاجتماعية التقليدية الراسخة من آلاف السنين في مجتمع متحفظ لا يسهل فيه قبول الاختلاف.

وقد أدرك قليل من المثقّفين/ المثقّفات الختَان بصفته ضاراً، فمُعظمهم يرون الختان بحد ذاته خاليًا من أي مخاطر محتملة، والمخاطر الوحيدة -في رأيهم- قد تنتج عن سوء أداء الجراحة، كأن يهمل الخاتن -سيما لو كان غير طبيب- إزالة الغلفة كلها، أو يجرح رأس القضيب، أو يُحدثُ نزفًا. وبعض الرجال منهم يستشهد على معتقده هذا بأنه شخصيًا لا يعاني من مشاكل صحية ولا جنسية بسبب الختان، ولم يسمع من معارِفه شكاوى. فالدكتور فهمي مثلاً لا يعتقد أن مخاطر الختَان تزيد عن أخطار المشي في الطريق، أو تناول طعام ملوث، أي أنها في رأيه إذا حدثت تكون قضاءً وقدرًا، وليس بسبب الختَان ذاته. لكن بعض المثقّفين/ المثقّفات ذكروا أضرارًا جسدية أو نفسية للختَان.

من الأضرار الجسدية تذكر د. خديجة ود. منى من مُشاهداتهما العملية حدوث نزيف شديد كاد يُودي بحياة طفل بسبب وجود مرض بالدم، وقيام الطبيب بقطع جزء من رأس القضيب

وتضيف د. يارا من قراءاتها وخبرتها مع ابنها تشّوه شكل الجلد، والألم مع الانتصاب، وحُدُوث التصاقات بين طبقتي الغَلَفة مما يؤدّي لتشوهات، وإمكانية حُدُوث ورم عصبي «نيوروما» يؤدي إلى الإحساس بألم دائم مكان الجرح.

وترى د. سلمى أننا لو قارننا حِججنا ضدّ ختَان الإناث بِختَان الذكور لانطبقت عليه أيضًا، فمُجرّد قطع جزء من الجسم بلا مبرر

يعتبر ضررًا. وتطابق د. أفكار أيضًا بين تشكُّكِها في حدوث أضرار من ختان الذُكُـور لأنها لم تسمع رجلاً شكًا من مشكلات بسبب ختـانه وبين موقف النسـاء الريفيات المدافـعات عن خـتان الإناث لأنهن لا يشكين.

سـيف هو المثقّف الوحـيد الذي قـال إن الألم الذي يحسـه الطفل أثناء وعقب ختانه يعتبر في حد ذاته مشكلة.

تناول بقية المثقّفين/ المثقّفات الأضرار النفسيّة للختَان بالنفي أو بالإثبات. فهم لا ينكرون أن الختان يسبب ألمًا، لكنهم يعتقدون أن ذاكرة الطفل لا تحتفظ بهذا الألـم لو أجري له الختَان وهو رضيع، وبذا لا يترك الخـتان أثرا نفـسيًا سلبـيًا علي الطفل الذكـر بعد أن يكبر. والكثيـر منهم يعتقدون أن هذه الصدمـة قد تحدث لو ختن الطفل وهو واع، وهذا عكس شهادة سعـيـد عن تجربة ختانه وهو في الحـادية عشـرة من عـمره. أمـا د. ليلى فـقد عـملت بالطب النفسي، وزارها في عيادتـها رجال وشُبّان بمشاكل نفسـية وجنسية بسبب الختَان تصفها بأنها مشاكل خطيرة.

بعد هذا العرض لمعارف ومُـعتقدات المثقَّفين/ المثـقّفات، ننتقل لعرض خبراتهم الملموسة مع الختَان.



الفصل

الخامس

5

قطـع اللحـم الحـي:

خبرات المثقفين / المثقفات مع ختان الذكور والإناث

أولا: خبرة المثقفين/المثقفات مع ختان الإناث

بعض المثقّـفين/المثقّفات أكدوا أن خـتان الإناث لا يمارس في وسطهم الاجتمـاعي، بل أن البعض لم يسمع به إلا حديثـا، فقد قال سـعيـد: «ختـان الإناث لا يمارس في أسرتي ولا في قـريتي كلهـا. إخـواتي البنات وبنات عـمي وعمـاتي وخـالاتي مش متطاهرين، وما سمعتش عن ختان الإناث غير لما جيت القاهرة»

و قالت نوسة: «لم أسمع عن ختان الإناث قبل ١٩٩٤»

و قال د. حازم: «ما عرفتش إن فيه حـاجة اسمها ختان إناث إلا لما أثير أخيرا. ما درسناهوش في الجامعة وما شفتوش وحتى ما سمعتش عنه»

و قال د. نظمي: «خـتان الإناث ده زبالة جنسـية طبـعا واتفق عليها علميا وطبيا ما فيهاش مناقشة دي»

أما د. خديجة فتقُول أن أسـرتها لا تعرف ختان الإناث، وقد حاولت توعيـة الخادمة بمضاره، لكن الخادمة لم تسـتجب وختنت ابنتها.

بعضهم الآخـر صرّح بأن الأجيال الجديدة لا تُمـارسه، بينما كان يمارس في أجـيال أسـبق. مثلاً ، قـال د. نادر «في وسطي الذي أتيت منه في الصعيد وفي الحي الشعبي القاهري الذي عشت فيه طفولتي كان ختان الإناث يعمل، لكن الوسط الذي أعيش فيه الآن، وهو حي طبـقـة وسطى لا يعـمل خـتَـان الإناث بدءًا من السنوات العشر الماضية»

و قـال د. فهـمي «الإناث في جـيلنا، بنتي وبنات إخـوانـي كلهن لم يختن. أنا شـايف فـيه تغـيـر واضح تمامًا في الجـيل الحـالي، يعني أنا بازعم إن البنات من سن ٢٥ وتحت في القـاهرة

٩ ٪ منهن غير مختونات، ويمكن العكس تمامًا نلقاه خارج القاهرة»

من التفسيرات التي قدّمتها نهال لإقلاع أسرتها حديثًا عن ختان الإناث التعليم عمومًا وارتفاع وعي الأم «الفئات الدنيا تختن البنات لكن المتعلمين لا يعني ماما اتختنت، ومن الألم اللي شافته فكرت ما تختنّاش. حتى بدون ما أمي تقرأ توعية من إحساسها بالألم عرفت إنه ما يساويش حاجة ولم تختن بناتها»

وتقول عايشة: «في أسرتي أنا آخر بنت إتختنت» وتقول حورية: «ختان الإناث كان الجيل الأكبر سنا ثم توقف»

البعض الآخر يجهلُ ما إذا كان ختان الإناث يمارس في أسرته أم لا وسبب الشك هو علمهم بأن نسبة ختان الإناث في مصر تبلغ ٩٧ ٪ حسب المسح السُكّاني الصحي لسنة ,١٩٩٥ حتى سكان الأحياء الراقية يقولون أن من المحتمل أن يكون بعض الجيران ما زالوا يُمارسون ختان الإناث. يقول مصطفى. «المسح السكاني الصحي أدهشني، وكان اعتقادي أن ختان الإناث لا يعمل في العائلة ولا مُحيط الأصدقاء ولا الحي الراقي الذي أعيش فيه. لكن طبعًا الآن لازم أسأل بتفصيل أكثر لكن والدتي وأخواتي البنات غير مختونات، بس لهن صديقات مختونات بالنسبة للحي مفروُض إنه حي راقي، لكن لأن دي شقق بإيجار قديم فتوجد في نفس العمارة مستويات طبقية مُختلفة. وعلى

المستوى الاجتماعي فيه سكّان جهلة لم يتعلموا أكثر من ابتدائي، وفيه رجال أعمال»

ثانيا: خبرة المثقفين/المثقفات مع ختان الذكور

لكن كل المثقّفين/المثقّفات، سواء كانوا مُسلمين أو مسيحيين، متأكدون أن ختَان الذُكُور يعمل في نطاق أُسرهم ومعَارِفهم وأحيائهم السكنية، فهو - على حد علمهم- جزء من طقوس الميلاد، ومن روتينيات الثقافة المصرية السائدة يتم في المستشفى حتى دون سؤال الأهل. ولم يعد المثقّفون/المثقّفات وأسرهم يعتبرونه مناسبة تقام لها احتفالات.

ويعتبر ختان الذكور أمرًا مسلمًا به لا يَقبل النقاش في عائلات المثقّفين، وهو ليس من الأمور التي تترك في أيدي شباب العائلة من الآباء والأمهات الجدد، فالمثقّفون/المثقّفات الذين ترددوا لفترة في ختان أولادهم ذكروا تعرضهم لضغوط عائلية كي يجروا الختان للأولاد. تقول دينا «إحنا ما قلناش لحد. ده حتى كان دايمًا بابايا يسألني ومامتي تسألني ويقولوا لي ياه لسة ما طاهرتيهوش ده لما يكبر حا يتعب قوي، كانوا خايفين لا الولد تيجي له صدمة لو اتطاهر بعد ما يكبر أكيد حا يبقى فاهم إن فيه حاجة مش طبيعية بتحصل له، خاصة إن الأولاد ما يبقوش مدركين قوي ليه بيتعمل لهم الموضوع ده. كنت خايفة من العملية وهو كبير أحسن

يأثر عليه نفسيا، إنمًا ما كانش فارق معايا إنه يفضل من غير طهارة».

و يقول د. حسام عن تجربته مع ابنه: «لما قلنا إننا مش عاوزين نطاهره ما حدش أخدنا جد خالص. وبقوا يسألوا طيب أمتى حاتطاهروه. وكنا مش حانخش في مناقشة».

وفرت لي شهادات المثقّفين/ المثقّفات أكثر من نوع من أنواع الخبرة بختان الذكور. جميع المثقّفين الرجال الذين قابلتهم أجري لهم خِتان، وحدّثوني بِدَرجَات مُختلفة من التفصيل عن تجربتهم الخاصةَ. ومن المثقّفين/ المثقّفات آباء وأمهات لأطفال ذكور، ختنوا جميعًا، وتحدث معي ذووهم بمزيد من الصراحة عن تجربتهم وتجربتهن مع الأولاد. توفر لي الشهادات عن تجربة ختان الأبناء فرصة لاستكشاف فروق إدراك النساء والرجال لحالة الطفل الذي يمر بتجربة الختان. وقد سألت جميع الأطباء والطبيبات الذين تحدّثت معهم عن خبرتهم مع ختان الذكور أثناء ممارستهم المهنية، ومن شهاداتهم يمكن استكشاف العوامل التي تشكل تحيزات المؤسسة الطبية بخصوص ختان الذكور. ولأن المثقّفين/ المثقّفات ينتمون إلى الشريحة العُليا من الطبقة الوسطى، فقد أتاحت لي شهاداتهم عن مُلاحظاتهم لوقائع ختان ذكور آخرين من أبناء الأقارب أو الأصدقاء أو الجيران فرصة لاستكشَاف مُمارسات ومُعتقدات شريحتهم الاجتماعية عمومًا بخصوص ختَان الذُكُور.

١ - حديث المثقفين الذكور عن تجربتهم الخاصة مع الختان

مُعظم المثقّفين لا يتـذكرون تجربتهم الشخصـية مع الختان. لم يسأل هؤلاء الرجال ذويهم عن سـبب ختانهم، ولم يتطوع أهلهم بإخبارهم. يرى المثقفون أن من طبـائع الأمور أن يتقبل الذكور ما حدث لهم كـأمر مسلم به، وألاّ يناقشـوه. وتنم إجاباتهم عن أن المجتمع يغرس في الرجال الإحسـاس بأن الحديث عن تجربة الختان ليس من طبائع الأمُور، وبالتالي لا هم يسألون عن سبب ختانهم، ولا أحد يتطوع بشرح أي سبب لهم، فالجـميع يتعاملون مع ختان الذكور على انه بديهيـة حتمية. يندر أيضًا من يُحـاول أن يتساءل حتى بينه وبين نفسه عن مَغْزى الخِتَان. من هؤلاء د. حسام، الذي بدأ في تأمل تجربة خـتانه ومحـاولة استكشاف أثرها النفـسي عليه بعد أن شاهد ختان ابنه وأدَركه كصدمة للطفل. قال د. حسام: «أنا نفسي ختنت. كنت صغيـر قوي. ما عنديش أي حاجة في الوعي تخليني أربط بين أي حاجة وبين الصدمة التي تلقيتها أثناء ختاني، أكيـد اصبت بصدمة كـما أصيب ابني، وجـايز ترسبت عندي في العقل البـاطن. فما عنديش حاجـة أرجعها لهذه الصـدمة، على النقيض، على العكس، حاتكلّم بِصـراحة، أنا باشوف إن شكلي بدُون خِتَـان حايـقى عجيب، مـا أعرفش ليـه. لأني وجدت نفسي كدة طول عمري»

كل المثقّفين الذين تمّ ختَانَهم وهم رُضع أجري لهم الختان في المستشفى بيد طبيب. ولا يعـرِفُون من صَاحب قَرار ختَانهم، وإن

كان مصطفى يعتقد أن الطبيب هو الذي اقترح تختينه، لكنّه لا يملك برُهانًا على هذا الاعتقاد.

ثلاثة فقط من الأحد عشر رجلاً الذين قابلتهم تذكروا خبرة ختانهم بدرجات مُتفاوتة. إثنان منهما خُتنا في سن الرابعة (د. نادر، وسيف)، وواحد ختن في سن الحادية عشرة (سعيد) المثقّفون الثلاثة يذكرون بعض الطقوس الاحتفالية التي صاحبت ختانهم، لكن أقرب تجربة إلى الختَان التقليدي كطقس تدشين أو مُرور من الطفُولة إلى الرجُولة هي تجربة سعيد. يقول سعيد: «أنا شخصيًا تم ختاني في سن ١١ سنة في الصعيد. والختَان يتم هناك كطقس فرح، بطريقة فيها بهجة شديدة لأنه يعمل بشكل جماعي، لو حد قرر يطاهر ابنه، الأقارب والجيران يحتشدوا ويجيبوا أولادهم اللي ما اتطاهروش، ويتم الطقس. فأنا تم ختاني مع أخي وسط مجموعة لا تقل عن ٣-٣٥ ولد، وفيه طقس فرح، وتقدم نقطة للمتطاهر يشتري بها ما يُريده، وأنا فاكر إني اشتريت معزة بالنقطة وبعدين يجيبوا لنا الطبل البلدي، وتبقى ليلة احتفال» ويستطرد سعيد في حكي مزيد من التفاصيل فيقول أن قرار ختان الولد يُؤخذ بِشكل جمَاعي من الأبوين وبقية كبار الأسرة، وأنه لم يختن على حين غرة، بل كان يعلم بما سيحدُث «مش فاكر من أخبرني، لكن كُنت عارف وموضب الموضوع معاهم، كلنا اشتغلنا في التوضِيب للطهور، نجيب الطبل البلدي إزاي، وده يجيب المزمار، ومعانا ابن عم كبير بيحضر، وكده

يعني. فمعروف وليس خدعة، بالعكس احنا مستنيينها، دي اللي حيجيلنا فلوس فيها وفرح وطبل ومزمار، والناس حاتحتفل وتيجي» يرى سعيد أن إجراء الختان للصبي وهو في سن كبير ميزة تخفف من صدمة الختان: «كنت كبير وعارف وحضرت طهور أولاد قبل كدة ما كانش بالنسبة لي مزعج خالص، بالعكس، كان يوم الواحد مستنيه. في الصعيد فيه حاجة جميلة إنهم بيعملوها للولد وهو واعي وليس صغيرًا، وهذا جميل لأن الألم بيبقى بسيط جدا ووسط طقس فرح، كأن الولد سيتزوج ويتم تعميده كرجل» ويبرر سعيد عدم خوفه رغم علمه مسبقا بالألم الذي ينتظره. «ما كنتش خايف. لأن أنا شفت العيال بتصوت وتعيط شوية وبعد نصف ساعة يلعبوا معانا عادي، يعني لحظة من الألم فقط أنا بالنسبة لي ما كنتش خايف، كنت مستعجل على المزمار. لأني كنت باحبه قوي. ويصف سعيد دور الاحتفالات الطقسية في تقبل الذكر للختان وتأكيد استمرار هذا القبول وعدم تغيير الرأي بفعل الألم: «الألم لحظة، وبعدها احتفلت وهيّصت، بعد ما خلص الطهور بقيت مهتم بالفلوس اللي جمعتها قد إيه، المجتمع عامل قصة لها بداية ونهاية، قصة مبهجة، فالولد بيبقى مهتم إنه يكمل القصة»

يصفُ سعيد بداية هذه «القصة» «الستات هي اللي بتمسكنا، بنت خالي. بنت عمتي. عمتي. . بيمسكوا الولد من إيديه من ورا، ويتم الطُهُور بيد حلاق الصحة. والحكاية قد كدة

بسيطة، إن اللي بيحلق لي هو اللي بيطاهرني، ففيه ألفة بيني وبينه». سألت سعيد عما إذا كان لتجربة الختان أثر على الألفة بينه وبين الحلاق فقال: «أبدا، قعد صاحبي على طول». ورغم استمرار هذه الصداقة إلاً أن سعيد يعتب على الحلاق إصابته بأحد الأضرار الشائعة لختان الذكور، التهاب مجرى البول: «فيه حاجة حصلت بقى واستمرت لسنوات طويلة، إني كان عندي حرقان مع التبول، والسبب في رأيي إن الراجل طاهرني بطريقة متخلفة شوية». يتذكر سعيد، مثل المثقّفين الآخرين اللذين تذكرا تجربة ختانهما، أنه ارتدى جلبابًا أبيض، كما يتذكر أن النساء كن يغنين أغنيات فرح، لكنه لا يتذكر نصها. وهو الوحيد منهم الذي تذكر أن الصبيان المختنين حديثا حظوا بتناول أطعمة خاصة، وهي «فراخ وأكل مبلوق»

أما سيف فيقول عن تجربته: «أنا فاكر خبرتي كويس. ختنت في سن ٤ سنين، وفاكر ألم فظيع» وعلى عكس الألفة التي كانت بين سعيد وبين خاتنه، يعبر سيف عن إحساسه بالغُربة عمّن ختنه: «حد جه، وما كانش طبيب بالمناسبة، ممرض أو حلاق صحة. قال لي أنا حاكشف عليك بس. بعدها حسيت بألم فظيع، وبعدين ما دريتش. .الكلام ده كان العصر، ما دريتش غير بالليل قوي وفيه مولد في البيت وناس جاية تبارك وكان فيه طبعا ألم فظيع». ورغم هذا الألم الذي يصفه سيف بالفظاعة فإنه ينكر أن التجربة تركت لديه أثرا سلبيا طويل المدى: «ما أقدرش

اقول إنها تركت أثر في نفسي. وقتها كان فيه ألم، غير كدة مجرد ما عدت خلاص». ولما سـألته عما إذا كان خضع للختـان مختارا قال «ما كانش أصلا فيه مجال للخيار إني أوافق أو ما أوافقش. دي مسألة بتعمل بدون موافقة البني آدم». وعلى عكس سعيد، لم يؤخذ رأي سـيف في ختانه ولم يخـبره أحد قـبله. وعلى عكس سعيد أيضا شعر سيف بعدم الرضا عن إجراء الختان له، وعبر عن ذلك بقـوله: «أي تجربة فـيهـا ألم أكـيد مش حـاتبسط». وكـان الاحتفال بختان سيف -كما يتذكره- محدودا: «مجرد ناس تيجي تبارك وبيـوزعوا بونبوني، لأننا كنا سـاكنين في مدينة مش أرياف وبالتالي مظاهر الاحتفال بتختلف». ولما سألته عن تفاصيل مظاهر الاحتفال قال «الطفل بيلبس جلابية بيضاء وبدون ملابس داخلية علشان الجرح. مش فاكر موضوع الأكل بس فاكر الجلابية البيضاء كويس»

أما د. نادر فـلا يتذّكر الكثيـر عن تفاصيل ختـانه، ويقول أن أحدا لم يخـبره قبلهـا، وكل ما يتذكّـره أن الختَان قـد حدث وأنه ارتدى جلبابا أبيض.

٢- مثقفون ومثقفات ذكروا تجربتهم مع ختان أولادهم

إذا كان مُعظم المثقّفين الرجال لـم يتذكروا تجربة ختانهم، إلا أن جميع مـن أنجب ذكورا من المثقّفين/ المثـقّفات قد تذكّـروا خبرة خِتَانْ أبنائهم وأبنائهن، وعبّروا عن أحاسيسهم نحو هذه التجربة.

أ) خبرات المثقفين الرجال مع ختان أبنائهم

لم يحضر د. نادر ختَان ولديه، فحسب قوله: «أولادي الاثنين لم أراهما عند ختانهما لأنّهما ختنا في المستشفى. الصغير ختن بعد الولادة مباشرة دون حضورنا، والكبير كان عمره بضعة أشهر وعهدنا به إلى طبيب موثُوق به لختانه ولم نحضر لا أنا ولا أمه» ولا يتذكر د. نادر حتى حالة ولديه بعد الختان، ورأيه أن الختان «هو إجراء طبي أكثر منه اجتماعي، جراحة تتم في المستشفى وخلاص زي أي عملية بنعملها . فتح خُرّاج أو ما شابه» لذلك لا تمارس أسرته الطقوس والاحتفالات المعتادة في الأوساط الشعبية. أما قرار الختان فقد أخذه مع زوجته باعتباره «إجراء لازم يحصل» وهذا لا ينفي أن للمشتغلين بمهنة الطب دور متزايد في حث وتشجيع الأهل على ختان الطفل الذكر، فكما يقول د. نادر: «بالنسبة للصغير سألونا في المستشفى هل تحبوا تطاهروه وياخذ تطعيم بي سي جي ؟ فقلنا كويس إن نخلص من هذا الإجراء واحنا لسه في المستشفى بدل ما نفكر نرجع المستشفى بعد كام شهر الكبير عملناه بعد كام شهر مش لأننا كنا رافضين نعمله بعد الولادة لكن لأن ما حدش سألنا في المستشفى، المستشفى التي ولد فيها لم تكن تجري عمليات الختان. بعد ٦ سنوات لما ولد الثاني، نفس المستشفى سألونا، دخلت الممرضة وسألتنا، ورحبنا لأنه إجراء سنخلص منه زيه زي التطعيم بالضبط» أما بقية الأقارب فقد كان موقفِهم: «الراحة التامة لأن

تم ما يجب أن يتم» لكن لم تقم احتفالات فقد كان الأمر «زي ما نكون شلنا للولد لوز»

ويقول أبو الفتوح عن تجربة ختان ابنه: «كما سمعت كان مفرُوض يتطاهر من أول يوم أو يومين لأن ده ما بيعملش ألم، حصل لأسباب مش متذكّرها أن تركته حتى صار عمره سنة أو سنتين. وبعدين حسيت إنّي اتأخرت قوي فأخذته لدكتور صاحبي وعملت له العملية. الطبيب أعطى الولد تخدير بالرش، لذلك لم يصرخ مع القطع. لكن بعد كدة قعد يتوجع في الطريق عندما بدأ أثر البنج في الزوال. وأعتقد إنه نام من الإرهاق. ولما رجعت لقيت وشه أحمااار مزنهر، يعني هي فعلا عملية وأنا كنت فاكرها عملية بسيطة يعني خفت عليه جدًا، وفين على ما هدأ فضل فترة طويلة متألم، وكان لسة بيتبول على نفسه وكان مع كل تبول يحرقه جدا وكان عليّ أتابع هذا الموضوع أنا فاكر إننا قعدنا يومين تلاتة في ألم شديد معاه. والراجل عملها له بشكل بشع يعني، لحد دلوقتي مأثرة على شكل القضيب. طلع مكان القطع مشرشر»

ويقول أبو الفتوح أن كلمة قرار لا تَنطَبِق على موضوع ختان الذكور، فالقرار مأخوذ سلفا ومتفق عليه بديهيًا بينه وبين زوجته، وكل الحوارات بينهما حول هذا الموضُوع عن متى يذهبان به للطبيب لختانه. ويقول أنه لم يخبر ابنه بسبب ختانه، ولا الولد نفسه سأل: «هو أيضًا مُعتبر أن هذه بديهية وكان لازم تحصل

وأكيد هو بيشوف زمايله ومعتقد إن هذا هو الشكل المعتاد ومعتبرها حاجة بديهية». لكن الولد لاحظ اختلاف شكلَه وسأل عنه «أعتقد سأل مرة على شكل الشـرشرة البايخة اللي حول قضيـبه فقلت له إن الدكتور كـان حمار ولم يقطع كويس» ولم يعـترض أحد من أفراد الأسرة، فالموضوع لا يناقش أصلا. أقـام أبو الفتوح احتفالاً بسيطًا بُـمناسبة مـرور أسبوع عـلى ختان ابنه، لكنه يـختلف عن الاحتفـالات الطقسية التـقليدية. لم يقدم للطفل أطعمـة خاصة، ورغم أنه ارتدى جلبـابا أبيض إلاَّ أن هذا تم بالصــدفـة ولـم يكن مقـصودًا: «كـان لابس جلابيـة علشان الاحتكاك. وهـو جلباب أبيض من مـلابسه العاديـة التي كانت كلهـا جلاليب بيـضاء. لم نجلب له جلبابًا خاصًا»

عندما سـألت د. نظمي عن تجربة ختان ابنه، اسـتنكر السؤال وقال: «دي حاجة مش مهمـة إيه أهميتها؟» ولما أصررت على تشجيعه على الحديث عن هذه التجربة أجاب إجابة مقتضبة: «ابني اتختن طبعًا زينا كلنا». قال د. نظمي أن الذي ختن ابنه هو الطبيب الذي باشـر ولادة زوجته، وأنه حـضر الخـتان بنفـسه. اسـتنكـر د. نظمي أيضًا سؤالي له عن شعور طفله أثناء وبعد الختان: «سؤال غـريب قـوي. طفل مـولود بقى له ٣ أيام تقـولي لي شـعـوره إيه؟!» ومع إصـراري قال: «كـان بيعـيط. صرخـة ساعـتهـا وسكت على طول». يقـول د. نـظمي أنه اشتـرك مع زوجتـه في اتخاذ قـرار ختان الابن، ولم يقم احـتفالا على الإطلاق بمناسـبة

الخِتَان لأن: «دي حاجة عادية بتجرى في كل عائلة. في الأوساط البلدية بيعملوا حفلة لكن دي عادات قديمة» وعندما سألت د. نظمي عن نمط نوم ورضاعة ابنه قبل وبعد الختان أجاب: «طبعًا لا يختلف».

ويقول د. فهمي: «ابني ختن في الأسبوع الأول من عمره وهو في المستشفى. بدون ما يأخدوا رأينا كجزء من الطقوس العادية» وهو يبرر النظر للختان على أنه من طبائع الأمر بأن «أبوه وعمه وخاله وكل من ولد قبله أو سيولد بعده من أولاد مختنون. المسألة عادية خالص، روتين»

ب) خبرات النساء المثقفات مع ختان أبنائهن

تقول د. سلمى: «طَهَارة إبني تمت بعد ولادته بساعة. ما أعرفه عنها مش تفصيلاً لأن أنا ولدت قيصري وفقت لقيته مربوط بشاش، ولما خرجت من المستشفى بعد يومين ما كانش فيه حاجة غير شوية ميركوريكروم على قضيبه وبس، فما تعرضتش لأني أغير له على جرح ويصرخ». تقول د. سلمى أن الطبيب هو الذي أخذ قرار ختان ابنها، وأنها وزوجها وافقًا على هذا القرار ضمنًا: «هم استنوا لحد ما فقت ورضعته وبعدين قالوا حناخده شوية، ما قالوش حاياخدوه ليه، وبعدين زوجي قال حاياخدوه يطاهروه. وبس». لم تلحظ د. سلمى تغيّرات في نمط نوم ابنها أو رضاعته لأنه ختن في عمر ساعات، ولم يكن قد تكون لديه نمط رضاعة

بعد. أما بقية أفراد الأسـرة فلم يبدر منهم أي رد فعل، فلم يهنئوا بالختان، كما لم يعترضوا عليه.

وتقـول د. ليلى عن تجربة خـتان ابنهـا: «أولا ابني اتولد في نيـويورك من ٣٤ سنة كنت بادرس يـر في جـامعـة كولومـبيـا ولي قصة لازم احكيـها لأنهـا تدلك قد إيه المجـتمع الأمريكي مجتمع متـخلف وابن كلب. أنا حقي أرفع قضية عليهم على فكرة. ولدت في المستـشفى، لما لقوا أني مسلمـة ختنوه دون أن يسألـوني. مجرد لمـا لقوا إني من مـصر ومسـلمة فقـالوا دول بيـختنوا أطفـالهم. وأنا رأيي أنهم بيـختنـوا روتيني» خُـتـن ابن د. ليلى في سن أسـبوع، ولاحَظَت هي تغيـرات طرأت على نمط نومه ورضـاعته: «الجـرح قعد أسـبوعين تلاتة مـا لمش لأن مناعة الطفل ضعيفة جرحـه ما يلمش بسهولة. كان يعيط طول الليل من ألم الجرح، وأنا بقى طالبة ومحتـاسة وحالتي كرب» وقد سألت د. ليلى عما إذا كانت قد فكرت أثنـاء حملها في موقف معين من ختان المولود إذا كان ذكرا، فقالت: «لأ أنا ما فكرتش في ختان أو غير ختان. . بس لما حصل الختان كان لازم احتج وأرفع قضية» لكنها لم تفـعل لأنها كانت تعتقـدُ وقتها أن خـتان الولد جزء من الروتين

قالت د. مـنى: «لم أحضر طـهارة أولادي، لكن بشـعة إنك تتعاملي مع البـيبي بعد الطهارة. صريخ مُتـواصل وإحساسك بأن العُضو مـجروح ومربوط بشاشة وخوفك من التـعامل مع الجزء ده

وكل ما ييجي يعمل بي بي يصرخ وحاجة بشعة لحد ما يحدث التئام ويبقى إيدك على قلبك أحسن يحصل تلوث للجرح. وتقول عن أثر الختَان على نمط النوم والرضاعة. «بيتأثروا طبعا البيبي وهو متطاهر بيبقى مجروح ويعيط كثير جدا وكل ما يعمل تواليت حتى وهو نايم يصرخ لأن أكيد بيبقى فيه حرقان»

ختنت د. منى ابنها الكبير في سن أسبوعين والصغير في سن ٣ أيام. وتبرز هذا الفرق: «أنا بكرت بطهارة الصغير لأن الكبير تعب قوي، وده لأنه كان كبر وحس بالألم الدكاترة بيقولوا إن كل ما الطفل يتطاهر بدري يبقى ده أحسن لأنه لن يحس بالألم» ولما سألتها عن الواقع العملي مع خبرة ابنها الأصغر قالت: «وهو فيه طفل ما بيحسش؟ لا طبعا بيحس بدليل إنه بيصرخ، مش حاجة من جسمه بتتقطع؟»

لا تتذكر د منى أثر الختان على نمط نوم ورِضاعة طفليْها بالتفصيل، لكنها تقول: «عادة الطفل لو بيصرخ لأي سبب بيسكت شَوية لما يرضع، ممكن يرضع بُقِّين وبعدين يرجع يصرخ تاني من الألم» تقول د. منى أنها وزوجها أخذا قرار ختان الولدين، ولم يبادر الطبيب بعرض الختان عليهما: «أنا وابوهم أخدنا القرار ستّات العائلة سألوا حاتطاهريه إمتى والممرضة دخلت علي قالت لي الدكتور موجُود تحبي نعطيه له يطاهره؟ فأنا ما صدقت. وقد لاحظت د. منى اختلاف درجة الختان الذي اجري لولديها: «الولدين نوعين مختلفين. الكبير عنده كمية معقُولة

من الجلد والجلد واخد راحته. بالنسبة للصغير الجلد مشدود جدا وده كان قالقني جدا جدا جدا» وتقولُ عن مشاعرها عندما أخذت الممرضة الأطفال لختانهم: «كنت قلقانة ومتوترة جدا وخايفة ومتلخبطة وصعبان علي إبني» وتقول أن هذه المشاعر هي سبب تأجيل ختان ابنها الأكبر لمدة أسبوعين بعد ولادته، حتى رضخت لضغوط من حولها: «ستات العيلة وستات هيئة التمريض كانوا بيقولوا إنتي حاتستني عليه من غير طهارة لحد لما يكبر ويبقى راجل؟! وكل ما يقعد يبقى وحش علشانه ويعور نفسه، كل ما يبقى صغير يخف أسرع» وتصف حالها وحال طفلها بعد الختان. «بعد العملية خرج من غرفة العمليات بيعيط بشدة والممرضة قالت لي خذيه رضعيه، وفعلاً قعدت أرضعه وكان صعبان علي جدا» لم تقُم د.منى احتفالا لختان ولديها، لكن الأقارب هنأوها عندما علموا، وهي تتعجب من عادة التهنئة بالختان: «الناس دايما يباركوا على الطهارة مش عارفة ليه كنت حاسة أن دي حاجة سخيفة، ولادي مجروحين وعايزاهم يخفوا، وقالوا لنا لازم وعملناها وزي ما يكون واجب وخلصنا منه، وربنا يكمله على خير يعني» ثم تذكر أكثر تهنئة أغاظتها «أعجب رد فعل بنت خالتي بتبارك لي ومبسوطة وبتبوس البيبي وبتقول له معلهش هي المرة دي بس اللي انت حاتتعور وبعد كدة انت اللي حاتعور. لفت نظري ده لحظتها، قلت لها يامجرمة. انتي قاعدة تفكري في إيه ولا في إيه دلوقتي. فعلا لفت نظري قوي

التعليق ده . أنـا حسيت إنهـا بتتعـامل معاه وهو بـيبي على إنه راجل، اللي حايبقى يعور بعـد كده، هو اللي حايبقى له اليد العليا في كل حاجـة. يعني تعبيرها إدالي الإحـساس ده: معلهش المرة دي انت حاتتعـور بعد كدة انت اللي حاتعور تعـبير فظيع . طيب ليه يعـور؟ ليه مطلُوب إن هو يعور؟ هي كانت تـقصد طبعا حـاجة جنسية بالموضوع، لـكن التعبير مـا ادانيش الإحساس بأنه بس حاجة جنسية، لكن إداني إحساس بأنه حايبقى اليد العليا في كل حاجة»

وتقـول حُورية أن الطبـيب هو الذي قـرر ختـان ابنها «مـا أعرفش، فـيه حـاجات بتـبقى مـتغلغلة عند الناس، لكـن أنا ما أخدتهـاش أبدا من الأول على إنها عادة مُـتغلغلة أنا أخـدتها لما الدكتور نصحني لما رحت أشتكي له إن الولد بيعيّط كل ما يتبول. وهو صغير خالص في أول اسـبوع فقال لي علشان لازم يتطاهر، حتى هو مش اللي عملهـا له، قال لي تجيبي حد، فكان لـسـه فيه حاخامات في مصر بيطاهروا الأولاد، جبت حاخام وعملها له في البيت. مـا أقدرش أقـول أي كميـة قطعها لكن هـو قطع الغلاف الأمامي كله دي تجـربتي الشخـصيـة البحتـة، لكن بعد كـدة ما فكرتش فيهـا» وقالت عن حالة الولد بعد الختـان. «صرخ لمجرد لحظة وبعدين بقى كويس. أنا شعرت بالفرق إن الولد استريح بعد كدة. يمـكن دا توهم بسبب مـا أوحى لي به الدكتـور أيامهـا [في أواخر الخمـسينات] وتقول عن رد فعل الأقـارب: «ولا عمرهم

عـرفوا ولا سـألوا، دي حاجـة روتيني زي مـا تكوني بترضـعي الطفل. لم يحصل حفل أو تهاني أو أي حاجة بالمرة»

ج) خبرات القرناء:

كان بين المثقّفين/ المثقّفات أربعـة قُرناء، وفيما يلي سردٌ مقارن لتصريحات الأب والأم في كل زوج منهم بخصوص ختان الابن

سعيد ودينا:

على عكس الذكرى الإيجابية التي يحملِهـا سعيد لختانه الذي تم بأسلوب تقليدي مُـحاط بالاحتـفال، فهـو يحمل ذكرى سيـئة بالنسـبة لختـان ابنه «لما جـيت أطاهر ابني وهو صغـير بالطريـقة الحديثة كانت مشكلة كان عنده سنة وشوية، وأعطوه حقنة بنج وأنا اتخـــضـيت عليـــه وقلت يا ريتني كـنت طاهرته بالطـريقـة الصعيدية أستنى لغـاية ما يكبر ويوعى، لأن أخد منا ليلة كاملة واخد بنج وكنا مرعوبين عليه» تتـفق دينا مع زوجها في شعورها بالرعب على ابنهما، لكنها تختلف مـعه فيمن اتخذ القرار رغم أن سعيد يعترف بأن دينا ترددت في لحظة الختان، إلا أنه يقول أنها اشتركت معه في قرار ختان الابن.

لكن دينا تقـول «أبوه هو الذي أخذ القرار، والحـقيـقة مش أبوه قوي، واحـد صاحـبنا قال بيـعمل لنا خـدمة وقـال إنه لقى الدكتـور إللي ضامن إنه بعملهـا بشياكـة والولد ما يتعـبش. كان

يرضه فيه حرص إن الموضوع يتم بطريقة فيها حنية ومن غير لعب. وأنا ما كنتش معترضة بس كان فيه خوف» ثم استطردت: «طبعًا أنا عندي بنت وما أفكرش أختنها أبدا» ويتذكر سعيد الخلاَف الذي حدث بينه وبين زوجته قُبيل اتخاذ قرار الختان: «هي قالت ليه بنطاهره؟ قلت لها علشان كل الناس بتتطاهر عمري ما سألت نفسي السؤال ده. حايبقى شاذ بين أصحابه. قالت لي لأ مين قال لك إن كل الناس بتتطاهر؟ وكانت عصبية جدا. . مخضوضة على الواد، وطلعت لي بالجندر، قلت لها حتى كل أصحابنا الأقباط متطاهرين، حنشذ ليه، اشمعنى!» ويبرر سعيد إصراره على ختان ابنه. «ما كنتش قادر أقول لأ ما نطاهروش لأن كان عندي قناعة إن دي شئ صحي، ما اعرفش حقيقي ولا لأ لغاية دلوقتي، ما عنديش فكرة. بس بالعقل كدة يبان إنها شئ صحي، إن ما يبقاش فيه زايدة تلم وساخة وتعمل التهابات. كمان ما أقدرش أسيبه مش متطاهر في وسط مجتمع كل الناس فيه بتتطاهر»

ثم تصف دينا اللحظات الحَرِجة التي مرت بها قُبيل ختان الولد: «أنا ابني اتولد بعد ٧ شهور من الحمل، واتولد برة، وعادة في مصر بيعملوا ختان الذكور دلوقتي -حديثا يعني تاني يوم أو أسبوع بعد الولادة. ففضل الولد لغاية تقريبا سنة مش متختن، وأنا ما كانتش فارقة معايا، يعني ما كانش قالقني الموضوع على قد ما باباه كان قلقان حتى لا يكبر بلا ختان وده يأثر عليه فمفروض

نعملها له وهو صغير علشان ما يحسش. فلما رحنا للدكتور صمم يدي له بنج كامل، وطبعا دي كانت صدمة بالنسبة لي إن طفل ياخد بنج كامل علشان عملية ختان، وإن ده ممكن يأثر على قلبه أو يعمل أي حاجة، فسألت الدكتور قبل الولد ما يتبنج هو ضروري الولد يتختن؟ وكنت بأسأل بجد، ما عنديش قناعات بحاجة، وما اعرفش فجأة قلت له أنا سمعت إن طهور الذكور ده ما لوش فايدة مع إني ما كنتش عارفة أنا جايبة المعلومة دي منين، جت كدة بالصدفة البحتة، ما أعرفش أساسها بس يمكن علشان كنت خايفة على الولد جداً فقال لي والله فيه ناس بيقولوا مش مهم، وأنا استغربت برضه لأن الدكتور بيصلي وكده، فقلت له خلاص بلاش نعملها وكنت خلاص حاخد الولد وأمشي لولا إن أبوه صمم وقال مش معقول خلاص إحنا جينا وبتاع»

وقد لعب الطبيب دوراً في دفع سعيد للإصرار على قرار ختان ابنه، وفي إثناء دينا عن عزمها على عدم إجراء ختان الابن يصف سعيد هذا الدور «احنا كدنا لا نختن ابننا فعلا حصلت مناقشة طويلة بيني وبين زوجتي، وتدخل الطبيب في المناقشة وقال أضرار الجلدة» ويقر سعيد بأن دينا غلبت على أمرها، وأن حتى مبررات الطبيب لم تقنعها وتوصلها للرضا عن ما يجري «هو الدكتور ما أقنعهاش. الولد كان خلاص خد حقنة، وتقريبا بيتطاهر يعني، بس كان بيهدِّيها بقول إن الختان صحي أكثر»

وتعبر دينا عن البلبلة التي ألمت بها في هذه اللحظة، فالطبيب قد

أخبرها بأن هناك آراء ترى الختان غير ضروري، لكنه حقن الولد بالمخدر فعلا، وذكر مضارا للغلفة: «أنا تراجعت بس كان بعد فوات الأوان خلاص بقى بتفكري في لحظة وياللا وكذا، بس نزلت في حالة سيئة جدا من عند الدكتور» ومقارنة بالاحتفال والفرح الباذخ بختان سعيد أحيط ختان ابنه بالصمت والقلق. تقول دينا «الأهل كانوا قلقانين لأنه كان إبن سبعة، وقالوا الحمد لله إللي تمت وخلصنا من الهم ده ما حصلش تهنئة. لم يحدث احتفال ولا أي طقوس» ويقول سعيد الذي أحس بالكرب لتجربة ختان ابنه عكس فرحه بختانه هو شخصيا «أنا اللي أنا متأكد منه إن الطهور في السن الصغير شئ سيئ لو جبت طفل تاني وكنت حاطاهره مش حاطاهره قبل سن ١-١٢ سنة» ويختلف سعيد ودينا في إدراكهما لمدى الألم الذي أصاب ابنهما من جراء الختان. يقول سعيد. «الألم كان بسيط قوي، الخَضّة هي اللي بتعمل الصراخ» وتقول دينا: «تألم طبعا ده جرح لازم يتألم»

د. حازم ود. أفكار:

د. حازم ممن لم يتذكّروا تجربة ختانهم، فقد تمّت وهو رضيع، لكنه حضر ختان ابنه الرضيع وتأثر به: «قضينا ٢-٣ أيام تعساء وكان بيعيط كثير، لم تكن تجربة لطيفة كون إن أب يتفرج على ابنه بيتختن والولد بيصرخ، بالنسبة لي كانت تجربة

مؤلمة» ولما كان د. حازم قد صرح أثناء الحوار أن من الأفضل أن يختن الأولاد وهم رضع ليحسوا بألم أقل فقد سألته عن إدراكه لمدى تألم ابنه فقال: «لدهشتي تألم جدا» ثم استدرك د. حازم في محاولة للتوفيق بين إحساسه بمدى تألم ابنه واعتقاده بأن المواليد لا يشعرون بالألم بنفس قدر شعور البالغين واليافعين به: «بس أنا برضه أبوه، فأقل ألم لديه سأدركه كألم شديد. ثانيًا أنا كنت متخيل إن ما دام إدراك الألم أقل فلن يتألم، لكن هو طبعا فيه ألم» ثم يحاول تعزية نفسه عما سببه لابنه من ألم فيقول. «الأهم أن من المحتمل أنها لا تترك رواسب نفسية صدمية» حاولت أن أختبر مدى موضوعية إدراك د. حازم لشعور الأطفال بالألم عند ختانهم، لا سيما أنه برر ذلك في حالة ابنه بعاطفة الأبوة، فسألته عن الأطفال الذين ختنهم أثناء تدربه على الجراحة قال د. حازم «طبعًا وأنا طبيب امتياز صغير كنت واخد الموضوع على أنه ممارسة مهنية وكنت مبسوط إني عرفت أعملها لكن يعني كنت باشوف الطفل بيتألم، لكن أمه كانت واقفة معايا ومبسوطة جدا، فهذا شجعني»

أما د أفكار فلا تُنكر أن الألم الذي شعر بها ابنها ألم حقيقي، بل ذكرت أيضا تعرضه لأحد مضاعفات الختان، وهو النزف، واستطردت في إعطاء مثل آخر بابن أختها الذي أصابته أضرار عاجلة مماثلة «ابني لما اتختن كان عنده شهرين وختن بيد طبيب صديقنا، وكنت خايفة تحصل له مشكلة وبعد ما اتعمل

الختان كنت طول الوقت قلقانة أحسن يحصل له نزيف وأقعد طول الوقت أبص على البامبرز، وفعلاً حصل له نزف، لم يكن شديدا، لكن واضح إني كنت قلقانة قوي، حاسة طول الوقت إن حايحصل له نزيف ومش حالحق أروح به للدكتور تكرر هذا مع إبن أختي بعد سنتين، كان عنده حوالي ٤ شهور، أنا رفضت إنها تاخده وتروح به البيت، صممت تبيت عندي في المستشفى حتى نعرف نسعفه لو حدث نزف. وبرضه كنت قلقانة من النزيف، وبرضه حدث له نزف، أنا فاكرة إن ابن أختي حدث له نزف ووجهه شحب واتخضيت قوي عليه» وتعزي د. أفكار نفسها بأسلوب آخر «يبدو إن من الطبيعي إن يحصل لهم نزف لما يتبولوا للمرة الأولى بعد الختان» وبنفس هذا الأسلوب تبرر إحساس الأطفال المختونين بالألم: «كانوا متألمين بيصرخوا وبيعيطوا، بس أنا كان عندي إحساس إن ده شئ طبيعي وأنها تجربة طبيعية لازم يمروا بها، وهي أحد التجارب المؤلمة الطبيعية التي يجب أن يمر بها الناس في حياتهم لكي ينتموا للجماعة، مثل ثقب آذان البنات»

يتفق د. حازم ود. أفكار في أنهما اشتركا في اتخاذ قرار ختان ابنهما تقول د أفكار «هذا موضوع مفروض، أخذنا جميعًا هذا القرار أنا وأبوه، كنا احنا الاتنين عايزين نعملها له وخايفين أنه قد يصاب بضرر، لكننا كنا حاسين إنها لازم، إذ ولابد يعني حا تحصل حاتحصل وخلينا نعملها بدل ما الولد يكبر ويتضايق أو

يتعـذّب وهو بيتطاهر» ويقول د. حـازم. «المناقشة كـانت نعمله امتى. أمه اقـترحت عمله بعد شـهر لمنع النزف وأنا كان صـعبان علي وعندما حـاولت استخـلاص مغزى وأثر الشـعور بالشفـقة الذي انتاب د. حـازم تجاه فكرة خـتان ابنه نفى بشـدة أن يكون له مغزى دال على الاعـتراض: «لا مش اعتراض. أنا عمـومًا أكره الجراحـات. عندي آليات هروب، الحاجـة لما ييجي ميـعادها أبقى نفسي إنهـا ماتحصلش. وبس». ولأن د. حـازم تغلب على هذه الآلية فـقد سألته عـما إذا كان قـد تعرض لضغوط سـاعدته على التغلب عليها، فنفى ذلك قـائلا: «لا كنت عارف إنها لازم تتعمل حتى لا تحدث مشاكل أكثر للولد» ود. أفكار سمعت من أمها عن المشاهرة بعد ختان ابنها «بيتهيألي أمي قالت ما حدش يدخل على الولد وهو حالق دقنه أو شايل لحمة وبعدين إحنا كنا متعودين ما نناقشهاش فـيما تقول، اللي هي بتقوله نمشيـه وخلاص علشان ما يكبرش في دماغها»

د. حسام ود. يارا:

حسـام ود. يارا أصدقاء شخـصيين لي، وقد ترددا لفـترة في تختين ابنهمـا، فقد اطلع د. حسام على بعض الكتـابات المعارضة لختـان الذكـور قـبل أن ينجب ابنه، ودار بيني وبيـنه حوار حـول الموضوع عندما اتصلت به لأهنئـه بمولد ابنه. يحكي د. حسام عن الحيـرة والقلق اللذين عاناهمـا والضغوط التي تعـرض لها منذ أن ولد له ابن ذكر حتى انتهى الأمر بختانه «أولا كان مثار هل نختنه

أم لا، لأني أعرف أن هناك وجهة نظر ترى ألا داعي للختان. وأنا قعدت أفكر في الفكرة، هل فيه داع أم لا لو أنا في مجتمع آخر غير هذا المجتمع يبقى فعلاً ما فيش داعي، إيه اللي يخليني أفكر يعني أني أروح أطاهر الولد، فعلاً ما فيش داعي. وتناقشت مع زوجتي وفكرنا جديًا إن ما فيش داعي، لكن أخذنا القرار تحت ضغط اجتماعي، كنا نسمع الواد مش حايتطاهر! الواد مش حايتطاهر! إحنا أجلنا الختان علشان نفكر ويمكن كان أحسن لو طاهرناه في سن ٣-٤ أيام. والناس قالوا لنا ده أحسن واحنا قلنا معلهش حانستنى، وماطاهرناهوش إلا بعد شهر من التفكير قررنا إنه طالع في هذا المجتمع، فيبقى زي أمثاله، حايبقى مختلف ليه؟ أنا ما أقدرش أخد له القرار بأنه يكون مختلف وما اعرفش إيه اللي حايحصل لما يكون طفل بيروح النوادي وأصحابه يعملوا فيه إيه ولا يألسوا عليه، ممكن كمان يتعب لأن ما عنديش تصور إن هذه الممارسة ستتغير في الجيل بتاعه فقلنا خلاص يتطاهر، رغم إننا كنا قلقانين، مين يعملها حتى لا تحدث مضاعفات، وقلنا يا رب ما تحصلش منها مضاعفات نفسية وخضنا التجربة» أما د. يارا فتصف الضغط الاجتماعي الذي تعرضت له كي تختن ابنها فتقول «لم أهتم بهذا الموضوع إلا عندما صار عندي ولد وطرح إننا سنعمل له عملية طهارة، فكانت تجربة مش سهلة. بغض النظر عن أي قَنَاعات أو مُعتقدات في الدنيا ما كنتش قابلة فكرة إن إبني البيبي الصغير حايتمسك يتكتف من غير بنج ومن غير أي حاجة وحايتألم وحايقطعوا من جسمه

حتة وهو صغير، ما كنتش قابلة الفكرة دي خالص. يعني مش عارفة إيه مُبرر أخليه يستحمل هذا، إيه ضرورتها، وإيه نفعها!!» ورغم عدم اقتناع د.يارا بالختان، إلا أنها خضعت في النهاية للضغوط المجتمعية «والله كلام الناس كتير بقى، إن حايبقى هو الشاذ الوحيد، وغير شائع في مجتمعنا إن ما حدش يعملها، فتحصل مشاكل نفسيّة لما يكبر ويلاقي نفسه الوحيد الشاذ بين بقية الأطفال، وإنه إشباعه الجنسي حا يبقى أقل، المختنين إشباعهم الجنسي أكثر، لأن الحشفة لما تتعرض وتتشال الجلدة اللي عليها بتبقى حساسيتها أعلى وأبوه طبعا وازن الأمور، أنا ما كنتش متشبثة برأيي، كل اللي كنت عاوزاه إنه لا يتألم، وما كنتش عايزة أعرضه لحاجة أنا مش فاهمة هي إيه قوي، ومش عاوزاه يبقى مختلف وتحصل له مشاكل زي ما كل الناس قعدت تقول لي، وباباه كمان» وتذكر د.يارا مصادر الضغط «أخواتي وماما وقرايب زوجي، وأنتي الوحيدة اللي كنتي بتقولي لي إوعي تطاهريه، ما سمعتش الكلام ده من حد تاني وكنت كمان باقرأ د.سبوك، وهو يهودي، كان بيقر الختان. قرأت طبعة سنة حاجة وتمانين من كتابه، ما كانش بيؤيد ولا بيرفض، كان بيتكلم على إن الختان حاجة بتتعمل. وإيه اللي ممكن يحصل معاها، ورعاية الطفل أثنائها، فلم أحس في كلامه بغضاضة»

يقول د.حسام أنه وزوجته لعبا دوراً متساوياً في أخذ قرار ختان ابنهما «أنا وزوجتي، ناقشنا الموضوع، وكنا عاوزين نقعد

معاكي وما خقناش، لأن الوقت كان بياخدنا، لقينا الولد بقى عمره شهر وبعد كدة المسألة حاتبقى أصعب» ولما سألته عن الأعراض أو العلامات التي جعلته يدرك أن ابنه في حاجة لجراحة عاجلة في عمر شهر قال «لم تكن هناك أعراض ولا علامات، كانت الفكرة إن عندنا معلومات إن كل ما نتأخر تبقى العملية أصعب» وتقول د.يارا عن دورها في قرار ختان ابنها: «أنا لم أرفض لكن أبوه هو الذي قرر، حتى أبوه تردد في وقت من الأوقات برضه» ورغم أن هذه العبارة توحي بمحاولة تصوير دورها في حجم أقل من دور زوجها، إلا أنها عادت فقررت تساويهما في تحمل مسئولية أخذ زمام المبادرة في الخطوات العملية لتنفيذ الختان «إحنا الاتنين شاركنا في المبادرة، هو قعد يدور على حد يعمل له العملية وأنا لأني اشتغلت أمراض نسا قلت له أنا أعرف دكتور بيعملها كويس كنا بنعملها، حتى أنا عملتها فعرفته بهذا الأستاذ في المستشفى بس أنا ما قدرتش أدخل وانتظرت في الاستراحة» ويحكي د.حسام الذي حضر العملية أن الطبيب لم يعط الطفل أي نوع من المخدر، علاوة على تجاوزات مهنية أخرى: «أنا كنت مُستاء جدًا من هذه العملية. زوجتي اختارت الطبيب لأنها عارفة إنه بيعمل طهارات كويس، رحت دخلت معاه كشك الولادات ودخل بهدومه وليس بملابس غرفة الجراحة ما تفتكريش إني مبسوط مما حدث. أنا مش بادافع أنا ما حبتش منظر هذا الجراح وهو داخل بملابسه

العادية، حتى لم يلبس قفاز عمليات ولا أوفرشوز [خف معقم] ودخلني معاه بملابسي العادية، إذا كان هو دخل كدة فأنا دخلت كده وبعدين بعد كدة الولد كانت الغلفة عنده ملتصقة جدًا برأس القضيب، فعملت نزف، والطبيب قال أنا عادة ما باخدش غرز لكن سأضطر لأخذ غرز، فإلى الآن شكله عامل فستونات حوالين رأس القضيب»

وعدا مُلاحظاته الذكيّة عن التجاوزات المهنية للطبيب الذي ختن ابنه، يحكي د حسام عن مشاعره ورد فعله لآلام ابنه أثناء الختان «كان الموقف فيه حاجة صعبة، ما بقولش إنها حاجة سهلة أنا شفت الطهارة وعارف قد إيه هي حدث مؤلم في حياة طفل صغير، لكني أحسست بالألم الشديد مع ابني. حسيت إنها صدمة أنا باقول لك إني مازلت أعتقد إن الختان قد يكون له أثر نفسي يا ترى ما الذي يمكن أن تسببه هذه الصدمة الشديدة التي يتلقاها الطفل في سن ٣ أيام؟» ويبرر وصفه للختان بالصدمة الشديدة «لأن فيه جرح، أنا طبعًا باقص وباقطع وباضغط بالجفت، والولد صرخ وانزعج، ومش عارف ده حايعمل إيه فيه» ورغم عدم وجود د. يارا داخل غرفة العمليات أثناء ختان طفلها إلا أن حالتها لم تكن أفضل من حالة زوجها: «كنت في الاستراحة بعيدة خالص ما أقدرش أسمع ما يدور في غرفة العمليات، لكن أنا عارفة العملية واللي بيحصل فيها، عملتها قبل كدة، ولولا كان حولي مجموعة زمايلي شاغليني طول الوقت

وبيقولوا لي ياستي كل الناس بيحصل لهم كدة، وحاجة بسيطة، لولا كده كنت ما اعرفش. كانت صعبة جدا علي»

ويقول د. حسام أن القلق لم يُفارقهما لمدة ٣ أسابيع بعد الختان لأن الطفل كان متألما ومضطربًا، أما د. يارا فقد قالت أن هذه الفترة القلقة كانت أطول من ذلك: «قعد لمدة شهر ونصف بعد عملية الطهارة في حالة مش كويسة، وما اعرفش حسيت إنه تغير جدا بعد الطهارة، وكنت باقول ياريتني سمعت كلام سهام. هو تعب وأنا تعبت»

يصف د. حسام حالة ابنه في هذه الأسابيع «كان أصبح عصبي جدًا وصار يبكي كثيرًا، وصارت حركاته عصبية جدًا، ساعتها أحسست إن جايز يكون أصيب بصدمة، وقلقت، وخفت، علشان كدة باقول لك أنا عايز أعرف أكثر عن هذا الموضوع» أما د. يارا، أم الطفل فتصف حالته كالتالي «اللي حصل له بعد الطهارة إنه بقى يعيط كتير جدًا، وما يستحملش، زي ما يكون مش مدِّي أمان للدنيا، زي ما يكون خايف» وعندما سألتها عن علامات الخوف، قالت. «بقى أي حاجة يعيط منها ويترعب منها يصحى من النوم يعيط، تسيبيه لوحده يعيط، تيجي تعملي له أي حاجة حتى لو مش حاتوجع يعيط، وفضل مدة تعبان، وبقى ينام أقل، وينام نوم متقطع، ويجيله مغص أو تخيلت إن بكاؤه خاص بالمغص» وقد أضافت قراءات د. يارا أسبابا لقلقها «بعد ما عملت طهارة لابني قرأت في كتاب مترجم

صفحة وش وضهر عن مضاعفات الطهارة، ومنها حاجات تخيلت إنها أصابت إبني، لأن كان معمول له غرز، وقعد ملتهب شوية بعدها، وكان الجلد مشرشر عامل فستونات كده بعد الطهارة، وكانت المؤلفة متكلمة عن أن هذا من المُضاعفات التي تظل معه مدى الحياة. يمكن لو كنت قرأت هذا الكلام قبل ما أعمل له الطهارة كنت عارضت جامد في إني أعملها له وانزعجت جدا بعد ما قريتها وقعدت مرعوبة كذا يوم وحاسة إني عملت في الولد ذنب كل المشاكل اللي تكلمت عنها المؤلفة حسيت إنها لها علاقة وثيقة بما حدث لأبني، وبعدين لأني حسيت إن الولد نفسيا تأثر، كان عادي جدا قبل الطهارة، وما كانش بيعيط»

ويُعزي د. حسام نفسه بتبريرات أخرى تنكر ربط هذه العلامات بالختان. «كان بيعيط أكثر فكان نومه مضطرب شوية، بس بعد كدة ما بقتش متأكد من هذا إنّما في هذه الفترة كنت قلقان قوي من هذا، وقعدت أقول يا ترى احنا فعلا عملنا مأساة وحايتأثر بها، بس بعد كدة قل هذا الإحساس عندي لأنه مش بالضرورة يكون مرتبط بالختان، لأن جت عليه مراحل بقى يبقى كويس ومراحل أخرى يتعب بدون ارتباط بحاجة إلا تقدمه في العمر فيبدو إنها مراحل نمو مش عارف» ولما سألته عما إذا كانت العصبية هي إحدى العلامات الطبيعية لنمو الطفل، ذكر احتمال ألا تكون هذه علامات عصبية أصلاً «احنا اللي بنعتبره عصبية، كان قبل كدة يبقى نايم ونصحيه يرضع وينام في الشهر

الأول، في الشهر الثاني بيصحى أكثر ويعيط أكثر فنقلق أكثر ونعتبره عصبية. جايز يعني حصلت مراحل أخرى فيها هذه العصبية. ولعلمك أنا خبرتي بالأطفال قليلة، فأحس طول الوقت إن هذا الولد عايزه يطلع كويس فكل ما تحصل له حاجة أبقى قلقان عليه» وتشاركه د. يارا نفس الرأي «ما اعرفش حتى في البحوث لما تقولي إن هذه العلامات بسبب الطهارة يعتبر ده مش صحيح لأن فيه عوامل أخرى داخلة في الموضوع لأنه بيكبر فبيتغير، يمكن فيه عوامل أخرى غيرته» وفي ظل هذا القلق الذي انتاب د. حسام ود. يارا على طفلهما كان من المنطقي ألا يحتفلا بختانه، إلاَّ أن الأقرباء قد اتصلوا بهما مهنئين بختان الطفل

سيف وعايشة:

يقول سيف أنه يتذكر تجربة ختان ولديه «اتطاهروا في وجودي. وكانوا صغيرين قوي. .لم أدخل غرفة العمليات، لكن كنت موجود في المستشفى» يقول سيف إن مسؤولية اتخاذ قرار الولدين مشتركة بينه وبين زوجته وبين الطبيب: «باعتبارها مسألة كلنا طلعنا عليها، أنا وأمهم أخذنا القرار. وفي المستشفى سألونا إيه رأيكم نعمل له ختان بالمرة قلنا ما فيش مشكلة. والابن الثاني وديناه لجراح بعد ٤ يوم» و تقول عايشة عن دور الطبيب في اقتراح ختان أحد ابنيها: «الصغير اتطاهر بدري لأن كان عنده مشكلة في التبول فالدكتور قال إن الجلدة سادة مجرى البول

فطاهرته شهر ونص» كما تقرر أن الطبيب لم يُحاول مُعالجة ابنها دوائيًا، ونصح مباشرة بالختان.

وتقول عايشة عن تجربة ولديها: «مع ولادي الاتنين كانت مأساة. حاجة مأساة، مهما الواحد حكى عنها ما تتوصفش. أولا صريخ يا ربي!!!! عمري ما حاسمع زيه. أصلاً ساعتها سِبت العيادة ونزلت تحت وجوزي اللي قعد وبعدين نزلوا ندهولي بعتوا لي الممرضة علشان أرضعه. دخلت لقيت جوزي ده وشه بفتة بيضا خالص، وابني وشه عامل زي عارفة الناس بتوع مجاعة أفريقيا؟ مش العروق بتبقى طالعة من وشهم؟ ووشه بفتة بيضا بيضا، وعينيه فيها مساءلة غير عادية، غير عادية لي، وطلعت صدري واديتهوله وأنا عمالة أبكي«. ولما سألتها عن المساءلة التي بدت لها في عيني ابنها قالت: «قال لي بعينيه إيه اللي انتي عملتيه في ده؟ إنتي مارحمتنيش. ما أقدرش أنسى إبني الاتنين أبدًا، كانوا فظاع وبعدين اديته صدري بقى يا عيني عمال يرضع وهو مش قادر، وهو باصص لي كدا هو بعينيه، ويسيب كل شوية صدري كأنه عاوز يكلمني. كانت مأساة يعني. كرهت نفسي، باختصار كده أنا يوميها في الإتنين كرهت نفسي»

ويتذكّر سيف حالة ولديه بعد الختان: «كل ما أفتكره إن كان فيه صريخ شديد وألم مع التبول لمدة يومين تلاتة بعدها» وتتفق معه عايشة في هذا، وتضيف أن ابنها كان قلقا خلال الأيام التي

أعقبت الختان. ورغم إدراك عايشة لقسوة تجربة ختان ولدها البكري، كررتها مع ولدها الثاني. وبررت هذا بأن أحدًا لم يثر الختان أمامها كقضية ذات بال، ومن رأيها أن مشاعر الضيق التي انتابتها لم تكن كافية وحدها لدفعها لمراجعة موقفها

ويتّفق سيف وعايشة في أن ختان الذكور يعتبر أمرًا عاديًا لا يستدعي احتفالاً، ولا يدعو للاعتراض، وبالتالي «لم نعمل أي احتفالات ولا طقوس. ولم تأتينا هدايا ولا تهاني ونفس الشيء يحدث مع بقية ذكور العائلة»

٣- مثقفون ومثقفات ذكروا خبرة مع ختان ذكر بخلاف أنفسهم أو أبنائهم

قال صلاح «أنا لا أحفل بحضور هذه الطقوس. مش في الوعي عندي وبعد تشجيعه على أن يتذكر قال. «افتكرت. ابن أختي. كان عنده سنة، ودوه لدكتور عمل له ختان، ما حدش ناقش ولا فتح الموضوع، خدوه لدكتور كشيئ مسَلَّم به، وفي نفس الوقت ما حدش اتكلم خالص عن إن أخته، بنت أختي تتختن». يفسر صلاح ما حدث لابن أخته بأنهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى وغير مشغولين بحقوق الإنسان. وقد أقاموا احتفالاً بسيطًا، يصفه صلاح بأنه كاحتفالات أعياد ميلاد الأطفال.

ويحكي سعيد عن خبرة بعض أقاربه ومعارفه مع الختان، ويعتبرها قصصا طريفة، فبعضهم استسلم للختان مثله، وبعضهم

حاول الهرب: «فـيه كدة وكدة. فيه عـيال هربت وجابوها وهي بتعيط مافيش قانون للموضوع. أنا فاكر عمي كان قوي جدا، كان بيثني العشرة صـاغ بإيده. قعدوا يطاهروه على ٣ مرات، كل مرة يقطعـوا حتة ويجـري يستخـبى يوم ولا بتاع ويجيـبوه تاني قعدوا يطاهروه ٣-٤ أيام حتى تم الطهور، كان عنده ١٤-١٥ سنة وكان قوي جدًا لكن كـان خايف من الألم رغم قوته الشديدة، وصارت من النوادر في البلد إن عمي ده قعدوا يطاهروه ٤ أيام»

ويقُولُ د. فهمي أنه نشأ في حي شعـبي ويعي الفرحة الشعبية بالختان، ويقول أنه شاهد مواكب مثل التي عبر عنها صلاح جاهين في أغنية «يا أم المطاهر رشي الملح ٧ مرات»، حيث يرتدي الطفل جلبابا أبيض، ويركب عربة حنطور يُصاحبها طبل وزفة في الشارع وعـادة ما يختن ٢-٣ أولاد مـعـا ويقـول أنه لم يحظ بمثل هذا الاحتفـال الذي يقام للأطفال الأكبـر سنًا، حيث أنه ختن في سن أسبوعين، لكنه يـذكر أن الأسرة احتفلت بختـان شقيقـه الأصغر الذي كان في الثـالثة من عـمره بيد طبـيب أحضـرته الأسرة إلى البـيت: «أعطى له بنج مـوضعـي. كنت وقتـهـا عندي ١١ سنة وفاكر. صرخ كثير طبعـا، وكان بابا وعمي ماسكينه والدكتور كان جايب تمـرجي، وعملهـا له في أودة الصالون وكـان مقعـده على ترابيزة في الوسط نيمـه عليها بعد رفع كل ما كان عليـها، وثبتوه عليـها، والواد عـيط وسورق وبعـد ما لفه مـاما جت أخـذته في حضنها وقـعدت تطبطب عليه، والطبيب كتب لها حـاجة علشان

الوجع وقال لها لكن بعد ما حايتبول حتلاقيه بقى كويس. قعد يومين تلاتة يمشي مفرشح رجليه. أول مرة تبول قعد يصرخ. وتاني وتالت مرة وبعدين خلاص» وقد أخبرت الأسرة هذا الطفل بأنه سيختن، فخاف، وبكى، وحاول الهرب: «كنا ساكنين في الدور الأرضي وملحق بالسكن جنينة، فهرب واختفى في الجنينة لما جه الدكتور وفاكر كان عندنا خدام دور عليه وجابه وهو بيعيط» لكن هذه المحاولات والمشاعر لم تغير موقف الأهل. يبرر د. فهمي هذا بأن خوف الطفل من الختان أمر عادي لا يؤثر في الأهل. «بالضبط زي صريخ الأم وهي بتولد. عادي إنها تعيط وعادي أن أهلها ما يخافوش من عياطها» ولم يتطوع أهل د. فهمي بتفسير سبب الختان للأبناء، ولا الأبناء سألوا بدورهم. ويقول د. فهمي عن قرار الختان: «دي من الحاجات اللي بتبقى اقرب للمتفق عليه، زي لما يبقى الطفل عمره ٦ سنين صعب تقولي من أخذ قرار إنه يدخل المدرسة» وقد احتفلت الأسرة بختان هذا الابن بعد مرور أسبوع. يصف د. فهمي الاحتفال: «ماما جابت أبريق وحطته في صينية، زي بتاع السبوع بيجيبوه من سيدنا الحسين، وحمص، وكانت جدتي الله يرحمها موجودة أدته فلوس، وحمص وسوداني ولب وكرملة وكان لابس جلابية بيضاء، والمهنئين قالوا له خلاص، إنت كبرت دلوقتي وبقيت راجل وهو طبعا مش فاهم. ومن تقاليدنا في أي مناسبة يعملوا فتّة ولحمة بعضمها مسلوقة ورز بلبن. ففاكر إنهم عملوا

كدة وبعتوا منه للجيران. اللي أنا فاكره كويس إن ده زي ما يكون طقس تدشين، إدخال في عالم الذكورة»

وتذكُر د. يارا ختان أخيها الأصغر فتقول: «تعب جامد. اتطاهر عند دكتور ببنج وتعب جامد، كان عنده ٦ سنين. كانت عملية تعذيبية، فضل الجرح لمدة شهر ملتهب وتاعبه. كان عارف إنه حيتطاهر، قالوا له قبلها، وقالوا له إنه حياخد بنج ومش حايحس بحاجة كان خايف، لكن خوفه ما أثرش على قرار أهلي بختانه، وهو كان طفل هاديء بطبعه ما عملش مشاكل كثيرة لكن تعب بعدها» تقول د. يارا أن أباها هو الذي أخذ مبادرة ختان أخيها، وأن أمها وافقته تمامًا، فالموضوع من المسلمات التي لا نقاش فيها تقول د. يارا أن الأسرة لم تقم حفلا بمناسبة ختان الأخ، لكن الأقارب زاروه وأهدوه شيكولاتة ولعبا وقالوا له «مبروك بقيت راجل»

وتحكي نهال خبرة شخصية مع ختان ابن صديقتها، وأبناء شقيقاتها: «بيبقى عمرهم ٤ يوم. بيعيطوا على طول ويبقى فاتح رجليه، وابن صاحبتي العياط الكثير بسبب الختان سبب له فتاق. ولاد اخواتي عياط على طول وكل واحد حسب احتماله، واحد جرحه لم بسهولة وواحد أخد وقت. ومش سهل يتبولوا وبيتعبوا ويعيطوا مع كل تبول. بس. مش أكثر من كدة» وتقول عن مشاعر هؤلاء الأولاد: «معروف أو يقال أن الأطفال لا يحسون ولا يقدروا على القول عملتوا ليه فينا كدة. باعتقد لو بنقول إن

الجنين لو بيشعر من وهو في بطن أمه، أعتقد ما فيش خبرة بتتكون في جهازه العصبي ما بينساهاش. فأعتقد بيفضل في ذاكرته» وتقول نهال أن الأهل يأخذون قرار الختان وينفذه الطبيب في المستشفى، وأنّهم يختارون ختان الطفل بعد أسبوع من ولادته باعتقاد أن إحساسه أقل، ولأنه يبكي كثيرا على أي حال، فلن يضيره بعض البكاء الإضافي بسبب الختان. ولا تحتفل أسرة نهال بختان الذكور، كما لا يعترض عليه أحد، بل قد يشجعون الأم على تختين ابنها الرضيع تقول نهال أنها هي نفسها ألحت على أختها كي تبكر بختان مولودها وتبرر ذلك بقولها: «لأني عارفة أنه لابد حايتطاهر ومش عاوزاه يتعذب. يعني مش عايزاه يبقى كبير، وفكرة إنه طري [أي أن أنسجة جسم المولود تكون طرية] فجرحه يخف أسرع»

وكانت نوسة تلميذة بالمدرسة الثانوية عندما شاهدت للمرة الأولى في حياتها صورا لطفل يختن: «معلمتي في ثانوي أحضرت صور سبوع حفيدها ووالده الطبيب بيطاهره، اشمأزيت لأن الصورة فيها دم والواد صغير وقلت إيه ده. وقتها صدمتني الصورة لأنها مقرفة ودموية ولم أفكر أكثر من ذلك» أمّا في أسرتها فالختان للذكور أمر مُسلَّم به، يجريه الطبيب بالمستشفى بعد ولادة الطفل. لكن نوسة بدأت تفكر في موضوع ختان الذكور بجدية للمرة الأولى عندما أنجبت صديقتها المقربة ولدًا، وحكت لها أن الطبيب ختنه دون حتى أن يستأذنها أو يستأذن والده.

وتُروي د. سلمى خبرتها مع ختـان ابن صديقتها: «كان عنده ٤ يوم. . فاكرة إن كـان فيه وجع جامـد مع الغيار وأمه بتـبقى متألمة وهي بتـغير له وهو بيصرخ، وكـان بـيرضع أكثـر من اللازم وما بينامش بالليل» وقـالت د. سلمى أن أحد معارفـها لم يختن ابنه، ليس لأنه قـرر هذا، بل لظروف تطرأ كلما عـزم على أخذه لتختينه، كأن يمرض الطفل، أو ينشغل أهله بموضوع طارئ. تقول د. سلمى أن أم هذا الطفل ليست مُصرّة على ختانه، لكن أباه يميل إلى إجراء الخـتان له، لكنه مـتردد بعض الشيء لأنه حـصل على بعض المعلومات عن أضرار الختان.

وتتـذكر د. منـى تجربة خـتـان جارها «وأنا طـفلة كـان لنا جيران عندهم إبن فـاكـرة إنه اتطاهـــر وهـــو شاب كبـير بعد البلوغ بكثيـر، وكان معـروف في الشارع كله إن فـلان ده متطاهر دلوقتي»

أما د. أفكار فـتحكي تجربة أخـيها الأصـغر «كان عـمره ٣ سنوات. كل اللي فاكـراه شكله وهو لابس جلابيـة بيضا وطاقـية ومستخبي ورا الدولاب- وكان مـتعود يقعد في المكان ده، كان له ركن يحب يقعـد فيه- وكان حـاسس بتوتر وبيحاولوا يخـرجوه. وكان بيصرخ وبيحاول يهرب» ولما كبرت كنت باقول معقولة ماما سابت أخـويا لحد سن ٣ سنين من غـير ما تطـاهره، عادة الناس بتطاهر في سن شهر أو شهرين

٤- أطباء وطبيبات استعادوا ذكرى أطفال ختنوهم أو حضروا ختانهم كممارسين لمهنة الطب

مُعظم الأطباء والطبيبات الذين قابلتهم ختنوا أطفالا بأنفسهم، أو شاهدوا بيانًا عمليًا بختان أطفال. د. سلمى هي الوحيدة بينهم التي لم تختن أطفالاً ولم تشاهد الختان يجرى أمامها، لأنها تخشى الجراحة، وحتى أثناء مدة الشهرين الإجباريين في قسم الجراحة أثناء فترة الامتياز كانت تتطوع بالذهاب إلى بنك الدم، وبذلك لم تمسك في حياتها بأي أداة جراحية. أما بقية الأطباء والطبيبات الذين أجريت معهم حوارًا فإما رأيهم ختنوا أطفالاً بأيديهم، أو لم يفعلوا ذلك لكنهم حضروا تدريبا على الختان.

أ) أطباء حضروا تدريبا على الختان لكنهم لم يجروه بأيديهم:

د. حسام متخصص في أحد فروع الأمراض الباطنة، وهو يبرر عدم إجرائه لعمليات ختان أثناء ممارسته الطبية بأنه لم يكن يحب الجراحة بوجه عام، وأقصى ما مارسه من فروع الجراحة توليد النساء بالتّالي لم يجر د. حسام عمليات ختان بيديه، لكنه شاهدها أثناء فترة تدريبه كطبيب امتياز. وبسؤاله عن رد فعله لما شاهده قال «طول عمري حاسس إنها حاجة صدمية جارحة. بس لم يكن لي موقف منها» لكن إحساسه بالطبيعة الصدمية الجارحة للختان لم يكن هو سبب امتناعه عن عمله للأطفال، فمبرره هو عدم هوايته لفرع الجراحة، حتى الجراحات التي لم

يدرك أنها صدمية، ويعزف أنها ضرورية لإنقاذ المريض، مثل استئصال الزائدة الدودية الملتهبة، التي يندر ألاَّ يمارسها أي طبيب حديث التخرج لم يمارسها د. حسام.

وتقول د. ليلى أنها رفضت رفضًا باتًا بالفطرة إجراء عملية الختان للأطفال أثناء تدريبها «ما قدرتش» وتستطرد في تذكر هذه الفترة من حياتها فتقول: «إنتي عارفة في الامتياز ما حدش بيدرب جد. وجزء من رفضي لأني أعملها إني ما كنتش مدربة كويس. أنا ما أقدرش أعمل عملية إلا لما أتقنها» لكنها حضرت مشاهدة عملية للختان، تقول عنها: «فظيعة.. فظيعة. فظيعة. وأصل مين بيعمل الختان؟ شوية دكاترة شباب لا يفقهوا شئ أنا مش عارفة إزاي المجتمع ساكت. أنا مندهشة». وتصف د. ليلى مشهد الختان الذي أدركته بوصفه فظيعا كالتالي «الأولاد بيبقى عمرهم أسبوع أو أسبوعين. وحتة دكتور حمار صوابعه تخينة وماسك المقص ومش عارف يمسكه وقاعد يقطع أنا شفت مناظر فظيعة. ما قدرتش. [وكررتها باللغة الإنجليزية بانفعال] وما عملتش أبدا ختان لا إناث ولا ذكور، بالفطرة. لاحظي إني لما تخرجت ما كنتش عارفة بالضبط إيه اللي بيحصل. وعيي ما كانش مكتمل، بس رفضت وحسيت ببشاعة العملية. فظيعة. سواء دي أو دي. وحسيت إن ختان الذكور بشع ومؤلم» وتستطرد في وصف رد فعل الولد الذي يجري ختانه: «رد فعله صريخ. الولد يا عيني بيصرخ زي أرنب بيدبحوه. أرنب

بيندبح دبح. ودوكها ماسك مقص ومش عارف بيعمل إيه. حتى مرة اتخانقت مع واحد زميلي امتياز ماسك مقص وبيعمل ختان، وأنا باقول له مش كدة! ما بيتعملش كدة. لقيته بيخرم على رأس القضيب، والولد ياعيني من غير بنج. والدكتور عمال يحفر والدم بينزل، أنا كان حا يغمى علي. شئ بشع. بشع عملية بشعة. وبالفطرَة أنا رفضتها ختان الإناث بشع برضه، شفته واتقاييت» ولما سألتها عما إذا كان الولد الذي يختن والذي وصفته بأنه كالأرنب المذبوح في حالة كحالة البنت التي تختن أم أن ألمه أقل منها ردت: «والله كان أكثر أهم زي بعض. .زي بعض بشاعة الألم زي بعض» فلما سألتها هل سيكون الختان أقل فظاعة لو أجراه طبيب ذو رتبة أعلى أم أنه فظيع مهما كان من يجريه قالت. «لأ، مش حا تبقى بالفظاعة دي. على الأقل الدكتور الكبير حا يبقى عارف بيقطع إيه دا انتي تبصي تلاقي واحد حمار كده عمال بيقطع في لحم الولد»

ود.منى لم تختن أولادًا خلال ممارستها الطبية هي الأخرى. وقد أخذت هذا الموقف تلقائيا كجزء من موقفها العام الرافض للعنف ضد الأطفال: «ما اعرفش شئ مرعب بالنسبة لي إني أمسك طفل صغير وأقص حتة من جسمه، شئ مرعب» لكن د.منى حضرت تدريبا على إجراء الختان للذكور وما زالت تتذكر هذه التجربة وتحكيها كالتالي «كان طفل صغير قوي عمره حوالي أسبوع، صغير جدا الأول الدكتور كان بيرجع الغلفة لورا،

وبعدين يشدها لقدام خالص وبعدين يروح قافل عليها بالجفت. طبعًا البيبي يا حرام صرخ وحاجة تموت يعني. بس، بعد كدة ما عملتهاش»

ود. أفكار لم تختن أطفالاً بيديها أيضًا، وتقول: «لم أكن أحب الجراحة ولم أهتم بتعلُّمها شاهدت جراحات عامة قليلة جدا عندما اضطررت لمساعدة الأخصائي أحيانا»

ب) أطباء أجروا عمليات ختان ذكور بأيديهم:

بعض هؤلاء الأطباء أجرى عددًا قليلاً من عمليات الختَان، وهم د. حازم، ود. خديجة، وبعضهم أجرى عددًا كبيرًا من عمليات الختان، وهم د. نادر، ود. نظمي، ود. فهمي، ود. يارا

لم يتخصص د. حازم في الجراحة، لكنه أجرى ختانا لولد مرة واحدة أثناء تدربه في فترة الامتياز يحكي د. حازم هذه التجربة: «كنت امتياز وكنت فرحان جدا إني باعمل طهارة، وكان معي نائب وعملتها. كان الطفل بيبي. عمره أيام على ما أتذكر» ولما سألته عما إذا كان الطفل الذي ختنه قد أتى به ذووه للعيادة بأعراض أو علامات مرضيّة مُعيَّنة دَفَعت النائب لاتخاذ قرار ختانه أجاب بالنفي.

تخصّصت د. خديجة في أمراض النساء والتوليد، وتقول أنها ختنت بيديهًا عددًا قليلاً جدًا من الأولاد لأن الختان كان جزءًا من التمرين على الجراحة، لكنها لم تمارسها إطلاقًا بعد ذلك. وتقول

أيضًا أن الأولاد الذين ختنتـهم لم يكونوا يشتكون من أعراض ولا تظهر عليهم علامات مرضية، إذ كان أهلهم (أو بالأحرى أمهاتهم حسب وصف د. خديجة) يأتين بهم للعيادة طلبًا للختان التقليدي. «تيجي الست تقول عاوزة أطاهـره، فنفحصه الأول، لكن للأسف ما كناش بنعمل تحليل دم قبـل ما نطاهرهم. ولما حصلت حوادث كانوا بيـقولوا لازم الأول تحليل دم للولد علشان مـا نحطش نفسنا في مشـاكل كنا بنعملها تحت إشـراف النائب، بدون تخدير الولد بيبـقى عمـره أسبوعين تلاتة، وبيـبقى رد فـعله صراخ على طول، صراخ صـراخ صراخ كان مـتألم ولو أنه لن يتـذكر هذه التجـربة فيـما بعد» ولأن د. خـديجة عـبرت عن إدراكـها للألم الشديد الذي يعانيه الطفل أثناء ختانه سألتها لم قبلت إجراء عملية الخـتـان لعـدد من الأطفـال ولم تتـوقّف بعـد الطفل الأول الذي أدركت ألمه، فقالت أنها رغم عدم حبها لهذه العملية كان عليها أن تجري عـددا منها في اليوم الذي يوكل إليهـا فيه إجراء الجـراحات الصغرى في عيادة لجـراحة بصفتها طبيبة امتـياز فلما أنهت فترة تدريبها لم تعملها بعد ذلك بسـبب ما شهدته من ردود فعل متألمة للأطفال

لم يتـخـصّص د. نادر في الجراحـة، لكنه ختن الكـثيـر من الأطفال في فتـرة امتياز التدريب. لم يكن الأطـفال الذين ختنهم د. نادر يشكون من شـئ على الإطلاق. كـانوا على حـد قـوله: «أطفال حديثي الولادة وأهاليهم جـايين من غير شكوى علشان

يُطاهروهم في عيادة الجراحة التابعة للمستشفى» لم يتذكر د. نادر تفاصيل ردُود فعل الأطفال الذين ختنهم «وأنا طبيب امتياز، كان بيبقى فيه عشرات من الأطفال و٣-٤ أطباء كل واحد يعمل حالة على طول على طول والمريض يمشي بعدها فورا. والطفل كان بيعيط طبعا، مش الإجراء بيجرحه؟ لكن لم يكن عندي أطفال كبار أقدر آخذ منهم مشاعر ببيي بيعيط من إجراء جراحي بيتعمل له»

ختن د. نظمي الكثير من الأطفال الذين قام بتوليد أُمهاتهم، دون أن تكون لديهم شكوى مرضية: «إحنا بنطاهر الأولاد بعد الولادة عادة ب ٣-٤ أيام .و ما فيش اي مشاكل»

ختن د. فهمي الكثير من الأطفال أثناء تدربه في فترة الامتياز، ويقول أنها عملية سهلة فلما سألته سهلة لمن؟ قال. «للدكتور الصغير الذي يجريها» أما بالنسبة الولد الذي يجرى له الختان فيقول د. فهمي أن العملية ليست سهلة «لأ طبعا بيصرخ ببيي عنده ٣-٦ شهور. لكن منعونا نعملها لطفل تعدى ٦ شهور لأنه القضيب بيكون كبر وممكن يحدث نزيف. وكنا بنعملها بجفت العظم. وفيه نوع تاني، بعد جفت العظم نعمل غرزة، وتبقى عملية يعني بعد القطع يبقى فيه جلد وتحته نسيج ضام، وكنا نخيطهم» ويعترف د. فهمي بأن المخدر الموضعي الذي كان يعطيه للأطفال لم يكن مؤثرًا، ويصفه كالتالي: «البتاع الخايب ده اللي انت عارفاه. وهو خايب لأن مش متصور إنه بيخدر كويس» ثم

قال أن معايير حكمه على عدم فعالية المخدر أتت من ملاحظته لأن الطفل يشعر بالعملية، وإن كان بدرجة أقل، وأن بعض الأشخاص يُكبِّلونه كي يتمكن الطبيب من قطع غلفته: «طبعًا بيبقوا مكتفينه وراكبين عليه وحاجات زي كدة» وقال د. فهمي عن رد فعله لردود فعل الولد الذي يختنه: «وقتها كنت لسه باحاول أتعلم حاجة جديدة. مش متصور إني كنت متعاطف معه ولا حاجه. كنت فرحان بأني باتعلم حاجه جديده، فما كانش عندي أحاسيس إشفاق على الطفل ولا حاجة، خصوصا إننا كنا بنضع فورًا شاشة بتاعة يود وتأخده أمه في حضنها يسكت ما كنتش باحس إني باعمل جزارة. وكنا نتباهى بقى. أنا النهاردة عملت ١٥ أو كذا، وما شديتش الغلفة بحيث إنه ما بقاش فيه منطقة عارية بين نهاية رأس القضيب وبقية جسم القضيب»

د. يارا أخصائية أمراض نسا وتوليد، وقد قالت أنها كثيرًا ما ختنت المواليد الذكور بعد فترة قصيرة من ولادتهم، وأحيانًا بعد شهر أو شهرين، وأن جميع من ختنتهم لم تكن لديهم أعراض ولا علامات مرضية، وأنهم كانوا يصرخون، لكنها لم تكن تتراجع عن إجراء الختان بفعل صراخهم أو حتى تفكر في تخديرهم لحمايتهم من الألم: «أنا عملت هذه العملية وأنا لسة صغيرة، ما كنتش لسة اتخصصت أمراض نسا، كنت فرحانة بفكرة إني أقدر أعمل جراحات. وكنت مقتنعة إن لازم الطفل ده تتعمل له هذه العملية، وإن خطر شوية عياط أحسن من خطر إن

طفل في هذا السن يأخذ بنج كلي علشان تعملي له عملية، وإن التغذية العصبية لجسم الطفل مش شديدة زي الكبار، وإنهم بيعيطوا خوفا من التكتيفة بس وليس إحساسا بالألم. فهذه مجموعة قناعات كانت بتخليني أبقى مركزة أكثر في إيدي اللي بتشتغل، إني ما أغلطش، وإني أعملها مضبوطة بالمقاسات الصح ما يكونش حاجة زيادة ولا حاجة ناقصة، فيبقى مخي منهمك خالص في شغلي» ورغم اعتقادها النظري بأن الأطفال لا يشعرون بالألم بنفس درجة شعور الكبار به، إلاّ أن الخبرة الملموسة أرتها غير ذلك، لكنها كان لديها تفسير مختلف لصراخ الطفل، فصلته ليناسب النظرية التي درستها عن حاسة الألم لدى الأطفال «كانوا بيعيطوا طبعًا بس احتمال من التكتيفة»

٥- درجات ختان الذكور من واقع تجربة المثقفين/المثقفات

من المتّفق عليه تصنيف ختان الإناث إلى درجات أربع، وفقًا لكمية الأنسجة المقتطعة ولا يستند هذا التصنيف على وصف جراحي كمي مقنن أكاديميًا، بل هو مجرد تصنيف وضعه المهتمون والمهتمات بمكافحة ختان الإناث لتيسير وصفه كظاهرة قيد البحث. ولا يوجد تصنيف مُقابل متفق عليه لدرجات ختان الذكور. ومن ملاحظتي الشخصية للرجال الذين قصدوني لفحصهم في عيادات الجراحة والأمراض الجلدية أثناء ممارستي لمهنة الطب لإصابتهم بأمراض كالفتاق والالتهابات الفطرية الجلدية وجدت اختلافًا في درجات الاستئصال التي أجريت لهم، بدءًا من مجرد قطع طرف

الغلفة، إلى استئصال تام لطبقتي الغلفة، وأحيانًا لجزء من جلد جسم القضيب. ذكر بعض المثقّفين/المثقّفات ملاحظاتهم على درجات ختان الذكور، لكن مُعظمهم -حتى المختنين أو اللاتي لديهن أولاد مختنين- لا يعرفون مقدار ما قطع من الغلفة بالضبط من واقع خبرتهم العملية. ومُعظم الأطباء لم يتمكنوا من تحديد درجات لختان الذكور، وعلى حد تعبير د.حسام، فالطبيب يقطع «على قد ما بيقدر» بعض الأطباء قالوا أنهم لا يستأصلون الغلفة بأكملها، ومنهم د.نظمي، الذي لم يحدد كما معينا لكنه قال أنه يقطع طرف الغلفة فقط وليست كُلّها، أما د.خديجة فقدرت ما تقطعه بمقدار نصف سنتيمتر بحيث يبقى منها جزء يغطي رأس القضيب. ولما سألتها لماذا لم تكن تقطعها بأكملها أجابت: «والله أنا كنت باعمل اللي النائب يقول لي عليه، زودي حبة، شدي شوية. لكن أطباء آخرين أفادوا بأنهم يقطعون الغلفة كلها حتى يبرز رأس القضيب ويصير بلا غطاء، مثلما أفاد د.نادر. البعض وصف أشكالا مختلفة بناء على تجربتهم الشخصية أو تجربة أولادهم. تقول د.منى «واضح إن فيه اختلافات في الموضوع وما فيش عليه اتفاق، بدليل إن في بعض الأطفال يبقى لسة عندهم جزء متهدل من الجلد وفي أطفال تانيين تحسي إن الجلد مشدود على الآخر على القضيب وشادد معاه القضيب». وتقول سامية: «أفترض أن الأطباء يقطعون معظم الغلفة» وتقول عايشة: «بيقطعوا الحتة المدورة اللي لافة كدة حوالين راس القضيب»

ويقول سيف: «أعتقد الكمية المقطوعة ممكن تفرق حسب السن أكيد الطفل المولود بيتشال منه أقل من الطفل اللي عنده ٦ سنين مثلاً نظرًا لأن حجم العضو بيتغير

٦- خبرة معرفة أشخاص غير مختنين

بعض المُثقّفين لديهم معَارف ذكور غير مختنين، ومُعظم هؤلاء المعارف أوروبيين. تقول سامية أن بين معارفها رجل يهودي أوروبي قرر أهله ألا يختنوه، وتضيف أن حالته الصحية عادية ومظهره العام نظيف، وهو متقبل نفسه على حالته الطبيعية تلك ويرى نفسه عاديًا.

وتعرف د. خديجة رجالاً أوروبيين غير مختنين وترى أنهم أصحاء، وتعتقد أن حالتهم الجنسية عادية، فهم متزوجون ولديهم أطفال. يتفق فتحي في الرأي مع د. خديجة بخصوص معارفه الأوروبيين غير المختنين، ويضيف أنه لم يُناقشهم في هذا الموضوع لأنه بالنسبة لهم ولفتحي شئ طبيعي لذلك لم تحدث مناقشة بشأنه. وهذا هو موقف سعيد ود. فهمي أيضا مع معارفهما الأوروبيين غير المختنين.

د. حسام هو الوحيد الذي قال أنه يعرف أصدقاء مصريين مقربين غير مختنين، وهو يراهم عاديين من ناحية الصحة والنظافة والحالة الجنسية. أحد هؤلاء الأصدقاء (وهو رجل مسيحي) باح للدكتور حسام بمعاناته من اضطهاد زملائه في المدرسة. ويري

د. حسام أن هذا الصديق قد تعرض لصدمة وسط تلاميذ الفصل بسبب اختلافه، ليس فقط في عدم الختان، بل أيضا في الديانة. سألت د. حسام، لِم لَمْ يلجأ هذا الصديق إلى إجراء ختان هربًا من اضطهاد زملائه، ففسر هذا الموقف بقوله: «غالبًا لأنهم فعلوا هذا في إطار عدم قبول اختلافه الديني عنهم، فهو لن يستطيع الكف عن أن يكون مسيحيًا ولا أن يغير اسمه، فالختان جزء من هذا»

د. نظمي ختن الكثير من الأطفال أثناء ممارسته لمهنة الطب، وهو يرى أن النظافة الشخصية في حالة وُجود الغلفة صعبة والختان يسرها، لأن من وجهة نظره، إذا لم تنظف الأم الطفل الصغير إلى أن يكبر وتعلمه، وإذا لم يستحم كل رجل ويغتسل وينظف نفسه، إذا أهمل الذكر في هذا وكانت الغلفة ضيقة، غصبا عنه سيحدث تراكم للإفرازات وقد تسبب التهابات. فلما سألته إن كان له معارف غير مختنين وإن كان ما قاله ينطبق عليهم أجاب بأن له معارف أوروبيين غير مختنين وعلى حد علمه لم تحدث لهم هذه الاحتمالات التي ذكرها، وقال أن رأيه فيهم، كرأيهم في أنفسهم، عادي جدا من الناحية الصحية. فلما سألته تفسيرًا للتناقض بين كلامه النظري والخبرة العملية لمعارفه غير المختنين رفض الإجابة وطالبني بعمل بحث أفحص فيه كل الذكور غير المختنين وأحسب نسبة الالتهابات بينهم وبين المختنين.

وقد تَصَادَف أن مجمُوعة من المثـقفات والمثقفين الذي قابلتهم يعرفـون جميعـا طفلاً (سنسمـيه سمـسم) وهو طفل في المدرسة الابتدائية، مـن أبناء أحد أصدقائي المقرّبين، ووالـده صديق أيضًا لعدد ممن قـابلتهم وتحاورت مـعهم أثناء بحثي الميـداني. كنت قد تحدثت مع صـديقي عن عدم ضرورة الختـان عندما ذهبت لتهنئـته بولادة سـمـسم، كـمـا أفعـل مع كل من ينجب من أصـدقـائي وصديقاتي. استجاب صديقي، ولم يختن سمسم، لكنه إلى الآن قلق وليس متـأكدا من أنه تصـرّف على أفضل نَحْوٍ مُـمْكِن. وقد ذكر أكثر من واحـد وواحدة سمسماً كأحد المَعَـارِف المصريين غير المختنين.

سامية ممن يعرفون سمسم، وهي تعتقد إنه «ممكن يطلع متعقد شوية» تعرف حورية سمـسم أيضا، وترثي لحاله لأنه يخجل من التبول أمـام زملائه د. سلمى تعرف سمـسم هي الأخرى، وترى أن لديه مشكلة خـجل زائد من خلع ملابسه أمام الآخـرين بسبب عدم خـتانه، وتحكي أنه حين غابت أمـه في سفر وكان على بقـية أفراد الأسرة العناية به كانوا يجـدون صعوبة في جعله يوافق على أن يصحبـه أحدهم أو إحداهن إلى دورة المياه، فـحدث له ارتداد للتـبوّل على نفـسه بسـبب خجله من اخـتلاف مظهـره عن بقـية الأطفال. وعايشة ممن يعرفـون سمسم أيضًا، وهي تراه ولدًا عاديًا من جهة الصحة والنظافة، وتصفه بأنه «عادي ولد زي العسل لذيذ جدا ولطيف جدا» تعتـقد عايشة من ملاحظتها السـريعة لسمسم

أنه لا يبدو عليه الضيق، ورغم أنها لم تناقش والده في الموضوع، إلاّ أنها تعتقد أن السبب في نجاة سمسم من الختان اقتناع أبيه بأن الختان لا لزوم له إطلاقا.

٧- خبرة رؤية أعضاء تذكير في حالتها الطبيعية بلا ختان

معظم المثقّفين/المثقّفات لم يروا ذكوراً بالغين غير مختنين، لا في الواقع ولا في الصور. حتى الأطباء منهم الذين فحصوا الكثير من الرجال أفادوا بأن كل مرضاهم كانوا مختنين. انتبهت د. يارا إلى أن التماثيل اليونانية القديمة تمثل رجالاً غير مختونين، لكنها لا تقدر على تخيل ذكر حي غير مختن، ولا تتصور كيف يمارس الجنس مع وجود الغلفة

بعض المثقّفين/المثقّفات سافروا إلى الخارج وهناك لاحظوا الفرق بين المختنين وغير المختنين في الواقع عاش مصطفى في سن المراهقة في إحدى دول أوروبا، ويقول: «طبعا في الأول كنت مستغرب إن مش كلنا شكل واحد، وكان رأيي إن شكلنا أحسن منهم»

وحين سافر د. حازم في بعثة علمية إلى الخارج لاحظ أن الرجل الذي يعلن عن نفسه في إعلانات الجنس يقول أنه مختن نظيف (ونطقها باللغة الإنجليزية: كلين كت) بمعنى أن هذا جزء جمالي في وصف عضوه وبالتالي المزيد من الجاذبية الجنسية. لم ير د. حازم قبل ذلك أعضاء تذكير في حالتها العادية، ويعلق قائلاً

«إنه حتى كتب التشريح لا توجد بها غلفة لأنها تنشر صورة القضيب مختنا» يفسر د. حازم غياب الغلفة من كتب التشريح بان كتب الطب متأثرة بثقافة معينة وتحيّزات «مثل ما تجدي أن الإنسان في الطب هو الذكر البالغ الذي يبلغ وزنه ٧٥ كيلو»

د. حسام سافر إلى الخارج أيضًا، ويقول عن ملاحظاته: «طبعًا غير المختنين كثير في الخارج، وشكلهم عادي، مجرد مختلفين، إنما باتكلم عن نفسي، لو بصيت لنفسي وتخيلت نفسي كدة حاستغرب نفسي، يعني لو تصورت نفسي أشقر مثلا ممكن جدا أشمئز من نفسي باتكلم عن نفسي أنا مش عن حد تاني.

وكما ذكرنا سلفا، شاهد أبو الفتوح أفلامًا أجنبية فيها ممثلين عراة غير مختونين وكان رد فعله تجاههم مماثلا لرد فعل د. حسام ومصطفى، أي أن مظهر المختن أفضل. وشاهدت د. أفكار فيلمًا مماثلاً وأثار مظهر الممثل غير المختن تعجبها

وننتقل بعد أن استعرضنا خبرات المثقّفين/ المثقّفات مع الختان إلى استكشاف اتجاهاتهم الحالية والمُستقبلية نحوه.

❁ ❁ ❁

الفصل

السادس



والآن... ما موقفكم؟

اتجاهات المثقفين / المثقفات نحو ختان الذكور

(١) اتجاهات المثقفين قبل أن يعرفوا أي معلومات جديدة عن الختان

أولاً: مدى التمسك بختان الذكور

لاستكشاف مدى تمسك المثقّفين/ المثقّفات بختَان الذُكُور وجهت إليهم سؤالاً عن اعتقادهم النظري بمدى ضرورة الختان للذكر، وسؤالاً عن موقفهم العملي تجاه من قد يرزقون بهم من بنين في المستقبل معظم المثقّفين/ المثقّفات عبروا عن حيرة، ولم يحسموا أمرهم بشأن ختَان أي ابن ينجبونه في المستقبل. قليل منهم هم من حسموا الموضوع لصالح الختَان أو عدمه. ولا ترتبط نوايا المثقّفين/ المثقّفات نحو ختَان أبنائهم بالضرورة برأيهم النظري في الختَان، فبعض من حسموا أمرهم نظريا بعدم ضرورة الختَان متحيرون بشأن التصرف العملي السليم الذي ينبغي عليهم أخذه نحو الأبناء.

يرى بعض المثقّفين/ المثـقّفات أن ختَان الذُكُور غـير ضروري. ومنهم صـلاح الذي يرى أن الختَان ينـبع من مجرد أفكـار تعارف عليها الناس، ودليله أن الرجال غير المختنين قادرون جنسيًا يقول صلاح أنه لو أنجب ولـدًا فلن يختنه، لأن الأبوين مـسؤولان عن المحافظة على الطفل سليمًا حتى سن ١٨ سنة مهما كانت الضغوط التي يتعرضان لها لتختينه، وبعد هذا السن، للولد الحرية أن يفعل بجسده ما يشاء

و يبني فـتحي اعـتقـاده بعدم ضـرورة الختَان علـى أَنَّ وجود الغلفة لا يستدعي تدخل الأهل نيابة عن الطفل الذي لم يصل بعد لعمر يمكنه من أن يقـرر لنفسه، فهذا اعتداء بلا مـبرر على سلامة جسـد الطفل. وقد تحـدث فتـحي وزوجتـه أثناء حملهـا في هذا الموضوع بالفعل، واتفقا على ألاَّ يختنا المولود أيّاً كان جنسه. وقد

عرفت د. منى مؤخرا بعض المعلومات عن تركيب ووظائف الغلفة، وهي الآن تعتقد أن الختان غير ضروري، وتشعر بألم لأنها ختنت ولديها وقت أن لم يكن عندها هذه المعلومات، ولو رزقت بولد في المستقبل فلن تختنه.

أما دينا فلا ترى الختان ضروريًا، لا سيما بعد تجربة ابنها البكري التي عرفت منها إن الختَان ضار بالولد كما هو ضار بالبنت، على الأقل نفسيًا، وبذلك صارت أكثر تصميمًا على عدم تختين أي ابن آخر تنجبه

أما دليل مصطفى الذي يرى نفس الرأي، فهو أنه لو كان الختان ضروريًا لتمسَّك به كل الناس، لكنه يعلم أن قسما كبيرا جدا من الجنس البشري مقتنعُون بعدم جدواه ولا يجرونه لأطفالهم، ويقول أنه لو أنجب ولدًا فسيحتاج لمزيد من الاطلاع على مواد علمية تقنعه بألاَّ يختن الولد بحكم العادة.

وترى عايشة أنها بعد أن فكرت في الموضوع وجدت أن الزعم بضرورة الختَان أتى من التعود على رؤية الأطفال الذُكُور مختنين، وعدا ذلك لا ضرورة للختَان. لكنها قالت أنها رغم هذا الاقتناع النظري، ورغم مرورها بأزمة كرهت فيها نفسها عند ختَان ولديها، لو رزقت بولد الآن ستختنه ليصير كأخويه، وهي على استعداد لأن تمر بنفس الأزمة مرة أخرى في سبيل ذلك.

وترى نوسة أن لفظ طهارة غير دال على طبيعة ما يحدث في الختـان، لأنه لا علاقة له بالنظافـة والصحـة وليس له أي معنى. نوسة في حيـرة ولم تحسم أمرها بشأن من سـترزق بهم من أولاد في المستقـبل. وقد بدأت حيرتها عندما قـرأت عن ختَان الإناث: «لما ابتديت أقـرأ في موضوع ختـان الإناث من سنة كنت باقول يا رب لو مقسـوم لي اخلف ما تدينيش ولد، لأني وقتـها ما كنتش عارفـة حاطاهره ولا لأ بأمانة كنت مـتلخبطة وباقـول يا رب ما تمتحنيش وماتحطنيش في الموقف ده. كنت باقول لنفسي إزاي أقطع جزء من جسم إبني، وبعـدين أقول ده لأسباب صحـية، وبعدين أرجع أقول بس فيه قصادها كلام بيـقول إنها مش صحية، فكنت أقول لنفـسي يا نوسة واجهي نفسك، إنتي مـتمسكة بتقـاليد مش لأنهـا صحيـة كنت برضـه عايزة إبني مـا يطلعش يلاقي نفـسه غريب، لكن بـرضه لو عملت كـده ولما كبر قـال لي ليه يا مـاما عملتي كـدة؟ لأ والطامة الكبرى لو الولد مـات وهو بيتطاهر لا يمكن أقـدر أسـامح نـفـسي كـان الموضـوع ده عـامـل لـي وسـواس، حـتى واحـدة صاحـبـتي قـالت لي يعنـي إنتي كنتي إتجوزتي؟ طيب اتجوزي الأول وبعدين ابقي فكري حا حيحصل إيه لو جبتي ولد».

ولا تعتقد د. خديجـة بوجود فرق بين المختن وغير المختن ولا بضرورة الختَان، لكنها عبرت عن عـدم حسم موقفها بذكر شروط قد تجعلها تختن ولدها أو لا تختنه. فرغم أن الأمر لا يفرق معها،

لكن ترى أن رأي والد الطفل له وزنه، فإن كـان محايدًا، والطفل ليست لديه مشكلة فلن تختنه

وترى د. سلمى أن الختَان غير ضروري، لكنها لم تحسم أمرها بشأن أي ولد تنجبه مستقبلاً وتشبه د. سلمى حيرتها إزاء هذا السؤال بحيرة النساء اللاتي يخشين الامتناع عن ختَان بناتهن. ففي حالة الولد تخشى أن يتهكم الأطفال في المدرسة على مظهره. ولأن د. سلمى نشطة في محاربة ختَان الإناث فقد كانت حيرتها شديدة، وقالت إن هذا السؤال وضعها في موقف صعب، فإذا كانت لا تملك القدرة على أن تتحمل تحدي امتناعها عن ختَان ابنها، فعلى أي أساس تطالب الناس باتخاذ هذا الموقف من بناتهم؟ وما زالت د. سلمى لا تعرف كيف تحل هذه المعضلة

ولا تعتقد سامية أن الختَان ضروري، كما أنها غير مقتنعة بنحت جسد الطفل حسب ذوقها، لكنّها تخشى عليه من أن يصير منبُوذًا لو كان مختلفًا وخارجًا عن المعيار الاجتماعي السائد، لذلك هي في حيرة ولم تحسم أمرها

رأى البعض الآخر أن الختان ضروري، مثل نهال التي تقول أنها لو رزقت بولد فستختنه «لأن ما ثبتش إنه مضر ولا مفيد، فأنت بتمشي على الحاجة السايرة وبتضطري تلجئي للمعلومات اللي عندك، والناس بتقول إنتم هنا سخنين علشان متختنين يبقى ده لفايدة ابنك، مع اعتبار إن دي العادات والتقاليد الموجودة. يعني ليه قبلنا محاربة ختان الإناث؟ لأن ده جزء مهم جدا. يعني

أمي ما ختنتنيش من غير حد ما يقول لها لأنها اتألمت واكتشفت هي بنفسها إن ده غلط. هل الذكور قالوا بنفسهم إن الختان غلط؟ دي مهمة، يوم ما يقولوا الكلام ده حا أعضد هذه القضية».

ورغم أن د. حسام ود. يارا يريان أن الختَان ليس ضرورة صحية أو بيولوجية أو نفسية، لكنهما يريانه ضرورة اجتماعية، حيث يوجد ضغط اجتماعي يطالب الوالدين بتختين ابنهما، مثلما حدث معهما لكن د. حسام يرى أنه لو كانت هناك حركة تغيير اجتماعي يسود على أثرها نموذج الذكر غير المختن ما كان ختن ابنه «أنا عندي ضغط اجتماعي إنه يطلع زي السائد في مجتمعه، لكن لو حسيت إنه حا يطلع فيه حاجة مختلفة في الوقت اللي أنا حاسس فيه إن ما عنديش قناعة أخرى بتقول إن الختان سيضره ضررًا بينًا واضحًا، فباقول طيب خلاص، خليه زي اللي زيه. لكن أنا ما عنديش مانع إن لو ثبت إن ما لهاش لازمة، وإن لها ضرر، أيا كان هذا الضرر، إني ما اختنوش» لم يحسم د. حسام ود. يارا موقفهما العملي بشأن ختان أي مولود ينجبانه في المستقبل. يقول د. حسام: أنه لم يسترح لتجربة ختان ابنه «ما اتبسطش من خبرة ابني مع الختَان، ما كنتش أحب أن يتعرض لصدمة، والختان صدمة مش عايزة كلام. حايفضل منها قد إيه مش عارف، لكنها صدمة غير هينة بجد». ورغم ذلك يقول إنه في حيرة ولا يعرف كيف سيواجه الضُغُوط التي تحثه على تختين ابنه لو أنجب ولدا آخر، خاصة مع وجود أخ مختن له. فلما سألته

إن كان سيبتر ساق ابنه الجديد مثلاً لو أن أخاه فقد ساقا لسبب خارج عن إرادته، ضحك وقال أنه لن يفعل به هذا طبعًا، وسيقبل اختلاف الأخوين في هذه الحالة لأنه يرى أن الضرر في حالة فقد الساق أفدح من فقد الغلفة. وتوضح د. يارا أهم هذه الضغوط، وهو وجود ابن مختون وهي تخشى ألاّ يتشابه الولدان. فلما سألتها ماذا يكون التصرف لو أن الأخ الأكبر فقد أحد أطرافه، قالت أنها لا تُساوي الغلفة بأجزاء الجسم الحيوية الأخرى التي تعرف أهميتها بشكل مؤكد، وتجهل المضار الآجلة للختَان، لذلك لا ترى هذا المثال دالا

ورغم أن د. حازم يعتقد أنه لا يُمكن القول بأن الختَان أفضل صحيًا، إلا أنه يعتقد إلى درجة التأكد أن من الصعب جدا نفي أنه ضرورة. يبرر د. حازم هذا الاعتقاد بأن إثبات النتيجة السلبية أصعب منهجيا من إثبات النتيجة الإيجابية، لذلك لابد من دراسات عويصة مدققة حتى يثبت بالبحث العلمي أن وجود الغلفة ليس ضارا بصحة الإنسان. فلما سألته إذا كانت الغلفة فريدة من نوعها بهذا الصدد أم أن هناك أعضاء أخرى بالجسم يلزم إجراء دراسات صعبة لإثبات أن وجودها ليس ضاراً، قال أن هناك الكثير من مثل هذه الأعضاء، وضرب مثالا بالرحم والمبيضين بعد توقف الدورة، سيما في حالة وجود أورام ليفية، ثم عاد فقال أن الاتجاه لاستئصال هذه الأعضاء قد توقف حديثا بعد أن ثبت ضرورتها للمرأة، حتى بعد توقف الدورة والإنجاب، وثبت ضرر

استئصالها، حيث تزيد فرصة حدوث هشاشة العظام لمن تقطع منها هذه الأعضاء. ورغم أن د.حازم دحض حجته بنفسه، إلا أني قلت له أن هذا المثال يدخل -على أية حال- في باب المرض لأنه لا يوجد طبيب يتطوع بإزالة الرحم والمبيضين لسيدة -بالحق أو بالباطل- إلا لو قصدته تشكو من أعراض مرضية، وهذا لا ينطبق على حالة الغلفة في طفل أو رجل صحيح لا يشكو من مرض. عندئذ، برر موقفه بأنه ما دام البشر يجرون الختَان منذ آلاف السنين، فلابد أنهم قد تصوروا أنه يمنع مخاطر صحية ما، وأنه هو شخصيا لا يعرف ما هذه المخاطر التي تصورها الأجداد القدامى للغلفة وسعوا لمنعها بالختان، لكنهم ما داموا قد رأوا الختان ضروريًا، فهو يراه كذلك. ويؤكد د.حازم أنه لو أنجب ولدًا الآن فسيختنه لعدم توفر دراسات كمية دقيقة تثبت أن الختان لا لزوم له، ولخوفه عليه من الاختلاف: «لو عندي ولد صغير الآن لن يخطر ببالي أن أمتنع عن ختانه. مش عارف إيه الأهمية الصحية لعدم الختان بالمعنى الدقيق. فيه في الدراسات الكمية مشكلة السالب، إنك تثبتي إن حاجة ما بتحصلش أصعب بكثير من أنك تثبتي إن حاجة بتحصل. فبالتالي لو جالي ابن لن أتردد في تختينه، ليه؟ حتى لو لأسباب اجتماعية، بمعنى إن الولد ما يحسش إنه مُختلف، حتى في طبقته، ولأن ما أعرفه -ومافيش حاجة أكدت عكسه بشكل قطعي- إن الختَان لا يسبب أي مشاكل صحية، والأفكار اللي على أساسها بنعمل الختان إن فيه إفرازات

تؤدي لتلوث عند الولد وعند الست التي سيعاشرها رغم أني أساسًا لم أعمل ختان لأبني بناء على هذه الأسباب»

ويعتقد سيف أن ختَان الذكور ضروري لأنه كان يتأرجح بين الشك واليقين فيما يقال عن أنه يُحسن الأداء الجنسي ويقويه، وهذا التأرجح يجعله مترددًا بالنسبة لتختين أي ابن يرزق به مستقبلا

وبعض المثقفين/ المثقفات لم يحددوا رأيًا، فمثلاً يقول أبو الفتوح «ما اعتقدش إنه ضروري ولا غير ضروري، أنا واصل دلوقتي لقناعة على الحدود بينهما» لم يحدد أبو الفتوح أيضا رأيا قاطعا بخصوص تختين أي ولد يرزق به مستقبلاً: «مش عارف. حاتبقى الفكرة الوحيدة اللي ممكن تخليني أطاهره إني مش عاوزه يبقى مختلف، بخاصة لو لم أقتنع تمامًا بأهمية الغلفة الجنسية، فبالختان أجنبه إحراجات لا داعي لها، وأحاول أن يركز على الاختلاف في مسائل جوهرية، لأني لن أجنبه في فترات مختلفة أن يكون مختلفا عن أقرانه»

ويعتقد د. فهمي: أن مجرد السؤال عما إذا كان الختان ضروريا أو غير ضروري أمر لا يستحق عناء طرح السؤال، لأن الختان صار أحد المعايير الاجتماعية، وهو لديه ليس أولوية، لذلك يفضل ترك الأمور على ما هي عليه.

ويقول سعيد أنه بعد تجربة ابنه البكري مع الختَان فسيزن

الأمور بدقة لو أنجب ولدًا آخر، ولو وجـد أن حجم أضرار الختَان أكبر من الضرر الاجتماعي الذي يمكن أن يسببه عدم الختَان للولد، سيحتفظ له بغلفته.

وقد رفضت حورية الرد على السؤال، وقالت أنها تحترم العلم والرأي الآخـر لو أمكن إثبـات عدم ضـرورة الخـتَان بـالتجـارب العلمية، لكنها هي شخصيا لم تحدد رأيًا.

ثانيا: الموقف الشخصي من الرجل غير المختن

لاستكشاف الموقف الشخصي للمـثقّفين والمثقّفات من الرجل غير المخـتن سألتهم عن تصرفـهم في حالة تقدم رجل غيـر مختن للزواج من قريبـة عزيزة لهم، ابنة أو أخت مـثلاً، أو للزواج من المثقـفة شخـصيًا في حالة المـثقفات غـير المتزوجـات. أجمع كل المثقّفين/ المثـقّفات بلا استثناء على أنـه لو تقدم شخص للزواج من قريبـة عزيزة لهم فلن يسـألوا عن حالة ختـانه أصلاً، فإذا عـرفوا بالصدفـة أنه غير مـختن فلن يرفضـوه لهذا السبب ولن يشـترطوا ختَـانه. وقد بـرروا هذا الموقف بأن مـثل هذا التـدخل ليس من حقهم، بل يعتبر تدخلاً غير مقبول في الحرية الشخصية. وأضاف أبو الفتـوح أنه حتى قد يتـدخل لدى ابنته لو وجـد منها ترددًا في قبول الزواج من مـثل هذا الرجل ويُحـاول إقناعهـا بأن هذا شئ إنساني.

لكن د. حازم قال انه قد يتخذه مادة للتَفكُّه.

و قـد رفض د. نظمي في البـداية مجـرد تصـور هذا الموقف بحـجة أن مـعظم المسلمين مخـتنين، وأن معـارِفُه غـير المخـتنين مسيحيين مما يستبعد فكرة زواج ابنته بأحدهم وعندما طلبت منه أن يتخيل أن أحدهم قد يعتنق الإسـلام ويتقدم للزواج من ابنته، قال أنه في هذه الحالة لن يرفضه ولن يشترط ختَانه.

أما د. سلمى فعنـدما سألتها عـمّا إذا كانت قد تشتـرط ختَان هذا العـريس قبل زواجـه من قريبتـها، ضـحكت بشدة وقـالت مـستنكرة «أعـوذ بالله لأ طبـعـا أنتـي اتجننتي» ثم أضـافت «احتمـال اقعد أتتـريق عليها وأقول لهـا احكي لنا إيه الفرق. لا طبعًا مش حاقول لها يتختن»

وقـالت عايشـة أنها في مـثل هذه الحالة سـتوجـه قريبـتهـا لاستطلاع رأي طبـيب، فلو لم تكن هناك مُشكلة، فسـتدافع عن الشاب غير المختن، بالضبط كما ستدافع عن فتاة غير مختنة.

وهذا هو رأي حورية أيضًا، لكن دون حـتى أن توجه القريبة لاستشارة طبيب، لأنها تعـرف أن عدم الختَان لا يؤثر على الناحية الجنسية لدى الرجل، وترى أنها إذا كانت تحتّج على الرجال الذين يطلُبُون تخـتين زوجاتهم فسـتفعل هذا -أيضًـا- مع النساء اللاتي يطلبن تختين أزواجهن.

كان هذا السؤال احتمالاً ملمـوسًا وليس محض فكرَة مجردة بالنسبة لأربع من المثقّفات. نوسة ود. خديجة لم يتزوجن بعد، أي

يمكنهن تخيل هذا الوضع بالنسبة لأنفسهن لا لواحدة غيرهن، وقد قررن أن هذا الاحتمال لا يقلقهن. نوسة تعرف تجربة صديقة لها تقدم لها فعلاً رجل غير مختن طالبًا الزواج منها، فصممت على ختانه بحجة أن هذا قذارة، ونوسة لا تقرها على ما فعلت، وتقول أنها لو كانت في مكانها ما تصرفت على هذا النحو

أما سامية فهي متزوجة من رجل أجنبي، وعندما تقدم لأسرتها أبدى لها والدها قلقه من أن يكون غير مختن، باعتبار أن زواجها منه في هذه الحالة يعتبر تصرفًا ضد التيار السائد في المجتمع. لكن زوج سامية كان مختُونًا. فلما سألتها، ما الذي كانت ستفعله لو لم يكن مختنًا، قالت، لا شئ، كنت سأعتاد على مظهره غير المألوف طالما لا يؤثر في الأداء الجنسي.

و قد كادت د. منى أن ترتبط ذات مرة برجل أوروبي، وسألته وعرفت أنه ليس مختنا، فأصابها القلق لأن هذا الوضع لم يكن مألوفا لها وانتهت القصة بعدم زواجهما لأسباب أخرى تخص عدم اتفاق ظروف حياتهما، لكنها لم تطلب منه أن يختن، وتقول أنه لولا هذه الظروف لتزوجته على حاله. فلما سألتها عمًّا إذا كانت معلوماتها -حينئذ- عن علاقة عدم ختَان الرجل بإصابة زوجته بسرطان عنق الرحم لم تخيفها، أجابت بالنفي، لأنها تعلم أن هذا النوع من السرطان غير متفش وسط الأوروبيات، فملايين البشر يعيشون دون أن يختنوا الذكور، لذلك لم تكن ترى أن عدم ختَان هذا الرجل يحول دون زواجها منه.

ثالثا: النظرة إلى حق المجتمع في التعامل مع جسد الفرد

يعتقد بعض المثقّفين/ المثقّفات أنه ليس من حق المجتمع تعديل جسد الفرد دون إرادته. في هذا الإطار يعتبر صلاح أن ختان الذكور والإناث يستند إلى فكرة واحدة، هي الاعتداء على شخص آخر، صغير، ضعيف، لا يقدر على الاعتراض ولا على منع الأذى عن نفسه، ويراها فكرة بشعة، وبالتالي يرفض ختان الإناث والذكور لفكرة المبدأ نفسه، قطع جزء من الجسم.

ولا يختلف رأي فتحي عن رأي صلاح، فهو يستند أيضًا إلى مبدأ ضرورة احترام السلامة الجسدية للطفل وعدم التحكم فيه بتدخل جراحي ليس في مصلحته كفرد. ويقول أنه ليس من حق الأهل اتخاذ قرار -قد يكون له عواقب لا يعرفونها- للطفل.

ويقول سعيد إنه بدأ ينتبُه إلى أن الختان تدخل غير مقبول في جسد شخص آخر بعد أن مر بتجربة ختَان ابنه، لكن هذه الأسئلة، لم تطرح نفسها على ذهنه قبل ذلك.

ويقول أبو الفتوح أنه لم يتوقّف من قبل عند النظرة السائدة للأعضاء الجنسية باعتبارها شيئا قذرا تحتاج إلى تنظيف شديد، لتظل جافة وطاهرة و بالذات في المناطق الحارة حيث الحرارة والعرق، ومن هنا، يعتبر أهل هذه المُجتمعات الغلفة منطقة عرضة للتلوث ويتصورون أنها لابد أن تقلب وتنظف من الداخل، فيشعرون إنه لو كشف العضو كله يسهل تنظيفه. ويقول أبو

الفتوح أنه راجع أفكاره ويرجح الآن أن هذه الفكرة لا تساوي قطع جزء من جسم الطفل. يقول أبو الفتوح أن هذا التغير في اتجاهه نحو ختان الذكور حدث من وقت قريب، وأن الدافع الذي جعله يعيد النظر في أفكاره أنه أصبح حسّاسًا جدًا بشكل عام لفكرة الاعتداء على الجسم، ويراه شكلا من أشكال القهر يقف ضده على طول الخط، وأنه عندما يستعيد تجربة ابنه مع الختَان يراها تجربة قاسية لكن حصوله على معلومات جديدة عن الوظيفة الجنسية للغلفة لا يقف خلف تغير اتجاهه، إذ لا يزال غير مقتنع بأهمية هذه الوظيفة، لكنه يقول أنه رغم ذلك: «حتى لو افترضت إن الطبيعة غلطانة وإن دي بقايا طبيعية. فالاعتداء عليها بدون إرادة الفرد -لأننا نعملها بفكرتنا احنا- غير مقبولة، يجب ألا أعتدي على جسمه بدون إذنه»

لكن بعضًا آخر من المثقّفين/المثقّفات يقف على طرف نقيض ويرى أن من حق المجتمع تعديل جسد الفرد دون إرادته، إذ يرى د.حازم أن الختَان ثمن مقبول الدفع لمسايرة الشكل الذي يضمن القبول الاجتماعي للذكر. وعندما سألته من الذي من حقه أن يحدد وينفذ دفع هذا الثمن أجاب بِمثَال مُقارن هو الإجهاض. فكما أن من حق النساء التخلّص من الحمل لأسباب نفسية أو اجتماعية تخصهن، فالمجتمع أيضًا له صلاحية أخذ قرار الختَان نيابة عن الطفل، فمن يجري الإجهاض يُصادر على وجود الجنين، وفي الختَان يصادر على وجود جلدة ويقول أنه حتى لو كانت هذه

الجلدة تخص الطفل لا المجتمع «ما دمت سأعطى للسيدة الحق في أن تتخلص بالكامل من إنسان له وجود مُحتمل وليس مُجرّد حتة منه، فبالمثل ممكن أعطي المجتمع الحق في أن يتخلص من قطعة جلد في جسم بني آدم من غير أخذ رأيه، لأني برضه لم أسأل الجنين رأيه قبل إجهاضه»

ويبرّر د. حسام قبُوله لفكرَة تحكم المجتمع في جسد الطفل بقضية الوصاية، فهو يرى أن من حق الوصي على الطفل اتخاذ قرارات حرجة تمس بجسمه نيابة عنه، ويضرب مثلاً بأن الوصي يأخذ قرارات بقبول إجراء عمليات خطرة للطفل دون أخذ رأيه ويرى د. حسام أن حق الوصاية ينطبق على الخُتَان، ولا يغير منه أن الغلفة ليست تركيبًا مرضيًا بل طبيعيًا بل أنه ما زال يعتقد بذلك حتى بعد تجربة ختان ابنه التي يصفها بأنها عملية صدمية شديدة قد تترك أثرًا نفسيًا عند الطفل. ويرى أيضًا أننا يجب أن نناقش حق الوصاية بشكل مُطلق، حتى بخصوص إجراء لا لزوم له ولا مصلحة صحية منه كالختَان، فطالما هو عادة موجودة تكون لها آثار اجتماعية الآن. ويرفض د. نظمي فكرة ترك الطفل حتى سن التمييز ليقرر بنفسه ما إذا كان يرغب في الاحتفاظ بغلفته أم لا، ويرى أن من حق الأهل طلب تختينه ومن واجب الطبيب إطاعة رغبتهم، ويعتبر هذا الطلب عملية تجميل لأنه يرى أن الختَان شرع الله، لكنه لن يستجيب لهم إذا طَلَبوا قطع طرف أنف الطفل مثلاً، ويعتبر ذلك تشويها لا ينطبق على الختَان.

وتقول د. سلمى أنها تعلم أن موقفها بقبول ختَان الذكر بسبب ما تحظى به العادة من قبول اجتماعي فيه عدم اتساق، وتشبهه موقفها من حث صديقاتها اللاتي ينجبن بناتا على ثقب أذن البنت كي تعلق فيها أقراطًا، وأنها هي شخصيًا لو رزقت ببنت لفعلت هذا بأذنيها لأنها تحب شكل أذن الفتاة ذات القرط. وتضيف د. سلمى أنه ربما تختار الفتاة نفسها عدم ارتداء قرط، لكنها تضرب هذا المثل لدلالته على كيف يتصرف الإنسان بالغريزة. وتقول د. سلمى أن لها قريبات لم يثقبن آذان مولوداتهن، فلمّا كبرت هؤلاء البنات أجرين أكثر من ثقب واحد في كل أذن. ولمّا سألتها إن كان أحد قد أعطاهن مُساندة ضد موضوع ثقب الأذن أجابت بالنفي.

رابعًا: الاتجاه نحو ضرورة المسايرة للسائد اجتماعيًا

لم يعبر أي من المثقّفين/ المثقّفات عن اتجاه صريح نحو قبول المغايرة، وإن حدث العكس، فقد عبر بعضهم بوضوح شديد عن اتجاه لإعلاء قيمة مسايرة السائد والمقبُول اجتماعيًا، وتأرجح الباقون بدرجات مُختلفة بين المُسايرة والمُغايرة.

(أ) إعلاء قيمة المسايرة

قال سعيد أن زوجته تردّدت في ختَان ابنهما، لكنه لم يكن قادرا على أخذ قرار بترك الولد دون ختَان وسط مجتمع يختن كل رجاله حتى لا يكون شاذًا بالنسبة للناس فيعاملونه كحالة خاصة

«ونبقى واضحين، حتى لو مش مـؤكد إن الختان مش شئ صـ
بس حايـخليه يبقـى زيه زي الناس. ما يطلعش يبـقى متـ
بحاجة ممكن تجـيب له إساءات طول عمره ويعتـبر أقل رجولة
زمـايله» فلما أشـرت إلى أن سعـيـد يرتدي نظارة وسألتـه هل
سيصنع واحدة لابنه ليكون مثله حتى لو لم تسـتدع حالته الصحـ
هذا، أو هل سيـأخذه لمن يوشـمه لأن مـجموعـة أصدقـائه دقوا
لأنفسهم وشـما، أجاب بالنفي وقال أن الختـان يختلف عن هذين
المثالين. فلما سألته هل يمكن أن يكون الإنســان مشابها لأقرانه تمام
الشبه قال أنه بالعكس، لا يريد ابنه مُشـابهًا لأن المجتمع في حالة
سيئة، وأنه هو شخصيًا صاحب أفكار متقدمة عن الأفكار السائدة
في المجتمـع، لكنه لا يرى معنى للامتناع عن الختَـان حيث أنه
حسب فهمه- شئ غير ضار

ويرى د. حازم أن أسـوأ ما يمكن أن يحـدث في حالة امـتناع
الناس عن تختين أبنائهم أن غير المختن لا يُسـاير المجتمع في ثقافة
تعتبر فيها المسايرة جزءًا مهمًا من السواء الاجتماعي، ويضرب مثلا
بأننا لسنا مثل الـفرنسيين، الذين يعتـبرون اختـلاف الشخص عن
الشائع نقطة في صالحـه. ويرى أن المجتمع المصري يشبـه المجتمع
الأمريكي في تركيـزهما على أهمية أن يساير الفرد مـتوسط القيم
والسلوكيات كثمن يدفعه ليحظى بالقـبول الاجتماعي، يتزوج كما
يفعل الناس وبالطريقة نفسهـا، وكلما خضع لنفس الطريقة يحظى
بالقبُول الاجتـماعي، فحتى مثلاً لو شخص من طبقـة علُيا احتفل

بزفافه بطريقة غير مألوفة لن يكون مقبولاً وسيصير عرضة للسخرية. ويرى د. حازم أن الختان عنصر مهم لتأكيد المسايرة.

ويتبنى د حسام موقفًا شبيهًا لذلك يرى أنه ختن ابنه لكنه لن يعمل على جعله مشابهـا لمجموعة أصدقائه لو انتشر بينهم الوشم، لأن الختَان يساير القيم الاجتماعية المتوسطة، ما يفعله أغلبية الناس العاديين، وليس مجموعة معينة من الشباب أو حتى شريحة عمرية مُعيّنة، وبهذا المعيار، كل «العاديين» يختنون لكن الوشم لا ينتشر بين أغلبية «العاديين» وعندما سالت د حسام عن تصوره للوضع لو قرر ابنه المختن السفر إلى بلد لا ينتشر فيها ختان الذكور والاستقرار هناك، قال إنه في هذه الحالة سيكون لديه الكثير من نقاط الاختلاف عن مجتمعه الجديد، فسيكون مثلاً عربيا مسلمًا حتى لو عاش في أمريكا، وهذه الصفات ستبرر ختانه

وترى عايشة أن مرور الأم والطفل بأزمة الختَان أفضل للطفل من أن يخرج للمجتمع بلا ختَان، مما قد يسبب له مشكلة نفسية لأن المجتمع لن يتقبل وجود رجل غير مختن. ولا تساوي بين اختلاف الطفل غير المختن واختلاف من لا يلبس نظارة في أسرة يرتدي كل أفرادها نظارات أو اختلاف طفل صحيح البدن في وجود شقيق أجري له بتر أحد الأطراف لسبب ما، والفرق في نظرها أن بتر الغلفة بلا مبرر أمر مقبول اجتماعيًا، لكن الأنواع الأخرى من البتر غير مقبولة بلا مبرر

وتقول د. أفكار أنهـا تعيش الآن فتـرة تحول في اتجاهها نحو ختان الذكـور، لكن هذا التـحوّل على المسـتوى النظري وليس العملي. فقبل ذلك لم يكن الختَان قابلاً للتفكير، أما الآن فيمكنها التفكيـر في مراجعة مـوقفها منه. لـكنها تقول أنها على المسـتوى العملي لو أنجبت ولدًا ذكرًا ففي الغـالب ستختنه لأنها تريد له ألا يخرج عن الإطار الاجتـماعي. وتقول أن تناقض موقـفها النظري مع العـملي قد جـعلهـا تفهم الآن لماذا يختن الريفيـون بناتهم. وعندما سألتها ما موقفها لو أنجبت بنتا في إطار اجتماعي تختن فيه البنات بنسبة ٩٧ ٪ قالت أنها لا يمكن أن تختن ابنتـها لأن الأطباء المنتمون لمسـتواها الاجتماعي لا يخـتنون البنات. وأضافت أنه لو كان الوضع مختلفا، وكان الأطـباء يختنون بناتهم فلن تكون ابنتها أول بنت لا تختن، إلاَّ لو كـانت هي كـأم شديدة الاقـتناع بذلك وتفهم كل أبعاد الموضوع. وتقول أنه بالنسـبة للولد فما زالت غير مقـتنعة إلى الحد الذي يدفـعها لجعـله من أوائل الأطفال الذين لا يخـتنون. وأضافت بلهـجة مُـسـتنكرة: «في الغالب حـاطاهره، علشان ما يـقاش غريب عن زمايله. يعني يبقـوا كلهم متطاهرين وهو لوحده عنده حـتة مدلدلة كدة!! حـايحس إن ده تشويه وأنه مش طبيعي» ثم استطردت قائلة أن ما تقوله الآن يذكرها بالنساء اللاتي يقلن نفس الشيء عن ختان البنات، ويصررن على التمسك بتـخـتين بناتهن لأن البنت التي لا تختن سـتكون غـريبـة الشكل ومشوهة، لأنهن تعودن إن كل النسـاء مختنات. ورغم أنها تعرف

وتقبل أن ابنها لديه كثير من الاختلافات مع أقرانه، فهو لا يستخدم نظارة طبية رغم شيوعها وسط زملائه مثلاً، وهي لن ترغمه على استخدامها دون ضرورة موضوعية، إلا أنها تقول أن الختان أمر مختلف، لأنه طقس يؤكد انتماءه لجيل ومجتمع معينين، ومثل هذه الطقوس يجب مراعاة عدم الاختلاف فيها أثناء الطفولة والصبا وضربت مَثلاً بأنها قد لا تصوم بانتظام، لكنها شجعت ابنها في طفولته على الصيام، ولا مانع عندها في أن يرجع عن تمسكه بهذا الطقس عندما يصل إلى سن التمييز «لأني مش عاوزاه يحس إنه زي البهيمة الغريبة، يبقى عنده ست سنين ويبقى كل الفصل صايم وهو لأ الإنسان محتاج للانتماء وهو طفل آهو الختان زي الصيام .هي فكرة قوة العادة الاجتماعية وهي الأساس خلف إني طاهرت ابني، دي عادة مرتبطة بنا كلنا، ليه ما تتعملش؟» وهي تعترف أن للختان خصوصيته كقطع لا رجعة فيه، وتعرف أن الطفل لو غير رأيه في سن التمييز وفضل أن يكون جسده سليمًا لن يمكنه تحقيق اختياره، لكنها لا تراها مشكلة كبرى تساوي أن ينشأ الطفل مختلفًا ولم تكتف د.أفكار بتطبيق موقفها على ابنها، بل ساهمت في كسر مقاومة زوجين من أصدقائها كانا مترددين في ختان ابنهما لشكهما في ضرورة الختان وخوفهما على الولد من المعاناة. ومما قالته لهما: «معقولة!! حايبقى شكله مُختلف كدة وحايبقى عامل زي إي تي(*) وسط

(*) إي تي "E, T" كائن فضائي خرافي من فيلم أمريكي خيالي يحمل نفس العنوان من إخراج ستيفن سبلبرج

العيــال حرام عليكم. واستــخدمت كلمــة حرام عليكم لأن الولد كان صــعبان علي إن العــيال حا تطلع تجـري وراه وتقول له ياللي شكلك غــريب وحاجات زي كــده». ود. أفكار هي المثقــفة الوحيدة التي تذكرت المشاهرة، وخضعت لها مع عدم اقتناعها بها وتناقضها مع معارفها: «بيــتهيألي أمي قالت ما حدّش يدخل على الولد وهو حالق دقنه أو شايل لحمة. وبعدين إحنا كنا مُتعوّدين ما نناقشهاش فــيما تقول، اللي هي بتقوله نمشيــه وخلاص علشان ما يكبرش في دماغها»

وضربت ســامية مثــالاً بأهمية خــتَان الأطفال لمجرد مــسايرة السائــد بطفل في السادســة من عمره، ابن صــديق لها لم يخــتنه أهله، فصار يخجل من خلع ملابسه أمام الغير لأنهم يعلقون على شكله المختلف تــعتقد ســامية أن هذه الــتعليقـات تعرض الطفل لصدمة نفــسية انفعــالية في المدرسة قد تتــرك لديه أثرًا شديدًا، ثم تتصور أنه سيواجه مشكلات أكبر عندما يبدأ في إقامة علاقات مع بنات سيــتهكمن على مظهــره مما سيدمــره تمامًا ورغم أن سامــية تعتقد بأن غير المختونين لن يواجه مشكلات صحية أو جنسية، إلاّ أنها ترى للختان وظيــفة نفسية مهمــة للرجل. فمنْ وجهة نظرها، يتوحد الرجل مع قضيبه ويراه شعارًا لهويته، لذلك يتفاخر الرجال بأعضائهم الجنــسية، عكس النساء اللاتي يخجــلن من أعضائهن ورغم ذلك، تعتقد أن الرجــال لا يريدون أن يظلوا مكتملي الخلقة دون ختان لسيــادة الاعتقاد بأن الختَان نظافــة ويعطي مظهرا أفضل للقضــيب، وتضاهي بين ذلك وبين إزالة شعر العــانة لدى النساء،

فبعض النساء يخترن ألا يعذبن أنفسهن بإزالته ولا يرين ضرورة لهذا، لكنهن لا يصرحن بما يفعلن خوفا من النبذ الاجتماعي لكن الرجال لا يملكون إخفاء اختيارهم للاحتفاظ بسلامة جسدهم بلا ختان لأن السائد في مدارس البنين استعراض الأولاد لأعضائهم أمام بعضهم البعض. ولما سالت سامية عن رأيها في إمكانية مساندة الطفل غير المختن ابن صديقها بدلا من التفكير في تختينه لتجنيبه تعليقات الآخرين، قالت أن من الممكن مساندة مثل هذا الطفل وتشجيعه على مواجهة هذه المواقف، لكنها لا ترى أن موضوع الحفاظ على جسده بلا ختَان من الأهمية بحيث يستحق بذل هذا الجهد، وتشك في جدوى وفعالية المساندة في تمكينه من التغلب على حرجه. ولأني أعرف أن ظروف هذا الطفل تتيح له أن يختار العيش في أوروبا، سألتها، كيف تتصور أن يعيش في مكان لا يختن فيه الذكور لو أنه كان مختونًا، فقالت أنها تعتقد أن كل رجال أوروبا مختونين.

ب) التأرجح بين المسايرة والمغايرة (مع الميل للمسايرة)

بعض المثقّفين/ المثقّفات يتأرجحون بين قبول المُغايرة والخضُوع للمُسايرة، وهم غالبًا يقبلون المغايرة على المستوى النظري لكنهم يختارون المسايرة في التطبيق العملي. يرى أبو الفتوح أن التشابه مع الأقران هو الفائدة الوحيدة للختَان، وهو يرى أن التشابه مهم جدا، ويرى أن الاختلاف سيحرج الولد بين أقرانه أو يسبب له قلقا أو يجعل النساء اللاتي سيعرفهن في المستقبل ينفرن منه

ويضرب أبو الفتوح مثلاً على مدى الحرج الذي يسببه إهمال ختَان الولد بتسميته باسم غير منـتشر في وسطه «زي ما تسميه بدل تامر ووائل وهيثم تســميه عبد البـاسط مثلا، فيظل اســمه طول الوقت عبد الباسط فـيبقى مثار للسخـرية. أنا رأيي إن هذا هو ما يجعل المستنيـرين يلجأون لختَان الذكور حـتى لو اقتنعوا بأن الغلفـة طبيا مهمة» لكن الختَان لا رجعـة فيه كالاسم، فمن السهل أن يتخلى تامر عن اسمــه لو لم يعجبه ويتسمى بعـبد الباسط لو أراد، لكن الولد لو تم ختَانه ولم يرض عن هذا فيما بعد لن يتمكن من تغيير الوضع، فكيف يحل أبو الفتوح هذه المُعضِلة؟ إنه يـحلها بافتراضه أنها ليست موجودة، ففي رأيه لن يحدث أن يختار أحد الاختلاف عن المجموعـة، لدرجة أنه يتصور أن الرغبـة في المسايرة من القوة بحيـث لو فرضنا أن أسـرة لم تختن ابنها في طفـولته فـسيـسعى للختان عندما يكبر لتحـقيق التشابه مع أقرانه، مما يشكل مزيدًا من القلق والحرج لشخص كبير يطلـب هذه العملية. يقول أبو الفتوح أنه لن يجنب ابنه الاختلاف على طول الخط، لكــن فقط في فترة الطفـولة التي يعتـقد أن الإنـسان لا يَقْـوى فيـها على مـواجهـة الاختلاف. يفـسر أبو الفتوح أهمية المسـايرة في سن الطفولة بأنها تخلق من الطفل كائنًا اجـتماعيًا يعرف كـيف يتواءم مع من حوله من الشبهاء ويتـبادل معهم حياة مشتـركة، وتتيح له أن يركز على الاختـلاف في مسائل جوهرية لكنـه يرى أن الناس يمكنهم تحمل المغايرة ومقـاومة ما تثيـره ضدهم من نفور في حالة وجـود حركة مجتمعية تتحدى المفاهيم السائدة

ج) التأرجح بين المسايرة والمغايرة (مع الميل للمغايرة)

يرى د. فهمي إمكانية فرض اختلاف الصفات الفردية داخل المجتمع رغم وجود مُحاولة دائمة للتوحيد، وأن ما يخلق هذه الإمكانية هو تميز الصفات الأقوى، مثل الطفل الذي لا يستخدم نظارة طبية في صف مدرسي به أغلبية من مُستخدمي النظارات، فهذا الطفل يمكنه أن يفخر بأنه يرى جيدا من المقعد الخلفي، أو إنه أطول منهم لكن من يواجه مُشكلة هو الفرد الذي ينتمي إلى أقلية لها صفات أقل قبولا في المجتمع، فالقصير ستظل محنته في الفصل اكثر من الطويل، وكذلك من لديه نمش، أو شعره أحمر، أو صوته أكثر حدة أو غلظة من بقية زملائه، أو فتاة غير محجبة في فصل كله محجبات. ولا يمكن حل جميع المشكلات التي من هذا النوع، وسيكون على هؤلاء الأفراد المُختلفين عن الأغلبية تحمل المواجهة الدائمة للسخرية حتى تظهر لديهم صفات أخرى تكسبهم وضعًا اجتماعيًا مساويًا لغيرهم، كالتفوق في مجال معين. والولد غير المختن سيجد نفسه في وضع شبيه بهذا. يرى د. فهمي أن المغايرة تستلزم أن يدفع الشخص المغاير ضريبة عدم مسايرة النمط السائد بين الأغلبية. وقد يلجأ بعض المغايرين أحيانًا إلى العدوانية، وبعضهم إلى التفوق في مجالات أخرى لفرض مغايرتهم، أو قد يجدون حماية إذا كانوا ذوي وضعية اقتصادية أو اجتماعية معينة. يرى د. فهمي أن المغايرة تستحق هذا العناء في سبيلها في كثير من الأحيان، لأن تاريخ الإنسانية أثبت أن تطور

المجتمعات اعتمد دائمًا على المغايرة، حيث يأتي من لا يتبع القطيع، فيقدم أفكارا أو سلوكيات مغايرة ويأخذ وضع الطليعة. وقد حاربت كل المجتمعات وبلا استثناء هؤلاء الرواد. وعلى قدر صلابة المغاير واستمراره في التمسك بما جعله مغايرًا، على قدر ما يحدث تغير في تاريخ الإنسانية. وينطبق هذا النموذج على مجالات العلوم، والأديان، والتغيرات الاجتماعية والثقافية. ويرى د. فهمي أن المغايرة هي قاطرة التغيير، كما يرى أن هذا الرأي ينطبق على ختان الذكور ,وتقول د يارا أنها ليست مقتنعة نظريًا بأهمية الختَان «والله فكرة إن فيه حاجة طبيعية من الجسم نشيلها علشان ما تضرش فكرة غريبة. فكرة مش فاهماها قوي، فغالبًا الغلفة لها أهمية وفايدة» لكن حرصها على مسايرة عادات المجتمع المصري هو الذي جعلها تختن ابنها «يمكن لو عايشة به في أوروبا أو أمريكا أو مجتمع تاني يتقبل به ما كنتش طاهرته»

وترى د. سلمى أن التشابه بين المراهقين أمر هام، لذلك سيتعرض غير المختن لتعليقات رفاقه، وهذا أمر مهم، لكنها لا تراه خطيرا إلى حد يستدعي إجراء الختَان لولد لتجنيبه هذا الموقف. تقدر د. سلمى أن وضعًا كهذا قد يسبب مشاكل نفسية للفرد، ولا حل لها إلا بتقبل الوضع على ما هو عليه. وتعرف أن بعض المراهقين يقصدون جراحي التجميل لإزالة اختلافاتهم، لكنّها لا توافق على هذا ومن جهة أخرى، ترى د. سلمى أن موضوعات الاختلاف تأخذ آوزانًا متباينة من حيث أهميتها ومعناها

بالنسبة لرؤية الفرد لنفسه وتقديره لذاته، وترى أن التشابُه في شكل الأعضا التناسلية ذو وزن نسبي عال بين الذكور، وليس كالتشابه في وجود أو غياب النمش أو النظارة الطبية

و ترى نوسة أن من مُعضلات تربية الأطفال عموما اضطرار الأم لفرض أشياء لا يحبونها عليهم لمصلحتهم، كأن ترغمهم على تناول أطعمة معينة لأنها صحية، وأن هذا الاضطرار يفسر تختين الناس لأولادهم، لكنها تقول أنها لو رزقت بولد فعلى الأرجح لن تختنه، لكنها ستظل خائفة من أن يُعاني من الاختلاف وتهتز ثقته بقدرته الجنسية وتقول أن هذا الخوف لن يبارحها حتى يكبر الولد ويشكرها على ما فعلته، وترى أن من حق الطفل أن يأخذ قرار الختان بنفسه لكن ليس من حق أهله أن يقطعوا جزءًا من جسمه بلا ضرورة ويخبروه أنهم فعلوا ذلك لمصلحته

خامسا: الاتجاهات نحو ختان الجنسين

يعتقد بعض المثقّفين/المثقّفات أن ختان الإناث والذكور قضية واحدة. يفسر فتحي اعتقاده هذا بأنه لا يجوز الاعتداء على جسم طفل أو طفلة بدون مبرر أو مصلحة بناء على اعتقاد سواء كان دينيًا أم اجتماعيًا أما عايشة فقد غيرت اتجاهها من استنكار طرح قضية ختان الذكور إلى قبول طرحها كختَان الإناث

وكانت عايشة قد سمعتني أتحدث في الموضوع في ندوة منذ شهور عدة، وصارحتني عندما قابلتها في سياق جمع مادة البحث

أنها استاءت وقتها باعتبار أن هذا موضوع فرعي لا يصح فتحه. لكنها تقول أنها راجعت نفسها فوجدت أنها تصرفت مثل العامة حين تحدثهم عن حقوق النساء، وقالت لنفسها أن كل قضية جديدة تُثير ردود أفعال مثل ردودها فأخذت وقفة مع نفسها، وقررت ألا تتصرف بانفعال، واستقرت على أن من واجبي أن أدعوها لتتعرف ما لدي من معلومات كما تدعو هي الناس في مجال حقوق المرأة

وتقول نوسة أنها ظلت مُتوّترة لمدة عام بعد أن اطلعت على معلومات عن موضوع ختان الذكور، وظلت عاجزة عن اتخاذ قرار حاسم بشأنه حتى وضعته في إطار بنية الأدوار الاجتماعية للنوعين كما وضعت ختان الإناث: «لما بدأت أقرأ أعمق لقيت إن فيه بناء للذكورة زي الأنوثة، الذكورة بتبني اجتماعيًا في علاقتها بالأنوثة. الراجل يبقى راجل طول ما بيقدر يخترق المرأة، والناس اللي اتكلمت معاهم قالوا الجلدة لازم تنشال علشان تساعده على الجماع، ورجعت لما سمعته منك ومن غيرك من المتخصصين في علم الاجتماع عن إن الختَان هو إزالة الجزء المذكر من الأنثى والجزء المؤنث من الذكر، وقلت ده كمان بيهدف لإزالة صفات الأنوثة من الراجل وصفات الرجولة من المرأة. يعنِي يشيل الجزء الضعيف والوسَاخة والقذارة وهما من صفات الأنثى في ثقافتنا، ويفضل الجزء العدواني القادر على الاختراق، وبذلك نحوّل الذكر إلى رجل، وبنفس الطريقة نحوّل الأنثى إلى امرأة بإزالة الجزء العُدواني القادر على الاختراق»

وتحكي دينا أثر مرورها بتجربة ختان ابنها على تغير موقفها من ختان الذكور واعتباره قضية تضاهي ختان الإناث: «أنا ما ابتديتش أفكر في الموضوع إلا في علاقتي بابني لأنها علاقة قريبة قوي، مش لأني متبنية الموضوع من الأول. لأن ده ابني وحتة مني وخايفة ينجرح ويتألم. حسيت إنه بيتألم، بيتعذب. بعد ما فاق من البنج كان فيه جرح وألم وده في حد ذاته عملية تعذيب إن حاجة تتقطع وتسبب جرح ويتم بشكل فيه قصدية في قطعها غير زي لما واحد إيده تتجرح بقزازة، لأ دا انتي بتروحي ومتعمدة ومتربصة إن هذا الحدث يحصل. قبل كده ما كانتش دي وجهة نظري بالنسبة للرجال، إنّما كانت وجهة نظري بالنسبة للبنات لأني مريت بتجربة سيئة مع الختَان. جدتي هي إللي ختنتني، أمي مش متختنة وكانت ضد الختَان. قعدت يومين هربانة ويجيبوني، أول يوم فضلت حابسة نفسي في الحمام الصغير لحد ما مشي الحلاق، وتاني يوم هربت وجابوني من الشارع، فعملية الختَان بالنسبة للبنات دي تعذيب وما أدركتش إنها كمان كده للرجالة إلا لما تعرضت لموضوع إبني». وتفسر دينا موقفها الجديد: «رأيي إن الموضوع وارد، ما هو زي ما بيعتبر عنف ضد البنت يعتبر كمان عنف ضد الرجل، يعني ليه لأ، يعنى اشمعنى؟ ليه التمييز بقى هنا؟ يعنى أنا طبعا مش طبيبة، يعني ما أفهمش طبيًا، لكن طالما هنا بيقتطع وهنا بيقتطع يبقى فيه مشكلة. وبرضه بيقولوا الولد علشان النضافة وعلشان شكل العضو، يعني نفس الحاجات إللي

بيقـولوها على البنات بيقـولوها على الولاد مع بعض اختـلافات بسيطة بس بالـنسبة للبنت بيـقولـوا صون شـرف البنت وعفتـها، بالنسبة للولد ما يبقـاش هو ده قوي يعني موضوع الشرف ده مش مشكلة، مـا بينظرلوش على إنه حـامل للشرف، يمكن هو بيـاخد بالتـار لو شرف أختـه أو مـراته انجرح، يمكن هو ده الفـرق اللي الواحد فاهمه»

البعض الآخر على العكس، يرون أن خـتَان الإناث والذكور قضيـتان مختلفـتان. يبرر سعـيد هذا الموقف بأنه يعتقـد أن ختان الإناث ليس منتشرا في كل المجتمع، وهذا -في رأيه- يعني أنه لا يستند إلى خـبرة قديمة مـتوارثة في المجتـمع دهش سعيـد عندما أخبرته أن نسبة ختَان الإناث في مصر ٩٧ ٪، وقال أنها ربما تكون زيادة حديثة، لأن والـده اعتاد القول بأن ختَـان البنات من عادات حواري القاهرة، وكل شـقيقَات وقريبـات سعيد وبنات قريتـه غير مختنات. يعتقد سعيد أن ختَان الإناث عمل إجرامي لأنه ينتقص من حقوقهـا الجنسية، وهذا ما يفرقه في رأيـه عن ختَان الذكور، حيث يرى من خبرته الخاصة أنه لم يؤثر على حياته الجنسية

أما الفرق الذي يجعل د. حازم يعتـبر ختان الإناث قضية ولا يعتبر ختـان الذكور كذلك فهو أن ختان الإناث يسـتهدف الصحة النفسية للمرأة.

أمـا وجه الاخـتـلاف بين ختـان الإناث والذكـور كمـا يراه د. حسـام فهو أن مـفهُوم التـشويه لا ينطبق على ختـان الذكور،

حيث أن د. حسام يعرف التشويه بأنه حدوث اضطراب في الوظيفة وليس مجرد تغيير في الشكل، وحسب معلوماته لا يؤدي ختَان الذكور إلى اضطراب وظيفي.

ويرى أبو الفتوح الفرق في اختلاف وعي الناس بطبيعة كل من ختَان الإناث والذكور. يضرب مثلا بنفسه، فمن خلال احتكاكه الشخصي بنساء كثيرات عرف إن الختَان يؤثر عليهن فعلا وأنه مسئول عن مشاكل تحدث بين الأزواج ويتم إخفاء هذا عمدا بسبب الخجل الاجتماعي، ولأنه من أصل ريفي عرف الأثر الذي يتركه ختان البنت على تكوينها النفسي فيما بعد، فقاومه في مجال أسرته، ويرى أن هذا موقف الكثير من المصريين لأن الشعب المصري يكره العنف بطبعه. أما ختان الذكور فالمعلُومات عنه قليلة والناس لا يفهمون بوضوح تأثيره على قدرة الرجل أو رغبته الجنسية، ويعتقدون أن شكل العضو المختن أنظف حتى بصرف النظر عن الأصول التاريخية للختَان أو نظرة الإسلام له، حتى وصل الأمر لدرجة إنه لا يُوجد من يفكر في الإبقاء على الغلفة.

وترى د. ليلى مناطق تشابه ومناطق اختلاف بين ختَان الجنسين. منطقة التشابه أن عملية الختَان نفسها فيها إهانة وفيها إذلال. نفس الكشف والتعرية إذلال، والقطع إذلال، وهذا جزء من بقايا العبودية. أمَّا الاختلاف الذي لا يجعلهما قضية واحدة من وجهة نظرها- هو أن الثقافة والمجتمع يقفان في صف الذكر، ويعطيانه سلطة رهيبة تعوضه عن هذا الإذلال، سلطة أبوية وسلطة

طبقـية وسُلطة في العائلة وسلطة في الـدولة. وقد نشطت د.ليلى ضد خـتان الإناث منذ فـترة طويلة، لكن وعـيهـا بِختَـان الذكور حديث، أتى خـلال السنوات القليلة الماضـية. تفسـر د.ليلى هذا الفرق في الوعي بِخـتَان الجنسين بأنها هي شخـصيًا مرت بتـجربة ختَانها كـفتاة، وكانت أليمة إلى حد أنها تشـبه هذه الذكرى بأنها دمل يطفو على سطح الذاكرة. وتفـسر تأخر وعيها ببشـاعة ختان الذكور بوجود تاريخ صراع بينها وبين شَقِيقها، ثم زوجها السابق، ورؤسائها، فنشأ صراع بينها وبين الرجال كنوع جعلها تكره جنس الذكور، فلم يكن عندها استعداد للدفـاع عنهم وتطبيقا لمبدأ ابدأ بنفسك ثم بمن تعول شعرت برغبة في إنقـاذ مثيلاتها من الفتيات، فلما شعرت بـأنها أدّت واجبها تجاههن، التفـتت للآخر، الذكر وتأسف لأن وعيها ببـشاعة ختَان الذكور أتى مـتأخرًا، وتبرر ذلك بأن الوعي يأتي تدريجيًا وليس فـجائيًا أما ما غير وعيـها بالنسبة للرجال فليس التصالح مـعهم، بل لأنها تخطت السن الذي كانت تتعرض فيه بكثافة للتحرّش في الطريق العام بسبب أنوثتها، وتقول أنها في هذه الفـترة كان من المسـتحيل أن تدافع عن الذكـور أما أكثر فـترة خلقت لديها الوعي بما يعـانيه الذكور من جـراء الختَان فهي فترة الأسبوعين اللذين تعذب فيـهما ابنها وتعذبت معه عقب ختانه «بقيت مُتضايقة وعايزة أقـتل دكاترة المستشفى» وبعد التئام جرح ابنها نست الموضوع في خضم مشـاغل الحياة، حتى طفا مرة أخرى على سطح وعـيها عندما أثيـرت قضية خـتَان الإناث. وقد

ساعدها على تبلور الوعي في الفترة الأخيرة توفر المعلومات عن وظيفة الغلفة ومضار ختَان الذكور، وهو ما لم يكن متاحا لها في الستينات عندما عانت تجربة ختَان ابنها، رغم أنها أثارت الموضوع في نقابة الأطباء وقتئذ، ولم تَستَطِع الدفاع عنه للنهاية لنقص معلوماتها: «الوعي الحقيقي نشأ في فترة ختَان ابني في أمريكا، هذا جعلني أغضب بشدة، وأرى إن فيه خطأ ما حصل ولازم أغضب منه لكن ما كنتش عارفة طريقي. مش قادرة أحط إيدي على المعلومات كنت دايما أقول حقنا نبطل ختَان الذكور، وأثرتها في نقابة الأطباء أيضا لكن كل الأطباء رواد محاربة ختان الإناث كما يقولون، أسألهم عن رأيهم في ختَان الذكور يقولوا ده مفيد جدًا ما فيش دكتور في مصر ممن يتكلمون عن ختَان الإناث قال إن ختَان الذكور مضر ولا واحد. فأنا كنت لما باتكلم كلهم يقولوا لي لأ لأ، فكنت باسكت، وهذا خطأ لكن متى تكلمت؟ لما بقى تحت يدي معلومات»

ويرى د. فهمي أن ختَان الذكور والإناث قضية واحدة لو نظرنا لهما من منظور حق السلامة الجسدية، لكنه صرح بأنه يتعاطف مع البنت لأنها أنثى، ولأن ختَان الإناث ضمن مؤشرات سيطرة الذكر على الأنثى، وضمن مُفردات القهر ورغم أنه يوافق على أن مسألة القهر والتحكم تنطبق على الطفل الذكر الرضيع الذي يتعرض للختَان، إلاّ أنه يرى أن الختَان لن يكسر هذا الطفل رغم كل شئ، لأن المجتمع يعطي ختَان الذكور قيمة إيجابية

ويعتبره مُسوّغ الدخـول لمجتمع الرجال. فالولد المختن عندما يصل إلى سن المُراهقـة، ويتـبـارى الأولاد في اسـتعـراض أعـضـائهم الخاصة، يبدأ في التباهي أمام زملائه بعدم اختلافه عنهم، مما يؤكد انتماؤه للجماعة. هذا لا يحدث في مُجتمع البنات بسبب اختلاف طريقة التربية التي لا تسمح لهن بالتعري واستعراض أجسادهن بين بعضهن البعض باعتبار أجسادهن منطقة محرمة ممنوع عرضها على الغيـر ورغم اعتـرافه بأن ختَـان الإناث -وسط الجمـاعات التي تتمـسك به- يعتبر هو الآخـر مسوغًا لدخـول عالم الأنوثة، وأن السيـدات في هذه المجتـمعات المحـليّة صرحن بأنهـن يخشين ألا يختن بناتهن حتى لا يكن مختلفات ويرفض الرجال الزواج منهن، إلا أنه يرى أن أثر فـعل الختَـان على الـصـغـيـر أخف منه على الصغـيرة، مع كل مـا يحاط به دور المرأة الجنسي ووضـعيتـها في المجتـمع من محرمات ودونيـة، وأنها كائن مفـعول به الـخ، لذلك يتـصور أن ختَـان الأنثى بداية سلسلة من القـهر النفـسـي الشديـد وهز صورتهـا عند نفسـها، وهو مـا لا يوجد في خـتَان الذكر، لذلك لا يساوي بين هاتين القضيتين، فيعطي لختَان الإناث أولوية.

وترى د. يارا أن ختَان الولد والبنت ليسا قـضية واحدة، لأنها تعتـقد أن الغَلَفَة ليست لـها وظيفة في الاتصـال الجنسي، وأن ما يقطع في ختَان الأنثى أنسجة حسّاسة مما يُسبب لها عاهة مُستديمة، وترى أن الحال ليس كذلك في الولد.

وترى د. سلمى أن الفَرق بين ختَان الجنسين يرجع إلى اختلاف الاستراتيجية الاجتماعية المستهدفة من ورائهما «أنا شايفة إن في الحالتين فيه درجة من التشويه بس فيه فرق، تشويه عن تشويه يفرق، ختَان الإناث يترتب عليه منظُومة كاملة من أشكال القمع ما يتهيأليش إنَّها موجودة في ختَان الذكور، يعني ختَانهم لا يترتب عليه أي قيود بعدها، مش علشان الولد اتطاهر لازم يتلم مثلا» فرق آخر هو اختلاف قسوة العقاب الاجتماعي المتوقع من إهمال ختان البنت أو الولد، فهو أقسى في حالة البنت «العقاب الاجتماعي في حالة عدم طهارة البنات فيه إدانة أخلاقية، بالنسبة للأولاد ما فيش هذا، حتى لو فيه تعليق على اختلاف الشكل لن يكون فيه تعليق على توقّعات السلوك الجنسي أو استنتاج» وبناء على هذا الفرق ترى فرقا آخر يتعلق بمدى صعوبة مواجهة النوعين من التشويه البدني: ده معَناه إن صعب قوي تبطلي طهارة البنات لأنك مش مقدمة بديل للعقاب الاجتماعي، مش مقدمة محكمة عادلة بديلة، بتحاولي تخلي الناس رواد، وهذا صعب وختَان الأولاد برضه محتاج رواد يقدروا على تحدّي أن يكون الفرد مختلفا، بس ما لهاش حكم قيمة على الأخلاق» وتقرر د. سلمى أنها لا يمكن أن تبادر بمحاربة ختَان الذكور كما تفعل في ختَان الإناث، رغم أنها إذا قرر الذكور تكوين مجموعة لتنظيم حركة ضد ختَان الذكور ستُساندهم للنهاية، لكنها لن تأخذ المبادرة ومبررها الأساسي أنها ليست ولدًا، ففي الحركة ضد ختَان

الإناث يمكنها أن تدخل في الموضوع بشكل شخصي وتحكي تجربتها كامرأة غير مختونة كما تحكي النساء المختتنات عن تجربتهن، وهو ما لا يتوافر للرجال الذين يشاركون في حركة مناهضة ختَان الإناث، فهي ترى أن الرجال يخشون الخوض في مشاكلهم الجنسية، ومن الصعب أن يقف رجل ليقول علنا أنه يعاني من مُشكلة بسبب ختانه، ومن هنا تأتي صعوبة تنظيم حركة ضد ختَان الذكور، لأن الذكور يفترضون أن حالتهم الجنسية يجب ألاَّ تكون موضع شك أو تساؤل. علاوة على ذلك ترى د. سلمى أن التحرك ضد ختَان الإناث سيجلب تغييرًا في حياة النساء ويكسر قيودًا تكبلهن ويجلب لهن حقوقًا جديدة، وكل هذا لن يتحقق لو اهتمت النساء بمكافحة ختَان الذكور ورغم أن د. سلمى اختارت ألاَّ تشارك في ريادة حركة ضد ختَان الذكور إلاَّ أنها ليست ضد قيام هذه الحركة، ولا ترى أنها ستضر بقضية ختَان الإناث، لأن من الأفكار الأساسية في حملة مكافحة ختَان الإناث فكرة مُعارضة تغيير الخلقة التي خلق عليها الإنسان، والفكرة المُقابلة هي ختان الذكور، وسوف تؤكد حركة مكافحة ختَان الذكور هذه الفكرة.

وترفض حورية الخلط بين قضيتي ختَان الإناث والذكور، فهي ترى من وجهة نظرها أن قضية ختَان البنات أعمق وأضر ولا تتساوى مع ختَان الذكور، فهي ترى أن المساواة بينهما سيميع قضية ختَان الإناث. تبرر حورية موقفها بأن مؤيدي ختَان الذكور يسندهم اقتناع ديني وأيضًا اقتناع تاريخي، لذلك تتوقع أن تكون

المعركة ضد ختَان الذكور أعنف وأقوى من ختَان البنات، وتعتقد أن الأدوات التي يستخدمها معارضو ختَان الإناث ستكون ضعيفة في معركة ختَان الذكور لأن المعلُومات عن وظيفة الغلفة لم تكتشف إلا حديثًا ولا يعرفها الكثيرون، كما أنها لم تسمع شكاوى من عواقب الختَان من أي رجل من معارفها، بينما اشتكت الكثيرات من النساء المختتنات. وهي تُخمن أن جهل الرجال بالفرق بين الوظيفة الجنسية في وجود الغلفة وغيابها قد يكون أحد أسباب عدم شكواهم، لكنّها ترفض تبني هذه القضية لأنها لا يمكن أن تتبنى كلّ قضايا المُجتمع ويجب أن تضع أولويات.

أما د. خديجة فتعتقد أن وظيفة الغلفة ليست بأهمية وظيفة البظر، وأن وجودها أو غيابها لن يؤثر كثيرًا، وأن هذا فرق هام بين ختَان الإناث والذكور من الفُرُوق الأخرى التي تراها د. خديجة أن الأطباء في مصر ما زالوا يجهلون ما يعرفه الآن كل أطباء أوروبا عن أهمية الغلفة وأنها لا علاقة لها بالسرطان، وترى فرقًا آخر وهو أن الناس هنا يؤمنون أن ختان الذكور أمر ديني، عكس الأوروبيين، حتى اليهود منهم الذين يوجد في كتابهم المقدس نص، يعترفون بوجود النص ويفسرونه على محمل لا يوجب الختَان على الرجال في كل زمان ومكان. تعتقد أيضًا أن لدينا في موضوع ختَان الإناث آراء وأحاديث مختلفة وخلافات فقهية، ممّا يُمكننا من الاعتماد على هذا الخلاف في مناقشة الناس

والتشكيك في الختَان بالنسبة للبنات، لكنها تعتقد أن جميع الفقهاء متفقون على ضرورة ختَان الذكور

وسامية لم تحسم موقفها، لذلك هي في حيرة، حتى في استخدام المصطلحات، فلو استخدمت عبارة التشويه الجنسي لوصف ختَان الذكور لدلَّ هذا على موقف ضد الختَان، ولو استخدمت لفظ طهارة لعني هذا أنّها تعطيه صبغة إيجابية بصفته نظافة تقول سامية أنها تضع قضية ختَان الذكور في سياق أولويات. يعني لو كنا نعيش في عالم مثالي لقالت إن ختَان الذكور أمر بشع، ولو أنها لا تعتبره بنفس قدر بشاعة ختان الإناث لكنها لا تعتبره أولوية حاليا تبني سامية أولوياتها على اعتبارين يتعلقان بفرقين بين ختَان الإناث والذكور الاعتبار الأول أن الأسباب التي يجرى من أجلها ختَان الإناث مختلفة تمامًا عن أسباب ختَان الذكور، بحيث يخدم استمرار ختَان الإناث ترسيخ توازنات القوى في العلاَقة بين النوعين لصالح التمييز ضد المرأة، أما ختَان الذكور فلا يقصد منه إرغام الأولاد على عدم تعدد علاقاتهم الجنسية أو ضمان عدم انفلاتهم جنسيًا كما هو الحال في ختان البنات، بل يجرى لأسباب صحية أو دينية، وليس لتكبيل النزعات الجنسية للذكر لذلك ترى في ختَان الإناث أبعادًا لا تراها في ختَان الذكور، هي التمييز ضد المرأة والعنف ضد النساء أما الاعتبار الثاني فهو اعتبار عملي، فسامية تُريد أن يسمعها الناس الذين تخاطبهم في قضيّة ختَان الإناث، فلو خاطبتهم أيضًا

في ختَان الذكور فإنها تتوقع أن يعتدوا عليها بالضرب وينصرفوا عنها تبني سامية هذا التوقع على أساس أن ختَان الذكور عادة مقبولة اجتماعيًا وتشكل جزءًا من الحياة اليومية للناس، وأنه لم يسبق أن تحداه أحد، عكس ختَان الإناث الذي شهد جهودًا ضده في مصر قبل مؤتمر السكان، وبالتالي لا يُوجد أساس سابق لمحاربة ختَان الذكور لتبني عليه جهودًا جديدة، كما هو الحال مع ختَان الإناث. وهكذا، ترى أن الحديث عن ختَان الذكور بينما نعمل ضد ختَان الإناث سيفقدنا مصداقيتنا لأننا نهز اقتناعات لم يهزها أحد من قبل علاوة على أن محاربة ختَان الجنسين معًا يعني أننا نطرح تماثل العمليتين بينما هما مختلفتان تشريحيا من وجهة نظرها، كما أنها لم تسمع رجالاً اشتكوا بسبب ختَانهم، ولا يوجد رجل يجد صعوبة في الوصول لذروة الإشباع الجنسي لأنه مختن. وهي تخمن أن سبب صمت الرجال ربما كان أن الختِان يجرى لهم في سن مبكّر، لكنها على أي حال تقول إن ختَان الذكور لم يصدمها كما صدمها ختَان الإناث.

سادسا: الاتجاهات نحو فكرة الجراحة الوقائية

من المُبررات التي تذكرها المراجع الطبية لختَان الذكور أنه عملية وقائية، ضد الالتهابات أو السرطانات، أو الأمراض المنقولة جنسيا ولما كانت فكرة استخدام الجراحة للوقاية من الأمراض مثار جدل بين المهتمين بأخلاقيات مهنَة الطب، فقد سألت المثقّفين/المثقّفات العاملِين بمهنة الطب عن موقفهم منها. كل

المثقّفين/ المثقّفات من الأطباء والطبيبات بلا استثناء قالوا إنهم لم يسبق لهم أن أجروا جراحات لأشخاص لا يشكُون من أعراض ولا تظهر عليهم عَلاَمات مرضية، عدا الختَان. ولما كان الأطباء يعرفون أن بالجسم أنسجة أخرى عرضة للالتهابات كالجفون والأسنان وأعضاء معرضة للسرَطان كالثدي والبروستاتا وممكن أن يعيش الإنسان بدونها فقد طَرحت عليهم السؤال كافتراض نظري، بغض النظر عن تجربتهم العملية، هل يُوافقون على استئصال هذه الأعضاء والأنسجة روتينيا بغرضِ الوِقاية؟ انقسم المثقّفون/ المثقّفات الأطباء إلى فريق يقبل إجراء جراحات وِقَائية في بعض الحالات وأطباء يرفُضون الفكرة تمامًا على المُستوى النظري كما يرفضونها على المستوى العملي

يقول د. فهمي أنه ممّن يرفضون فكرة الجراحة الوقائية، ولم يكن ليجريها لو عرض عليه ذلك، ويفسر موقفه بأنه أثناء دراسته قرأ كلمة لمفكر اسمه سير أوسبر تقول: «الطب مهنة نبيلة لأنه يهدف إلى القضاء على سبب وجوده، وهو أيضًا مهنة عظيمة لأننا حراس الحياة»، ويقول أن هذه الكلمة علقت في ذهنه وحددت اتجاهه والتزامه الأخلاقي في مهنة الطب. لكنه لم يكن يرى أن هذا الاتجاه يتعارض مع الختَان، أن يجلب له الأهل طفلاً سليمًا ليست به أي علامات مرضية ويطلبون منه أن يقطع غلفته فيلبي طلبهم. ويبرر عدم التناقض بأنه كان يُعتقد أن الختَان ليس جراحة بالمعنى المفهوم، فهو كقص الأظافر وقال أنه يصف بهذا الكلام

وعيه حين تدرب على الختان، أما الآن، بعد أن ازداد استيعابه لكلمة أوسبر، فيعتقد أن الأظافر لا تستوي مع الغلفة، لأن الأظافر ليست بها أعصاب ولا أوعية دموية. وأضاف أنه أدرك وقتها أن الختان كعملية لا تهدد الحياة حيث أنه كان يسمح لأطباء الامتياز المتدربين بعملها، في حين يعلم أنه ليس من المسموح للمتدرب بإجراء جراحة تهدد الحياة.

لكن د.حازم ممن يقبلون الجراحة الوقائية في بعض الحالات، ويقول أنه ليس وحده الذي يقبل إجراء جراحات لأشخاص لا يشكون مرضًا، ويضرب مثلا بزرع كبسولات لمنع الحمل تحت الجلد للسيدات، وهي جراحة صُغرى على أي حال، وإن كانت ليست بنفس تعقيد عملية ختَان الذكور ويرى أن هذا ثمن تدفعه السيدة مقابل القيمة التي ستحصل عليها من وجهة نظرها ووجهة نظر المجتمع، وهي قيمة أكبر من الخطر الذي قد تتعرض له بسبب جراحة صغرى. لكنه يقول أنه لا يمكن أن يجري هذه الجراحة إلاَّ لسيدة راشدة قادرة على التميز والاختيار يرى د.حازم أن الغلفة فريدة من نوعها، فهي الجزء الوحيد الذي يقبل استئصاله دون أن يكون مصابًا بمرض. ويشبه الختَان بحالة استئصال الزائدة الدودية دون أن تكون ملتهبة في حالة إجراء جراحة يفتح فيها الجراح البطن لأي سبب آخر، فينتهز هذه الفرصة لإزالة الزائدة الدودية وقاية من احتمال التهابها مستقبلا

ويرفض د.نادر إزالة أعضاء كالثدي أو البروستاتا وقاية من

السرطان لأن إزالتها سيؤثر على الجسم لوظائفه، لكنه يرى فيما يخص ختان الذكور أن الإجراء لو تم بشكل مضبوط فلا يوجد تحت أيدينا ما يثبت أن له أي مضار.

أما د. نظمي فيجري ختان الذكور لأنه يعتقد أنه سنة عن الرسول وفيه نظافة وأهل الطفل يطلبونه بإلحاح، لكنه يرفض إجراء ختان الإناث رغم أن أهل البنت يطلبونه أيضا بإلحاح ويعتقدون إنه سنة، لأنه شخصيا لا يُشاطرهم هذا الاعتقاد، كما أنه يرفض فكرة إجراء أي جراحات أخرى لدواعي تتعلق بالمعتقدات، كما يرفض فكرة الجراحة الوقائية، ويؤكد أنه ينبغي عدم المساس بالثدي والبُروستاتا مثلاً بالمشرط دون سبب لأنهما أنسجة وأعضاء ذات قيمة، يقول أنه لا يمكن المُقارنة بين الغَلَفة والبروستاتا، فهو يرى البروستاتا مهمة للذكورة والغَلَفة لا أهمية لها ورغم إصرار د. نظمي على أن ختان الذكور سنة مُؤكدة، إلاّ أنه يجهل الجدل الذي دار بين الفقهاء والعلماء منذ مئات السنين بخصوص علاقة الختان بالشريعة أو عدم علاقته بها

د يارا لم تُجر أبدًا جراحات وقائية، لكنها تقول أن هناك آراء مختلفة حول استئصال الرحم بعد انقطاع الدورة. يقول أحد الآراء أنه ليس من حق الطبيب إزالة جزء من جسم إنسان طالما هو طبيعي وسليم، ويقُولُ الرأي الآخر أن من حقّ الطبيب أن يستأصلَه لأنه بذلك يريح المرأة من احتمال الإصابة بالسرطان ترى د. يارا أن المرأة تحتاج رحمها لمجرد إحساسها إن عندها رحم.

وتستشهد بحالة مريضة كانت تعاني من أورام ليفية مع سقوط في الرحم، وقد تجاوزت الأربعين وانقطعت عنها الدورة الشهرية، ورأى الأطباء استئصال رحمها، فبكت، فاكتفى الأطباء بإزالة الأورام. وتقول د.يارا أن هناك خلافًا لم يحسم في هذا الموضوع يقول بعض الأطباء بإزالة الرحم والمبيضين إذا كانت المرأة قد تجاوزت الأربعين من عمرها بدلاً من إصلاح السقوط الذي تعاني منه، وبذلك، يتخلص الطبيب من مشكلة السقوط، ومن الرحم برمته لاحتمال خطر الإصابة بالسرطان الذي تزيد نسبته في هذا السن ورغم اتجاه د.يارا للحفاظ على سلامة جسد السيدات في الحالات التي ذكرتها، إلاَّ أنها قبلت إجراء ختَان الذكور، بدافع اعتقادها أنها تحمي النساء اللاتي سيقترن بهم هؤلاء الأطفال في المستقبل من سرطان عنق الرحم، لذلك لم يكن عندها غضاضة في فكرة حتمية ختان الذكور، ولم تكن تتوقف عند صراخهم، فعلى حد قولها، عودتها مهنتها على سماع الصرخات، فكثيرًا ما تقوم بشق العجان بالمقص بدون تخدير أثناء توليدها للحوامل بسبب قصور إمكانيات المستشفيات الحكومية ورغم أنها تتألم لألم السيدة، إلاَّ أن عليها أن تتصرف حتى بلا مخدر مما يخفف عنها أنها لا تجري شق العجان روتينيًا بلا ضرورة، لكن غيرها من الأطباء يجرونه. ترى د.يارا أن لحظة الألم والظلم اللي يتعرض لها الولد عند تكبيله وقطع غَلَفته هي نفسها اللي تتعرض لها السيدة مع قص العجان بلا مُبرر كلاهما

مغلوب على أمره لداع غـير مطلوب. وتعتقـد د.خديجة أن إزالة
أي عضـو دون علة مناف لأخـلاقيات مـهنة الطب. وتبـرر عدم
انطباق هذا المبدأ الأخلاقي على ختَان الذكور بأنه ليس ممارسة طبية
لينطبق عليها مبادئ ممـارسة المهنة، لكنه إجراء اجتماعي أو ديني
يشارك فـيه الأطباء لأن الطبـيب جزء من المجـتمع ككل، فلم لا
يُزيل هذا الجزء لأن هذه مسألة مـقبولة اجتماعيًا وأخـلاقيًا ودينيًا؟
لم لا؟ ثم تقول أن رأيها الشخصي أن من المنافي أيضًا لأخلاقيات
المهنة القـيام بـإزالة أي جزء من الجـسم إلاَّ لو ثبت إنه سيسبب
مشكلة رغم ذلك قبلت إجراء الختَـان في فترة التدريب لأنه
من تدريبهـا ولأن الختَان كان مســألة مقبولة من الجـميع في وقت
تخرجها في السبعينات.

(٢) استجابات المثقفين/المثقفات بعد إعطائهم معلومات عن ختان الذكور

بعد أن أعطيـت المثقّفين/المثـقّفات مـعلُومات عن أحـدث
توصلت إليه العلوم الطبية بخصـوص تركيب ووظيفة غلفة الذكر،
اختبرت احتمالات تغيـر اتجاههم نحو ختَان الذكور على المستويين
الخاص والعام فعلى المُستـوى الخاص حاورتهم حول ما يرجح
يفـعلوه بعد حـصولهم على هذه المعلُومـات لو أنجبـوا ولدًا أو لو
سمعوا بأن أحد معـارفهم ينوي تختين ولده وعلى المستوى العام
حاورتهم حول اختيارهم للصمت أو الكلام لو سمعوا شخصًا في
ندوة يقول أن ختَان الإناث ضار لكن ختَان الذكور مفيد.

أولا: احتمالات تغير الاتجاه الشخصي نحو ختان الذكور

لاستكشاف السلوك الذي يرجح أن يأخذه المثقّفون/ المثقّفات تجاه ختَان الذُكُور بعد حُصولهم على المعلومات الجديدة، سألتهم عن التصرف الذي يعتقدون أنهم سيأخذونه لو أنجبوا ولدًا جديدًا أو لو سمعوا بأن أحد معارفهم ينوي ختَان ابنه. من بين المثقّفين/ المثقّفات واحدة (حورية) رفضت بإصرار معرفة أي معلومات جديدة، لأنها تَرَى أن هذه المعرفَة ستضعها أمام مسئولية تحرك وهي مثقلة بكثير من الأعباء وليست على استعداد لا للحركة ولا لمعرفة المعلومات حتى لا يحمل ضميرها عبء السكوت بعد معرفتها بعد استبعاد حورية، يكون ٢٢ من المثقّفين/ المثقّفات قد تلقوا معلومات، تعتبر جديدة عليهم بدرجة أو بأخرى، لأن منهم من كان على علم ببعض هذه المعلومات قبل الالتقاء بي، مثل نوسة ود خديجة ود ليلى ود نظمي ود حسام ود يارا، لكنهم جميعا لم يكونوا على علم بكل التفاصيل التي نقلتها إليهم عن تركيب ووظائف الغَلَفة، ومُضار الختان، ونسبة انتشاره في العالم ٨ من المثقّفين/ المثقّفات، معظمهم من الرجال (٦ جال) قالوا أنهم مقتنعين نظريًا بالمعلومات لكنهم ما زالوا مترددين في وضعها موضع التنفيذ العملي، و١٢ منهم، معظمهن نساء (٨ نساء)، قالوا أنهم لن يختتنوا أو ينصحوا بِختَان أطفال ذكور بعد هذه المعلومات، ورجلان صرحا بأنهما سيختنان أي طفل أو ينصحان بِختَانه رغم المعلومات. وفيما يلي وصف لمبررات أصحاب كل موقف:

قال بعض المثقّفين/المثقّفات أنهم لا يعرفون ما قد يفعلونه، أو أنهم سيترددون في النصح بعدم الختَان. سبب التردد عند صلاح أن هذا الموضوع شائك في المجتمع المصري لأن صورة الذكورية متضخّمة جدًا لدى الشعوب العربية بما يجعل من الصعب المساس بالتصور المستقر في الأذهان عن صورة الذكر

ود. نادر يتردد في نهي من يرزق من معارفه بولد عن ختَانه، حتى بعد أن عرف لمحة عن أهمية الغَلَفة، لأنه لا يمتلكُ بعد ما يكفي من معطيات تقنعه أن الختَان ليس ضروريًا للصحة، على عكس ما درسه في كلية الطب لذلك قد يجرؤ على مفاتحة بعض الأقربين الذين يتوسم فيهم إمكانية فهمه ويلخّص احتياجاته لخوض هذا الموضوع في مزيد من المعلومات، وجرأة على أخذ مسئولية نقلها للآخرين

ويفسر د حسام تردده في الوقت الحالي في الحديث مع من يرزق بولد من معارفه بأنه لا يكفي له أن يسمع لمحة عن المعلومات الجديدة، بل يحتاج لأن يطلع بنفسه على المراجع التي وردت بها هذه المعلومات، ويقيّمها، ومن خلاصة دراسته يستنتج ويقتنع (أو لا يقتنع) بأن الختَان غير ضروري وضار بالذكر لكنه من جهة أخرى لا يمكنه تجاهل ما سمعه من معلومات خلال مُقَابلتي معه، لذلك يقول أنه لو سمع الآن أحدًا يقول أنه ينوي تختين ابنه فلن يقف مكتوف اليدين، لكنه لن يعطيه رأيًا حاسمًا سيقول له أن المسألة صعبة جدًا وخبرة عنيفة يمر بها الطفل. وهو

شخصيا لا يعرف بحسم ماذا سيفعل لو أنجب ولدًا ثانيًا، ويقول أن المسألة صارت أصعب بعد أن ختن ابنه البكري بالفعل، فهذا الوضع يشكل له ضغطًا لجعل الأخوين متشابهين.

ويقول سيف أنه لابد أن يُراجع نفسه بعد هذه المعلومات، ويعيد النظر في موقفه السابق المحايد من ختَان الذكور، و يأخذ تجاهه موقفًا مُحدّدًا كما يفعل في معارضته التامة لختَان الإناث أما لو أنجب ولدًا جديدًا فما زال بحاجة لأن يفكر ويسأل أطباء، وليس أي أطباء، بل أطباء مستنيرين.

ويقرر مصطفى حاجته لمزيد من القراءة المدققة حتى يتأكد بنفسه أن عدم الختَان لن يسبب للطفل مشاكل بسبب اختلافه عن أقرانه، ولن يكون عائقًا اجتماعيًا يُعرقل زواجه عندما يكبر ورغم ميل مصطفى لمراجعة موقفَه بعد علمه بالمعلومات الجديدة عن وظائف الغَلَفَة، إلاَّ أنه يرى أن واقع وجود ٣ مليون شاب مختن في مصر يجعل من الصعب النصح بعدم تختين المواليد الذكور.

أما سبب تردّد أبو الفتوح هو احتياجه لبعض الوقت كي يدرك الحقائق الجديدة التي سمع لمحة سريعة عنها يرى أبو الفتوح أن لديه حاليًا نقاط قوة تدفعه نحو مُعارضة ختَان الذكور علنًا، ونقاط ضعف تغريه بالسكوت عنه لفترة. من نقاط القوة أنه اكتسب وعيًا بحقوق الإنسان والبيئة جعله ضد الاعتداء على الجسم البشري بشكل عام، أو على الطبيعة أو على الذهن الإنساني. أما ما قد يجعله مترددا فهو الخوف من الاختلاف،

واعتقاد العامة -الذي لا يُشاركهم إياه- أن الختَان أمر ديني. لكنّه يقول أنه بعد الاطلاع على صورة الأعضاء الذكرية في حالتها الطبيعية لا يجدها بشعة المنظر ولا يجد فرقًا كبيرًا بينها وبين صورة الذكر المختن كما يتصور الناس، بل يرى أنَّ فكْرة الاختلاف قد تكون لطيفة وليست بشعة، فمن الممكن أن يكون الاختلاف علامة على التميز وليس فكرة محرجة. وتقول د. سلمى أن المعلومات التي حصلت عليها أثناء لقائنا جعلها تتشكك في موقفها من قبول ختَان الذكور، لأنها لم تكن تتخيل أن ختَانهم بهذه الدرجة من الضرر وعدم الضرورة، لكنها تقول إن المعلومات ليست كافية لجعلها تحسم الأمر على المستوى العملي، لكنها جعلتها ترى جديًا أنه ليس من حقّ الأهل أخذ قرار ختَان الولد نيابة عنه. وتقول د. أفكار أنها مقتنعة نظريًا بالمعلومات الجديدة، لكنها ليست مقتنعة بالامتناع عن ختَان الطفل ولو أنجبت ولدًا جديدًا فربما تختنه خضوعًا للرغبة الاجتماعية، لكن ليس دون تردد هذه المرة.

وقال بعضهم إنهم سوف ينصحون غيرهم بعدم الختَان، ولو رزقوا بولد بعد ذلك لن يختنُوه. قال فتحي أنه لن يتردّد في إخبار من يقول أنه سيختن ابنه بأن الختان عادة بلا أساس وليس من المفروض عليه أن يجريه لابنه

وقال سعيد بصريح العبارة أنه لو أنجب ولدًا بعد حصوله على هذه المعلومات فلن يختنه نهائيًا، بل ربّما يسعى لإجراء عملية استعادة الغَلَفة لابنه الذي ختنه. كنت أجري اللقاء مع سعيد في

مقر عمله، وبعد إخباره بالمعلومات الجديدة، نادى فوراً على أحد زملائه الذي ينتظر حادثًا سعيدًا وأخبره بالمعلُومات ونصحه بعدم ختَان المولود المرتقب فسألته أليس خائفًا على هذا المولود من الاختلاف؟ فأجاب: «لا كدة الواحد يقاوم، المعرفة تسنده، لما يقول كذا كذا للولد ونفهمه يقول للناس، لكن الواحد ما كانش واعي، لكن زي وعي الواحد بضرورة إن البنت ما تتختنش تخليه يقدر يدافع عن حقها، دلوقت بمعرفَتِي بأضرار ختَان الذكور أقدر أدافع وأعلم ابني إنه يُدافع عن حقه لأن فيه أسباب علمية ومنطقية لذلك» وقال د. فهمي أنه الآن على استعداد لمناقشة أي شخص يسمع أنه سيختن ابنه، ويسأله عن مبرراته ويخبره بهذه المعلومات، لأنه يرى أن من يعرف هذه المعلومات من واجبه بثّها لغيره، لأن الختَان عادة انتقلت إلينا عبر الأجيال السحيقة والناس يجرونها دون أن يعرفوا سببًا لتَمَسُّكهم بها ولا معنى لها

وقالت نهال أنها لو سمعت الآن بنيّة أحد لتختين ابنه ستخبره بالمعلومات، بل أنها تفكر في كتابة مقال عن الموضوع ونشره في الصحافة لتخبر العامة بما عرفته.

د. يارا قالت أنها ستُخبر من ينوي ختان ابنه أن هناك كلامًا قيِّمًا يجب أن يقرأه أولا قبل أخذ قرار الختَان، وقالت أنها ستبدأ بالفعل في جمع معلُومات من شبكة الإنترنت وتحاول توصيلها لغيرها.

أغرورقت عـينا د. منى بالدموع بعـد معرفـتها بـالمعلومات، وقالت بدهشة: «معقولة!!!»، وأضافت أنها ستوّصل ما عرفته لمن ينوي تختـين ابنه «حاديله المعلومـة اللي أنا اتعلمتـها مش ممكن بإيدنا نقطع حتة بتحس من جسم أولادنا شئ بشع»

وقالت نوسـة أنها ستـبدأ منذ الآن في نصح الأصدقـاء بعدم ختان الأولاد، وأن إصـرارها على إسداء هذا النصح سيكون الآن أقوى من قـبل معـرفتـها لهـذه المعلومات. ورغم أن دينا تـتوقع السخرية ممّن ستُـخبرهم بهذه المعلومات إلاَّ أنها تقول أنها سـتبثها لمعارفها، لكنها تريد أولا أن تقـرأ المَزيد من المراجع وتقوم بتبسيط المعلومات كمـا فعلت أنا معهـا «الشرح إللي شرحتـيه لي ده مهم جدًا طبعًـا حا يبقى فيه ضـحك علي كتير لكن أعـتقد إني لازم أنقل هذه المعلومات بأمانة»

أما د. خديجة فترى أن الواجب الأخلاقي للطبيب يحتّم عليها عدم إخـفاء ما وصلها من مـعلومات، لكنها ترى أن تتـسلّح قبل ذلك بمزيد من المعلومات.

وترى عايشة أن المعلومات التي عرفتـها في الجلسة فسرت لها الكرب الذي عاناه ولداها من الخـتان، وأنها كافـية لتجعلهـا تعيد التـفكيـر بجـديّة، وتتـشـجّع على مُـواجـهـة فكرَة الخـوف من الاختلاف. وبالتالي، لو سمعت أن أحدًا ينوِي تختّين ابنه ستخبره أن عليـه أن يفكر في المـسألـة، ولن تتـردد في تزويده بأي كـتب يمكنها الحصول عليها بخصوص وظائف الغَلَفة وأضرار الختَان.

وقالت سامية أنها لو سمعت بنَيّة أحد معارفها لختَان ولده فستوفر له المعلومات الجديدة وتناقشها معه، أما لو أنجبت هي شخصيا ولدًا فسيزداد ترددها في تختينه. وقد بدأت د. ليلى بالفعل في نشر ما لديها من معلُومات على العامة بكل الطرق الممكنة.

طبيبان قالا أنهما سوف ينصحان غيرهما بالختَان ولو رزقا بولد بعد ذلك فسيختنانه يرى د. حازم أن المعلومات التي حصل عليها لم تغير السبب الذي يرى الختَان ضروريًا في ضوئه فكرة المسايرة، ويقول بإصرار «رغم أني لا أعتبر نفسي مُسايرًا للقيم السائدة إلاَّ أني لا أحب أن أدخل ابني في هذا النوع من الصراع»

ويرى د نظمي أنه عندما يرزق بحفيد فسيختنه، فرغم هذه المعلومات، ما زال يعتقد بوجوب ختَان الذكور لأنه يُؤمن بأنه سنة مُؤكدة عن الرسول.

ثانيا: احتمالات تغير الاتجاه العام نحو ختان الذكور

يقول صلاح أنه ممن سيتكلمون، فلا فرق بين ختَان الجنسين، وأنه الآن مستعد لبث هذه المعلُومات ومجَادلة من يدافع عن ختَان الذكور، لأنه يرى إن العلم سيد الموقف، والإنسان يطمحُ لازدياد إحساسه واستمتاعه بالحياة، وتوفير الجهد، وتحصيل نتائج أفضل. فإذا قال العلم بأسانيده أن الغَلَفة لها وظيفة تزيد الاستمتاع واللذة

فسيحاول جاهدًا أن يُوقِف هذه المذبحة. وهو لا يرى إن الحديث عن ختَان الذكور سيجعلنا نخسر ختَان الإناث، فالقضيتان في رأيه متساويتان ومعادلتان للحرية والديموقراطية، وحقوق الإنسان، من حيث وَضَعَه كفردٍ بالنسبة للجماعة، وحريته في أن يمتلك جسمه.

وقال فتحي أن موضوع الحديث في ندوة ليس مجرد فكرة نظرية، فقد حدث هذا فعلاً معه، فقد فتح الموضوع في اجتماع لمجموعة معنية بحقوق الأطفال، وقال لو كنا نتناول ختَان الإناث من منظور الحقوق فلا يوجد أي فرق بينه وبين ختَان الذكور لأن موضوع حق الطفل واحد للجنسين، فلا يصلح أن يأخذ أحد موقفا ضد ختان الإناث وفي الوقت نفسه يؤيد ختَان الذكور لكن المجموعة اتفقت -لاعتبارات عملية - على التركيز على ختَان الإناث فقط لأن أفرادها رأوا أن المشكلة ستكون أكبر بكثير لو حاولوا تناول الموضوعين معا يتفق فتحي مع رأي المجموعة، ويعرض ما له وما عليه يقول فتحي أننا لو أخذنا الموقف العملي (براجماتي) تكون هذه الفكرة صحيحة لأن الأسهل بالنسبة للعمل التركيز على قضية واحدة، أما لو أخذنا موقفًا أخلاقيًا يرتكز على منظور الحقوق فلا أساس للتفرقة بين ختَان الذكور والإناث. يرى فتحي شخصيًا أنه ما دام الموضوع موضوع حقوق فختَان الإناث والذكور قضية واحدة، لكنه يفسر المبرر العملي الذي تتذرع به مجموعته للاقتصار على مُكَافحة ختَان الإناث، وهو أنهم يرونه قضية نوع (جندر)، أي أنها ظلم للنساء وأكثر ضررًا بكثير من

ختَان الـذكور نتيجـة أنه يعمل في سن الوعي فيه أكـمل وبالتالي الضرر النفـسي أكبـر بكثير، و الإحـساس بالقهـر بسبب مـبررات عمله، فهو أهم أن نحاربه بشكل أسـرع لهذا من الأفضل عمليًا واستراتيجيًا أن نركز على ختَان الإناث حتى ننجح في القضاء عليه ثم نأخذ مـوقفًا من خـتَان الذكور فـيما بعـد. ويشبه فـتحي هذا الموقف العملي بموقف آخـر، هو استراتيجـية القضاء على عـمالة الأطفال، حـيث يتدرج العاملون فـي هذا المجال في وضع حلول وسـيطة وتناول القـضـية بمنـظور تدريجي لأنهم لن يقـدروا على إنهائها تماما بالفعل ولما جادلتـه في أن المهتمين بعمالة الأطفال لا يفرقون بين عمالة الولد والبنت، وافـقني وقال أن السبب أن قضية العمالة ليس مطروحا فيها موضوع النوع، لكنه يعتقد أن تأثر الفتاة بالصدمـة النفسية والاجتـماعية للخـتَان أكثر بكثـير من تأثّر الولد لاختـلاف المرحلة السنية التي يتم عندها خـتَان النوعين. ويرى أنه لو توفرت حقـائق موثقة عن وجود أضرار لختَـان الذكور، كالألـم والنزف والوفـاة والصدمـة النفـسيـة وغيـرها لوجب عليـه وعلى مجـموعتـه مراجعـة موقفـهم العملي. ورغم ذلك يرى فـتحي الحصول على معلومات عن نسبة انتشار ختَان الذكور في مصر قبل البدء في محاربته لمعرفة هل هو مشكلة ذات حجم يستدعي العمل ضده أم لا ويظل فتحي يرى أن إدخَال ختَان الذكور في الموضوع قد يؤثـر على مدخل مـحاربة ختَـان الإناث من وجهـة نظر حق السلامة الجسـدية للمرأة. ولأن فتحي يرى أن التضحـية بالسلامة

الجسدية للذكور ليست شرطًا لتحقيق السلامة الجسدية للنساء، فهو يرى أن خُلاصـة كل هذا الجدل تتلخص في المدخل الصحيح هو محاربة الختان من مدخَل الحقوق المتساوية للجنسين، أي أنه يرد على نفسه بنفسه.

ويقول سعيد أنه لو حَضر ندوة بعد أن علم وظيفة الغلفة سيتكلم ويؤكد للحاضرين أن وجودها لا ينتقص من الرجولة يرى سعيد أن ختَان النوعين قضية واحدة تتعلق بحق الذكر والأنثى في اللذة، فمبدأ اللذة مهم في الحياة، إذا ضاع يخرج للمجتمع ناس مضطربون ذوو سلوك مضطرب، كائنات شائهة. لذلك يجب أن يكتمل جسم الإنسان لتكتمل وظيفة اكتساب اللذة، ويرى أن واجبنا كمثقفين نشر ما لدينا من معلومات. وتقول د. يارا: أنها ليست من النوع الذي يسكت على الحق. لذلك ستتحدّث لو أثير الموضوع في ندوة، وتوضح أن ما يروج عن ضرورة ختان الذكور كلام قديم.

ولا تخشى د. يارا على قضية ختَان الإناث، فهي لا ترى علاقة تحتم قبول ختان الذكور لمحاربة ختَان الإناث. وتقول نهال أنها ستتكلّم في الموضوع، لأنها تعتبر كتم المعلُومَات عن الناس نوعا من النذالة والأنانية

أما د. منى فتقول أنها مستعدّة لبث المعلُومات الجديدة في ندوة، بل فعلت ذلك بالفعل حين سمعت شخصًا يردِّد معلومات

قديمة مغلُوطة عن الفوائد الصحية للختان فردت عليه بأن هذه المعلومات قديمة عفا عليها الزمان. وتقول د.منى أنه كما كان الناس يتعاملون مع ختَان الإناث فيما مضى على إنه شئ عادي من الدين والأخلاق وكانوا يُقاومون المعلُومات التي تبث عنه لكننا صممنا على نقلها لهم، ينطبق نفس الشيء على ختان الذكور: «الناس ما عندهمش المعلومات اللي عرفتها دلوقت، وهي فظيعة فظيعة ومن وظيفتنا كمثقّفين أن نُقول للناس ما عندنا من معلومات حتى لو أبدوا مقاومة شديدة لها، لأن الناس دايما تقاوم الجديد والتغيير،لأن الأسهل لهم يتمسكوا باللي عرفوه لأن التغيير بيسبب للناس الاضطراب ويهز اقتناعاتهم، والناس أميل إلى أنها تستكين» سألت د.منى عما إذا كانت شعرت بالرهبة وهي تتحدث عن ختان الذكور فقالت أن الموضوع طرح بشكل فيه استنفار واستفزاز قصدي للناس، حين وقف شخص وقال بشكل استفزازي أن هناك ناس ينادون الآن بمنع ختَان الذكور، ففعلاً ثار الناس وهاجوا، فقلت لهم أن هذا الموضوع له مخاطر شديدة جدا، وهناك من يتعمقون في بحثه، فالأمر يستحقّ أن نعرف النتائج التي توصل إليها هؤلاء الباحثون، وأن نعيد نظر في الموضوع أو على الأقل نحاول أن نسمع بقلب وصدر مفتوح علنًا نعرف معلومة جديدة كانت خافية عنا لم تخش د.منى أن يؤثر تناولها لختَان الذكور على معركة ختَان الإناث، فهي تعتقد أن المشكلة لا تتعلق بطرح الموضوع نفسه بل بالطريقة التي يطرح بها.

فمن حقّ الناس أن يعرفوا الحقائق، لاسيما التي تتعلق بأجسامهم وحياتهم وأولادهم، مهما كانت صادمة في البداية. لكن الناس تحتاج ممن يطرح الموضوع أن يصبر عليهم ويتفهم مُقاومتهم ولا يتهكم على تمسكهم بالقديم وعلى مواقِفَهم المترددة أو الرجعية أو رفضهم لرؤية الجديد. وفي النهاية هم أحرار، نعطيهم المعلومة كاملة وهم يعملون ما يرغبون، دون أي شجار أو صدام وتضيف أن المقاومة العنيفة اللي رأتها بعينيها لم تخفها، لأنها تكلّمت عن علم وبشكل علمي قالت د منى للحاضرين في الندوة أننا كبشر لدينا مخ وقادرين على التعامُل مع أي فكرة بنفسنا عن طريق تشغيل مخنا فلماذا نخاف ونقيم سدودًا بيننا وبين الأفكار؟ إن الأفكار اللي قاومناها في زمن ماض ثبتت لنا أهميتها بعد ذلك

وتقول دينا أنها لن تتردد في إعطاء المعلومات الصحيحة عن ختان الذكور، لكنها لا تزال بحاجة للاستزادة من المعلومات والتدرب على مخاطبة الناس، لاسيما أنها ليست طبيبة، فهي ترى أن الناس يتقبلون كلام الأطباء عن الأعضاء التناسلية أكثر من كلام غير الأطباء ترى دينا ختان الذكور قضية لا تقل أهمية عن ختان الإناث، ولا ترى أن العمل فيها سيضر بقضية ختَان الإناث، لكنها ترى ضرورة دراسة المدخل الملائم لطرح القضية حتى لا تتحول المسألة إلى مجرد إعلان موقف دون حركة فعالة، وحتى لا يخفت صوت قضية ختَان الإناث الذي لا يزال بالنسبة لها أولويّة لأن الكثير من النساء لم يأخُذْن حقّهن بعد. لذلك تقترح تقسيم

العمل بين المهتمين بقضية ختان الذكور ومحاولة عمل جماعة ضغط من أجل القضية.

لكن د حازم يقول أنه سوف يتردد، وسيؤثر فتح قضية ختان الذكور على جهود مُحاربة ختان الإناث «أنا لا أشجع الأفكار المُطْلَقة، دائما أقول أن هناك احتمالات»

ويقول سيف. أن ختَان الذكور قضية عامة، فمعي القضية العامة عنده أنها تخص قطاعًا عريضًا من البشر، وهذا الموضوع يخص كل البشر فالمسألة ليست هيّنة. ويقول أنه يمكن أن يطلب الناس في ندوة أن يراجعوا موقفهم ولا يأخذوا مواقف حادة من أي معلومات جديدة، لأننا اكتشفنا أن كثيرًا مما كان مُسَلَّمات ليس إلا مسائل قابلة لإعادة النظر يرى سيف أن من الأسهل زعزعة اعتقادات الناس بخصوص ختان الإناث لسببين ١) بدأ العمل في هذه القضية منذ زمن، بدأ جزء من الناس يعتقد إنه فعلا غلط ٢) السائد عند معظم الناس ختَان البنت يحرمها من عضو له وظيفة لكن خِتَان الولد عبارة عن إزالة قطعة من الجلد ليس لها وظيفة وحيث أن هذه أول مرة يطرح فيها معلومات عن وظيفة الغَلَفة، فسنحتاج الكثير من العمل حتى نصل إلى إقناع جزء من الناس بضرر ختَان الذكور لذلك يقترح سيف أن نقطع أولا شوطا في ختان الإناث ثم نبدأ في طَرح ختَان الذكور وحتى ذلك الحين نحضر أنفسنا وحججنا ونمكن أنفسنا علميًا ولا مانع من طرح الموضوع كبالونات اختبار في بعض الأحيان. ويقول أنه

عادة في كل المواقف التي يرى فيها أن الناس لن تتقبّل وِجهَة نظره يرمي لهم السؤال ويتركهم ليفكروا فيه أما مصطفى فيرى أن ختان الجنسين قضايا مهمة يجب تبنيها، لكنه لن يقول رأيه بصراحة في ختَان الذكور إلاَّ لو ضمن أن المجال يسمح له بهذا دون مشاكل. ويرى أبو الفتوح أن ختَان الذكور يعتبر أمرًا بديهيًا وعرفًا قويًا عند عامة الناس، لذلك يعتقد أن طرحه في هذا التوقيت قد يضر بمعركة ختَان الإناث، لأنه يتصور أن الناس سيتخيلون أن لهذه القضية أغراضا يهودية -رغم أن اليهود متمسكون بالختَان- علاوة على أن المصريين أو الشرقيين عمومًا يصعب عليهم مناقشة الأعضاء الجنسية ونشر صورها بدون خجل، حتى تدريسها في المدارس لا تزال فكرة صعبة، فلو قفزنا فوق كل هذه الاعتبارات وكلمناهم عن هذه القضية ممكن أن يأتي هذا بأثر عكسي لكن بما أنه تعود على ذكر الحقيقة وعدم الكذب، لذلك لو سمع من يذكر معلُومات مغلُوطة سيحاول تصحيحها بأسلوب غير صادم، ورغم ذلك لن يجعل من ختان الذكور معركته الآن لأنها ليست أولوية ضمن الهموم الكثيرة الموجودة في المجتمع علاوة على أنه لا يزال مُقتنعًا أن ضرر ختَان الذكور ليس بفظاعة نزع جزء كامل من الأعضاء التناسلية للأنثى

ويُلاحظ د. نادر أن قضية ختَان الذكور لا تفتح في الندوات كموضوع مستقل بذاته، بل كموضُوع جانبي ضمن الكلام عن ختان الإناث. ويقولُ أنه لو حدث هذا معه سيتوقّف رد فعله، هل

يتكلّم أم يصمُت، على ما إذا كان الجو الموجـود مهيأ أم لا لسماع هذا دون أن يجعله يخسر القضيّة الأساسيّة التي فتحت هذه القضية بجانبهـا كقضيّة فـرعيّة، وقال أن المعيـار الذي يجعله يحكم على مُلاءمة الجـو من عَدَمِها هو أسلوب الجدال داخل المجـموعة، فلو كانوا يُعـارضون جُهود مُـحاربة ختَـان الإناث تحت دعاوى أن من يتـبنون الدعوة لإنهـائه غربيين وعـملاء يروجـون لأفكار إباحـية وفساد، فلن يفتح موضوع ختـان الذكور. أما لو ركزت المجموعة في مناقشـة دوافع ومُضار ختَان الإناث، فـربما يقول وسط الكلام تعليقا على ختَان الذكور. ويقولُ إنه حتى لو سمع أحد الحاضرين في مجـموعة غيـر مهيـأة يذكر المعلُومات المغلوطة عن إن خـتَان الذكور صـحي فلن يجد الجرأة لمعـارضته، لأن لا يملك مـعطيات كافيـة يدافع بها عن القضيـة، علاوة على أنه ليس مقتنعًـا اقتناعًا شخصيًا بضرر ختان الذكور كاقتناعه بموضُوع ختَان الإناث.

وقال د. فهمي أنه لو سمع من يذكر معلومات مغلوطة سيقول له أن ختَان الذكـور عادة ليست مُفـيدة لكنها منتشـرة وانتم لستم مسـتعدين لتـغييـر عاداتكم لأن التغـيير يتـحدى الأنماط المستـقرة للسلوك، وعمومًا أنتم أحرار، لكن عادة ختَان الذكور لا هي سنة ولا هي شئ صحي. ولا يعـتقـد د. فهمي أن إثارة قـضية خـتَان الذكور سـتضـر بجهـود مكافحـة ختَـان الإناث، لأن القضـيتين تتـضمنان تغـيـير سلوك، وهو يتـصـور أن أي محـاولة لتعـديل الاتجاهات ومن ثم السلوكيات في المجتمعات ترتبط أساسًا بمستوى

انتشــار الفكر الموضوعي مقابل الفـكر الخرافي. العقلية المتـسائلة مـقـابل العقـلية النـاقلة. السلوك المستـقل المبني على الاقـتناع الشخصي في مقابل المسايرة. لذلك يتصور إن قضية ختان الذكور يمكن أن تكون جزءًا صغير ضمن محاولات الإسراع بالتغير الثقافي في المجتمع فهو متصور إنها قـضية، لكنه كسياسي يرى بخبرته السياسية أن تبنى المشاكل ذات الأولوية بـالنسبة للمجتمع، ونؤجل القضـايا التي لم يع المُجتـمع بعد وجه الإشكاليـة فيهـا، وبالتالي تكون غريبة بالنسـبة لجدول أولويات مشاكل المجـتمع رغم اقتناعنا بها كـمثـقفين. ولما سـألته عن سبب اشـتراكـه في حملة خـتان الإناث، مع أنها لـيست من الأولويات بالمعنى الذي قـاله، أجاب بأن السبب أنها قضـية حقوق إنسان، وأنها أقل انتـشارًا من ختان الذكور رغم انتشارها الكبير (٩٧ ٪)، وبذلك تكون محاربة ختان الذكور مناطحة صخر

كَنَاطِحٍ صخْرَةً يَوْمًا لِيُوهِتَهَا فَلَمْ يُضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعَلُ

وأضاف أن خـتَان الإناث جـزء من القهـر الذي يمارس على النساء كنوع ورغم أن ختَان الذكور قضية حقوق إنسان أيضا لأنه اعتداء على جسم إنسان، ويُمارس على الأطفال كجانب ضعيف، إلا أنهم في النهاية يعوّضون هذا القَـهر بأن يخرج من بينهم أمثال صدام حـسين والرئيس فـلان والرئيس علان، لذلك لا يعـتبـرها قضية يهتم بها في الوقت الحالـي المعاصر وعندما ناقشته في حق الطفل الذكر في ألاّ يتـعرض للألم وأن يتمـتّع بالسلامة الجـسدية

كنقطة يمكن أن تنطلق منها حركَة ضد ختَان الذكور قال أنها نقطة يسهل تفنيدها بالقول بتخـدير الطفل فتحلّ المشكلة لكنه لا يقبل أن يمرر ردًا مماثلاً بخصـوص ختَان الإناث، إذ يعـتبر أن المجـتمع يمارسه كأحد مُفـردات الحطّ من قدر المرأة في صراعها مع الرجل. فالرجل -في رأيه- مـفزوع جدًا من فـكرة أن تصير المرأة مـساوية له، حتى على المستوى الوجودي في قدرتها على التمتع أو في أنها تأخذ حقوقها كاملة كإنسان

وتقول د. سلمى إنهـا سترد على أي معلومات مـغلوطة تقال عن خـتان الذكـور في ندوة، لكنّهـا ترفض أن تبادر بتكوين قـوة عمل ضـد ختَان الذكـور لاعتبـارات تخص سنها ومدى تفـاؤلها بالعالم عـمومًا وتقـول «يمكن لو كنت أصغر من هذا بعـشرين عاما، كنت أعمل هذا»

عايشة قد تسكت لو أحـست أن هجوم الناس قوي، لكن لو أحست أنهم أقل قـوة يمكن أن تخبـرهم بما لديها من مـعلومات. ود. أفكار ستقول لمن يذكر مـعلُومات مغلوطة في ندوة أننا نحتاج لمزيد من القراءات في هذا الموضوع.

وتقول نوسة «لـو في ندوة وسمعت حد بيـدافع عن ختَان الصبـيان سـيظل أولويتي ختَـان البنات. في ندوة حابقى بـاخبط رأسي في حيطة، وأعتقد سيؤثر بالسلب على حركة مُكافحة ختَان البنات سـأواجـه بنفس الاتهـامـات. العـمـالة للغـرب

والخَلاَعة. .الخ. رغم إنهما قـضايا جندر. والأسباب أننا بذلك سنؤلّب علينا قُوى ما حناش قدّها هي نفس مؤيدي ختَان الإناث، أعتـقد سنخسـر ناس ممن استـقطبناهم حا نبقى بنـخبط راسنا في حيطة لأن ختَان الذكور عليه إجماع أكبر. عارفة إن فيه تناقض في مـبرراتي لأن فـيـه إجمـاع على خـتَان الإناث كـمـا الحجـاب، حايجيـبولك ألف حديث وآية، رغم إن خبرتي الميـدانية قالت لي إن الدين مش أول مبرر لختَان الذكور لكن فيه اتفاق عليه بحيث لا توجد حاجـة للجوء للدين لتبريره لأنه متـأصل وقوي» ثم قالت أنها تحمست لمحاربة ختـان الإناث رغم وجود إجماع عليه وتحجج بالدين لأنهـا امـرأة ولأنّ الموضُوع يمـس حقـوق النسـاء، فكانت مُستعدة لمناطحة الصخر في سـبيل قضية تمسّ المرأة، ولكنها ليست على استـعداد لفعل نفس الشيء في سـبيل ختَـان الذكور. ورغم اعترافها بأن القضيـتين من قضايا النوع، إلا أنها لم تفكر في ختَان الذكور من منظور سـياسات النوع كما فكـرت في ختَان الإناث. لقد فكـرت نوسة في ختَـان الذكور من منطلق شـخصي كـأم قد تنجب ولدًا وتحتار أمام مسألة ختَـانه، أو كصديقة لرجال تتعاطف مع ما تعـرضوا له، لكنها فكرت في ختَـان البنات من منطلق عام كامرأة تهتم بقضايا النساء، فلم يدخل العامل الشخصي هنا حيث لم يكن واردًا أن تختن ابنتـها أو تتـعاطف شـخصيًـا مع أي بنات حـولهـا، فـأسرتـها لا تَخْـتِنَ البـنات، وهي لم تسـمع عن هذا الموضُـوع إلا منذ ٤ سنوات عندمـا شاهدت فـيلم سي إن إن عن

ختان طفلة فأصيبت بإغماء. ورغم اعترافها بالتحيز الشديد للنساء على المستوى العملي، إلاَّ أنها ترى نظريًا أن المثقفين عليهم بث المعلومات التي لديهم. وينطبق هذا على ختَان الذكور أيضًا، وترى أن القضاء على ختَان الإناث كمعنى وكعادة لن يتم إلا لو ناقشنا أيضًا الجنس عند الرجال وختَانهم وكل فكرة نحت جسد الذكور والإناث. تعي نوسة أن في موقفها تناقُضات. فلو وضعنا الموضُوع في إطار نهج قضايا النوع لكان منطقيًا أن نطرحه على بساط البحث والنقاش، لكن لديها إحساس ذاتي بألاَّ تفتح الموضُوع علنًا.

وتقول د.خديجة أنَّها قد تذكر بعض هذه الدراسات ردًا على أي معلومات مغلُوطة تذكر في ندوة، لكنها لن تدخل نفسها في مناقشة لأنها في تقديرها ستكون صعبة جدًا بسبب تغلغل جذور ختَان الذكور في المجتمع المصري. ختَان الإناث متغلغل هو الآخر، لكنها ترى أن لدينا مساحة أوسع للمناورة في موضُوع ختَان الإناث ويمكنها أن تدخل في مُناقشة دينيّة عن ختَان البنات لأن اختلاف الفقهاء واضح جدًا، لكن لا يمكنها ذلك بالنسبة للذكور. ولهذا السبب أيضا ترى أن مناقشة ختَان الذكور ستضر بقضية ختَان الإناث. وتقول سامية أنها صارت أكثر اهتمامًا بقضية ختَان الذكور بعد الحصول على المعلومات، ولو سمعت معلومات مغلُوطة فستُصحِّحُها، وهي ترى أنها قد تضر أو لا تضر قضية ختَان الإناث وفقا لأسلوب طرحها

وبعد عرض اتجاهات المثقّفين/ المثقّفات نحو ختَان الذكور التي كونوها من حصِيلة معارفهم ومُعتقداتهم وخبراتهم ومصالحهم قبل معرفة أي معلومات جديدة، ثم استطلاع احتمالات تغير أو ثبات هذه الاتجاهات بعد معرفة معلومات جديدة مختلفة عما عندهم عن تركيب ووظيفة غلفة الذكر ولمحة مُوجزة عن تاريخ ختَان الذكور، يحين الانتقال إلى تحليل لهذه المعارف والمعتقدات والخبرات والاتجاهات وخلفياتها

❁ ❁ ❁

الفصل

السابع

7

كشف عُري الإمبراطور:

التحليل النهائي

(١) دلالات معتقدات ومعارف المثقفين/المثقفات

أولا: كشف التحيزات:

هناك تحيّزات تقليدية موروثة في المجتمع الذكوري تستند إليها بعض معتقدات المثقّفين/ المثقّفات عن أعضاء التذكير والتأنيث. فقد اتفق بعض المثقّفين/ المثقّفات مع عامة الناس مثلاً في الاعتقاد بأن من أسباب تأخير ختان الأنثى وتبكير ختّان الذكر أن الذكر يولد مكتمل الأعضاء الجنسية أما الأنثى فلا يكتمل نمو أعضاء التأنيث لديها إلا متأخرا. يعني هذا أن المثقّفين/ المثقّفات، سواء كانوا أطباء أم مثقّفين من خلفيات مهنية أخرى لا يبنون رأيهم على معرفة دقيقة بتشريح ووظائف الأعضاء الجنسية وتطوّرها عبر مراحل العمر كما يدلّ هذا المعتقد على إيمان المثقّفين والعامة على قدم سواء بأن الرضيع الذكر أقوى وأكمل جنسيًا من الرضيعة الأنثى،

وهو اعتقاد يمتّد إلى كل أطوار الحياة، مرجحا كفة الرجل في ميزان القوة الجسدية والمعنوية[1]

ويكشف الاعتقاد الخاص بتحمل الرضع للألم عن وجود تحيز ضد الأطفال لدى المثقّفين/ المثقّفات، فالألم إحساس ذاتي يتراوح ما بين الضيق البسيط إلى المعاناة الشديدة. أي أن من يمكنه تقدير الألم فعلا هو الشخص المتألّم نفسه، أو المراقب الذي يرصد المتغيرات التي تطرأ علي الشخص بروح محايدة[2] لكن المثقّفين/ المثقّفات وغيرهم ممن يعتنقُون هذا الاعتقاد بخصوص الأطفال يحكمون حُكمًا ذاتيًا على أشخاص غيرهم يقعون في مرتبة اجتماعية أدنى منهم بحكُم سنّهم ووقُوعهم تحت وصاية

(1) Abd el Salam 1998.

(2) Chamberlain 1991.

الراشدين. ومما يؤكّد طابع التحيز والتمييز ضد الأصغر في هذا الاعتقاد أن هناك دراسات موضوعية تثبت عدم صدق هذه المعتقدات. أُجريت هذه الدراسات لقياس الألم لدى الأطفال المختونين ومقارنته بأنواع أخرى من الإجراءات المسببة للضيق والألم. أثبتت الدراسات أن الختَان يسبب للأطفال معاناة شديدة لا تطاق، فقد تم قياس مُستوى هورمون الكورتيزون -الذي تفرزه الغدة جار الكلوية استجابة للتعرض للآلام والصدمات والكروب- فوجد أنه يرتفع في دم الأطفال أثناء وعقب ختَانهم وأُجرِيت تجارب لمقارنة مستوى هذا الهورمون في ظروف ضاغطة أخرى، مثل تقييد حركة الطفل، أو وخز كعب قدمه بإبرة، فوجد أن الكورتيزون يزيد مع الختان بمعدلات أعلى من زيادته مع هذه الإجراءات المقارنة، بما يعني أن الختَان من أنواع الكرب الشديد المؤلم[1] وُجِدَ أيضًا أن الأطفال الذكور يتذكّرون خبرة ختَانهم بعد مرور عدة شهور، وكشف عن هذا أن رد فعلهم لحُقَن التحصينات أشد من رد فعل البنات أو الأولاد الذين لم يُختنوا

من جهة أخرى، يقُولُ علماء النفس إنّ الاعتقاد السائد بأن الأطفال ينسون ألم الختَان لا يمثل الواقع. فالرجال الذين ختنوا وهم رضع لا يتمكنون من حكي ذكرياتهم عن هذه التجربة لأن الختان أُجْرِي لهم قبل اكتساب اللغة المنطُوقة، لذلك لا يتمكن الرجل البالغ من التعبير عن ذكراه باللغة تحت الظروف العادية،

(1) Gunnar 1985; Gunnar 1988, Goldman 1997.

لكن بعض الرجال تذكروا خبرتهم تحت التنويم المغناطيسي أو عند تعرضـهم لظرف يُماثل التجـربة ويجعل ذكراهـا تطفو إلى سطح الشعور[1] ومن ملاحظاتي الميدانية أن بعض الرجال لم يتحملوا مشاهدة لـقطات تصور عملية خـتان على جهاز الفـيديو، وصرح بعضهم الآخر بشعـوره بألم عضوي أثناء مشاهدة اللقطات، وهذه ملاحظات عملية دالة على صدق تفسيرات علماء النفس، فها هي ذكرى آلام الختَان لم تُمْح، حتى بعد سنوات طويلة

ويعتقد بعض متخذي الموقف النسوي من المثقّفين/ المثقّفات بأن ختَان الذكر لا يحمل معنى الردع والتحكم في النزعات الجنسية لكن هناك كتابات سابقة تُثبت وُجُودَ بُعْد الضبط الاجتماعي لغريزة الجنس لدى الذكور بالختَان، إذ عبـر الأطباء الذين أيدوا الختَان في كل العصور عن ربط ختَان الذكور بإضعـاف حساسيتهم الجنسية، وتعريضهم لألم لا يُنسى. فـموسى بن ميمون، الطبـيب اليهودي الذي عاش في القرن الثـالث عشر الميلادي، يوصي بِخـتَان الذكر لإضعاف قوته الجنسيـة وإنقاص لذّته ممّا يُؤّدي إلى تعديل أخلاقي حميد لضمان عفته[2] وبالمثل، أدخل الأطباء البريطانيون ختَان الذكور والإناث إلـى الممارسة الطبـية في القـرن التاسع عـشر لمنع و«علاج» العادة السرية[3]

---

(1) Goldman 1997.

(٢) آتاي بدون تاريخ، منقولا في أبو ساحلية ٢

(3) Wallerstein 1980, Gollahar 1994.

وتدُلّ آراء بعضهم الآخر على إدراك ضمني لوجود عنصر التحكم الاجتماعي في ختَان الذكور، بل على إصرار على تثبيت هذا العنصر بإضفاء القداسة عليه. من أبرز الأمثلة على هذا رأي د. حازم القائل بأن الختَان إرادة الرّب على المستوى الفلسفي وإرادة الأب على المستوى الإجرائي. يدل هذا الرأي على خلط بين الإله والأب، ومحاولة لإضفاء طابع فلسفي وقدسي على التحكم الاجتماعي، فقد وصَف الختَان بالتهذيب، وقال إنَّ غاية الدين تحقيق الانصياع للعرف الاجتماعي. وهذا التهذيب والانصياع يطبق طبعًا على طرف ضعيف، هو الابن، بيد الأب، رب الأسرة، الذي يوحد هذا الرأي بينهُ وبين رب السماء ويجعله نائبًا عنه في تنفيذ الختَان/ التحكم.

وتدل اعتقادات المثقّفين/ المثقّفات عن أن وجود الغَلَفَة يعرقل الانتصاب ويجعل شكل العضو الذكري ضعيفًا على إيمانهم بأن الغَلَفَة رمز أنثوي ووجوده ينقص من ذكورة الرجل. يدعم هذا التحليل وصف بعضهم للغَلَفَة بأنها «حتة مدلدلة مرتخية». بل إنَّ المثقّفين/ المثقّفات سمعوا معتقدات فيها تحميل للغَلَفَة بقدرات سحرية، مثل أن من لم يُختن في صغره يصاب بالارتخاء عندما يحاول ممارسة الجنس بعد أن يكبر تشبه هذه المعتقدات اعتقاد مؤيدو ختَان الإناث بأن للبظر قدرات سحرية تجعله ينمو مثلاً إلى ما لانهاية، أو تجعله يؤذي الزوج أثناء الجماع. هذه القدرات السحرية للأجزاء التي اعتاد الناس قطعها بالختَان لا أساس لها من

الصحة في الواقع المعاش، لكن لها أساس أسطوري يخدم التصور الرمزي للذكورة والأنوثة في الثقافات القديمة التي ما زال الناس يتوارثون تصوراتها دون تمحيص ولا مراجعة(1)

أما تلخيص مُعظم المثقّفين/ المثقّفات للذكورة في الانتصاب فيتضح منه أن الانتصاب كان قاسمًا مشتركًا بين من رأوا أن عدم الختَان يؤثر على الذكورة ومن رأوا أنه لا يؤثر. فأصحاب الرأي الأول يعتقدون أن الغَلَفة تمنع الانتصاب، وبالتالي يعتبرون إزالتها شرطا لاكتمال الذكورة، بينما يرى أصحاب الرأي الثاني أن الغَلَفة لا تعرقل الانتصاب، وبالتالي لا يؤمنون بضرورة الختَان لإكمال الذكورة. وفي رأيي أن استخدام هذه المعتقدات لتفسير تفوق الرجل المختن على غير المختن جنسيًا ترتكز على الفكر الذكوري الذي يعلي من قيمة الانتصاب بصفته رمز القوة الجنسية، وبالتالي السياسية(2) وهذه في رأيي خلفية الاعتقاد بأن ختَان الإناث أقسى من ختَان الذكور لأنه يزيل العضو القادر على الانتصاب. وهذا التفسير الذكوري -الذي تتبناه بعض النسويات أيضًا- يحتفي بالانتصاب ويتجاهل الحساسية والسلامة الجسدية وحق الإنسان في تقرير كيفية التصرف بجسده، رغم أن ختَان النوعين يتضمن فقدًا لأنسجة شديدة الحساسية.

ندرة من المثقّفين/ المثقّفات عبروا عن إدراكهم أن الانتصاب

(1) Turner 1985, Montagu 1991.

(2) Paige 1978.

ليس كل شئ في المعاشرة الجنسية، منهم صلاح الذي أخبرتهُ سيدة أوروبية أن الرجل غير المختن أقدر على إمتاع شريكته جنسيًا، وهناك بحث حديث يُثبت أن هذه المعلُومة صحيحة، وأن شهادة المرأة الأوروبية التي أخبرته بهذه المعلومة ليست شهادة فردية. أجري هذا البحث على نساء تزوجن أكثر من مرة، وكان بعض الأزواج مختنين وبعضهم غير مختنين، وخلص البحث إلى أن ختان الزوج ينقص من استمتاع الزوجة بالعلاقة الجنسية[1]

وتُوجد دلائل على تأثر الاتجاه نحو الختَان بالتحيزات الثقافية الشخصية. فنهال مثلاً تعتقد أن رجال مصر أقدر جنسيًا لأنهم مختونون، وهذا اعتقاد دال على تعصبها لقومها المصريين، فالقدرة الجنسية لا علاقة لها بالانتماء القومي ولا الجغرافي. وصلاح الذي عاد لتوه من إقامة في الخارج لسنوات قليلة يعتقد أن الرجل المصري تقل قدرته الجنسية بشكل ملمُوس بعد الأربعين بينما تمتد هذه القدرة لدى الرجل الأوروبي إلى ما فوق سن الستين. والرأيان غير صحيحين، فالقُدرة الجنسية تعتمد على عوامل مثل الصحة العامة والنفسية والنضج العاطفي والاجتماعي ولا علاقة لها بالقومية أو بالختَان أو عدمه، فقد ينقص الختان من استمتاع طرفي العلاقة بالجنس لكنه لا يمس القدرة على الجماع أو الإخصاب.

(1) O'Hara 1999

ثانيا: التعامل مع النصوص بين التقديس والتفكير النقدي:

اعتاد المصريُون غالبًا على تكوين معتقداتهم الدينية بالاستماع إلى تفسيرات الفقهاء للنصوص المقدسة وليس بالقراءة المتمعنة لهذه النصوص بأنفسهم. يقول هشام شرابي إن تفسير النصوص المقدسة ظل حكرًا على رجال الدين الرسميين، وهؤلاء يستمدون تفسيراتهم من التعليقات التقليدية على النص لا من تحليلهم للنص نفسه[1] والمثقفون ليسوا استثناء من تلك القاعدة. فمعظم من اعتقدوا أن الأديان تأمر بالختَان لم يتمكنوا من الاستشهاد بأي نصوص على ما قالوه. وبعضهم صرح بأنه بنى رأيه على ما سمعه من بعض الشيوخ أو حتى عامة الناس ومن هؤلاء المثقّفين/المثقّفات من هم حاصلُون على درجات علمية عليا كالماجستير أو الدكتوراه، أي أنهم لا يمكن أن يتهاونوا في تدقيق المراجع في نص يكتبونه، لكنهم يقبلون هذا التهاون ويمارسونه في الخطاب الشفهي وما يترتب عليه من مواقف وقرارات اجتماعية خطيرة كالقبول باستئصال جزء من أجساد الأطفال أو السكوت عن هذه الممارسات بحجة أنهم سمعُوا أنها وردت في القرآن أو السنة، دون أن يراجعوا هذه المراجع بأنفسهم ويمحصوها. بل أن منهم من يؤسس اعتقاده على قياس غير سليم. فمثلاً يقرر د. نظمي أن الختَان من السنة المؤكدة ما دامت قد وردت فيه أحاديث حتى مع عدم ذكره في القرآن، قياسًا على أن الأحاديث وليس القرآن هي

(1) Sharabi 1988: 7

التي بينت تفاصيل الصلاة. يتجاهل هذا الرأي أن الصلاة وردت في القرآن ثم بينت السُّنّة كيفيتها، لكن الخِتَان لم يرِد في القرآن. ويرى علماء الحديث أن من علامات عدم حجية الحديث أن يخالف العقل أو القرآن، والخِتَان يخالف ما ورد في القرآن: ﴿ رَبَّنَا ما خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سبحانَك فَقِنَا عذابَ النَّارِ ﴾[1] ويرى أيضا بعض الفقهاء، مثل الشيخ محمود شلتوت، «إنَّ إيلام الحي لا يجوز إلا لمنفعة تعود عليه وتربو على الألم الذي لحقَه»[2] وبعد أن تم تفنيد الاعتقادات بوجود فوائد للخِتَان، وتناولت الدراسات الطبية والنفسية والاجتماعية مضارّه[3] لا يبقى منه غير الإيلام، وهو لا يجوز شرعا حسب القاعدة الشرعية «لا ضرر ولا ضرار»

لا يقتصر موقف تقديس النص على النصوص الدينية، بل ينسحب أيضا على النصوص الطبية. يكشف اعتقاد الأطباء بأن ختان الذكور مفيد لأنه مذكُور في بعض المراجع الطبية عن أنهم يتعاملون مع النص الطبي المكتُوب كنص مقدس يصعب التفكير فيه بشكل نقدي، وهو شاهد على امتزاج الطب بالقداسة الدينية يدل هذا الرأي أيضًا على أن العملية التعليمية عملية تلقينية في

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩١

(٢) عفيفي ١٩٧١، أبو ساحلية ٢

(3) Denniston 1994, Goldman 1997, Zwang 1997, Goldman 1999, Cold and Taylor 1999, Boyd 1998.

لقام الأول، بحيث يكتسب المتعلم المعلومة مرة واحدة وإلى الأبد
يعتبرها حقيقة مُطلقة لا نسبية، فيصعب عليه مراجعتها إذا
جاوزتها مُعطيات اكتشافات أحدث. والتعليم الطبي ليس استثناء.
بذلك تقتصر عملية القراءة على الاستظهار دون النقد، مما يفسر
موقف الأطباء الذين يؤيدون ختَان الذكور لأنهم «قرأوا» عن
فوائده منذ عدة عقود على أيدي الأساتذة، الذين يضاهون الكهنة
في هذا النوع من التعليم التلقيني. ويدل رأيُ الطبيبين اللذين
تمسّكا بما قرآه في الكتب التي درساها منذ عدة عقود عن فوائد
الختان وعدم وجود وظيفة للغَلَفَة، ورفْضهما الاقتناع بالاكتشافات
الحديثة في التشريح ووظائف الأعضاء لأنها تخالف ما ورد في
هذه الكتب على عدم القدرة على التخلي عن القديم والتردد في
قبول الجديد، وهي من سمات الفكر المحافظ.

ومن الأمُور التي استقرّت في وعي العاملين والعاملات في
النشاط الاجتماعي بسبب تداوُل هذه النصوص دون مراجعة أن
هناك فروقا جوهرية بين ختَان الجنسين تجعل من المحظور الخلط
بينهما لكن لا توجد أي شواهد تدعم هذا الاعتقاد، بل على
العكس، توجد شواهد ميدانية موثّقة في عدد من الدراسات تثبت
العكس تماما فرغم أن المثقّفين/المثقّفات الذين حاورتهم لم يعبروا
عن إدراكهم لأي أوجه تشابه بين ختَان الجنسين وأسهبوا في سرد
أوجه الاختلاف التي يرونها بينهما، إلاَّ أن بعض الباحثين
الأنثروبولوجيين وصفوا أوجه تشابه بين ختَان الإناث والذكور

سواء داخل الثقافة الواحدة، أو في دراسة مقارنة بين ثقافا
مختلفة. فمثلاً، وصف جون كنيدي الختّان كطقس مرور للوا
والبنت من الطفولة إلى النضج الجنسي في النوبة المصرية[1]
ووصفت هيني لايتفوت كلاين تشابه المبررات التي تذكرها
الشعوب التي تمارس ختان الإناث والذكور، ووجدت أن المبررا
التي يذكرها الأمريكيون لختّان أبنائهم تماثل المبررات التي يذكرها
الأفارقة لختّان بناتهم[2] ويرى أخصائي علم الجنس د. جيرار زفانج
أن ختان الإناث والذكور يستهدفُ غاية واحدة، هي تعديل
التركيب التشريحي للأعضاء الجنسية، وقد أجرى دراسة مقارنة
العواقب الجسديّة والجنسيّة لختّان النوعين ووجد تطابقًا بينهما
ومن هنا، خلص د. زفانج إلى أنه لا يمكن القضاء على ختـ
الإناث وحده دون ختّان الذكور في المجتمعات التي تمار
النوعين[3]

ثالثا: أثر المعلومات على التحيز:

إن إيمان المثقّفين/المثقّفات بأن انطباعاتهم العامة ومعتقداتهم
معلومات لا يرقى إليها الشك يدلُّ على وجود علاقة بين نقص
المعلومات وخلق التحيز، مثل اعتقاد نهال بأن إبراهيم سـ
المصريين القدماء تاريخيًا، ومن ثم تمسكها بأن الختّان منذ عـ

(1) Kennedy 1970.

(2) Lightfoot-Klein 1997

(3) Zwang 1997.

البشرية كان أمرًا إلهيا مقدسًا على عكس اعتقاد نهال، يقدر بعض المؤرخين أن النبي إبراهيم وقومه قد عاشوا في فترة تناهز حكم الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى لمصر القديمة[1] وبهذا يسبق المصريون القدماء إبراهيم تاريخيًا، ويسبق الختَان ظهور أي دين سماوي.

الاعتقاد بأن معظم رجال العالم مختونون مثال آخر على نشوء التحيز عن نقص المعلومات فهذا الاعتقاد يدفع معتنقيه إلى قبول الختَان بارتياح باعتباره معيارًا مقبولاً من كل أو معظم رجال العالم لكن الواقع يقول غير هذا ففي إحصائية للفئات التي تمارس ختان الذكور (اليهود والمسلمون والأمريكيون الشماليون والقبائل الأفريقية التي تمارس الختَان) وجد أن نسبتهم إلى سكان العالم تبلغ ٢٣ ٪ تقريبًا[2] أي أن أكثر من ثلاثة أرباع رجال العالم يعيشون ويتزوجون وينجبون وهم على حالتهم التي خلقوا بها، بدون ختَان من هذه الاستجابات يتضح أن المثقّفين/ المثقّفات لا يعرفون معلومات دقيقة عن مدى انتشار عادة الختان وتوزيعهَا في العالم، وهذا يدلّ على أن ختَان الذُكُور محاط بسياج من الصمت، فلا وسائل الإعلام تنقل هذه المعلومات، ولا كليَات الطب تدرسها

(١) الخشبة ١٩٩٩ ٥

(2) NOHARMM n.d.

من الأمثلة أيضًا اعتقاد المثقفين/المثقّفات بأن غَلَفة الذكر ليست لها وظيفة، أو أنها تركيب ثابت ساكن غير مُتحرّك، وبالتالي تتكوم تحتها إفرازات، فلا يكفي التشطيف العادي لتحقيق النظافة الشخصية تفسر هذه المعتقدات سهولة قبول أصحابها لتختين الذكور رغم رفضهم لتختين الإناث، فما ليست له وظيفة معروفة لا يقيمه الناس بحيث يحرصون على الحفاظ عليه، والأسوأ لو تصوروا أن له وظيفة ضارة. وهذا المثال مزيج من نقص المعلومات وتقديس النصُوص القديمة. لقد نفى د. نظمي مثلاً وجود وظيفة جنسية للغَلَفة استنادًا إلى أن دراسة ماسترز وجونسون التي أجرياها سنة ١٩٦٦ لم تجد فرقًا في الإحساس باللمس في رأس القضيب لدى المختنين وغير المختنين. والواقع أن ماسترز وجونسون لم يقصدا ببحثهما الترويج للختَان كما يفعل يوظفون نتائج هذا البحث من الأطباء مؤيدي الختَان، بل بالعكس، قصدا أن يثبتا خطل الخرافة التي روجها أنصار الختَان في الستينات عن أن الختَان يزيد الحساسية الجنسية. لكن ماسترز وجونسون اختبرا اللمس الخفيف على رأس وجسم القضيب ولم يختبراه على المناطق المُختلفة للغَلَفة في غير المختنين، بينما أثبتت دراسة تايلور سنة ١٩٩٦ أن المَناطق التي اختبرها ماسترز وجونسون تكاد تخلو من المستقبلات العصبية المتخصصة في الإحساس باللمس الخفيف، والتي تتركز في الطبقة الداخليّة للغَلَفة التي تقطع في الختَان لذلك كان من المنطقي ألا يجدا فرقًا في

الإحساس باللّمس الخَـفيف بين المختنين وغيـر المختنين، وبالتالي، لا تعتبر دراستـهما دقيقة من حيث ملاءمة المعيـار الذي استخدماه للمتغـير الذي قصدا قـياسه[1] بل إن بحثًا ميـدانيًا أجري على رجال أمريكيين أثبت وجـود شكاوى من نقص الحساسيـة الجنسية بعد الختَان[2] أما من تصـوروا الغَلَفة تركيـبًا ساكنًا تتكوم تحـته الأقذار فلم يطّـلعوا على الكتابات الـتي تصف الطبيعـة المتحـركة للغلفة ودور هذه الحركة في اللذة الجنسية للطرفين[3]

ويبـدو أن مبـرر الوِقَـاية من سرطـان عنق الرحم [الذي ثبت زيفه][4] قد استقطب قـسما من النسـاء، سيمـا الطبيـبات إلى صفوف مؤيدي الختان. وهو مُبرّر يلعب في رأيي على وتر حساس في المجتـمع. ففي المُجتـمع الذكوري يُدفع الجنسـان للتوجس من بعضهما باعتبار كل منهما خطرًا على الآخر، وبالتالي يسهل على النساء تخيل أن الغَلَفة من ضمن الأخطار التي يحملهُا الرجل لهن حسب تحيزاتهن الموروثة.

رابعا: تناقضات فكرية:

لقد صرح المثقّفون/ المثقّفات أنفسهم الذين عبروا عن اعتقادهم بأن الغلفة لا توجد بها أعصـاب بأن الأطفال يتألمون عند ختانهم،

---

(1) Hammond 1998.

(2) Hammond 1997.

(3) Bigelow 1992; Taylor 1996; Cold 1999.

(4) Wallerestein 1980; Paige 1978, Gollaher 1994.

أي أنهم فصلوا بين الشواهد الملموسة وتفسيرهم لها، بما قد يبدو على السطح تناقض في موقفهم. لكن هذا التناقض يختفي إذا كانت ملاحظات المثقّفين/المثقفات وتفسيرهم لهذه الملاحظات ينطلقان من موقعين مُختلفين من مواقع الفعل الاجتماعي فالشواهد الملموسة موقعها الجسد الإنساني الفردي الذي يحس ويتألم، والمثقّفون/المثقّفات قد عاينوها من موقع علاقة فردية بينهم وبين الأطفال، فأدركُوا أنهم يتألمون. لكنهم فسروا ملاحظاتهم على مستوى الجسد الاجتماعي الرمزي، الذي يخضع للتشكيل الثقافي والاجتماعي، ومن موقع علاقة جمعية بينهم وبين الأطفال. وبسبب الطابع الرمزي لهذا المستوى من التعامل مع الجسد، لا يضع منفذو الأحكام الثقافية في اعتبارهم أنه جسد فردي حساس[1]

بعض المثقّفين/المثقّفات اكتشفوا تناقضاتهم الفكرية - التي لم يفطنوا إليها من قبل - أثناء جلسة الحوار. من أمثلة هذا الاكتشاف لجوانب خفية في الذوات المفكرة للمثقفين انزعاج نهال عندما تأملت محاولتها لتأويل الختَان تأويلاً دينيًا وربطه بدلالات الصلب في المسيحية (و هي تأويلات واتتها من وحي اللحظة) مثال آخر هو عدم ربط د. سلمى بين معلوماتها عن جودة صحة رجال أوروبا وبين ما قرأته من معلومات قديمة عن ارتباط الختَان ببعض الأمراض

(1) Scheper-Hughes 1987.

(٢) تحليل خبرات المثقفين/المثقفات مع ختان الذكور

أولا: الطابع الطقسي لختان الذكور في مصر:

الختَان طقس مركب يستحيل تفسير مغزاه بالرجوع إلى عامل أو دافع واحد. خلص الأنثروبولوجيون الذين درسوا طقس الختَان في الثقافات القديمة إلى أن ختَان الذكور قد يكون طقسًا تفرضه أو ترحب به النساء، لكن الذكور أيضًا يرغبونه لأنه يعطي القضيب مظهرًا أكثر ذكورة بتحريره من الغَلَفة الحامية، وبالتالي يكتسب الطفل نضجًا رمزيًا كما أن الختَان يضيف إلى قوة الذكورة بتمثيل قوى ما في الأنوثة، نزُول دم من الأعضاء الجنسية رمزًا للخصوبة. وبذلك يكون الختَان طقس مرور من الطفولة إلى النضج[1] يختلف فينسنت كرابانزانو مع هذه الرؤية التي يراها معبرة عن نظرة الباحثين الغربيين للمجتمعات المحلية قبل الحديثة. ومن تحليله لطقس الختَان في المغرب العربي من وجهة نظر الطفل المختون يخلص إلى أن ختَان الذكر مقطوع الصلة بمروره للنضج، كما أنه لا يقطع صلته بعالم النساء، بل يفصلهُ عنهن لحظيًا ليعيده لهن في حالة جنسية مختلفة، ومن هنا، يسمي كارابانزانو الختَان في المغرب العربي «طقس عودة»، كما يصفه بأنه طقس منقطع الصلة بغرضه، حيث يُعلن المرُور إلى مرحلة حياتيّة جَديدة، دون أن يحدث مرور فعلي، فالطفل يظل بعد الختَان كما كان قبله،

(1) Bettelheim 1954, Turner 1967, Voskuli 1994.

طفلاً صغيراً غير ناضج جنسيا ولا اجتماعيًا[1] من واقع شهادات المثقفين المصريين يتضح أن ختَان الذكور كما يجرى في مصر حاليا لدى مثقفي الطبقة الوُسطَى المتّصلين بالثقافة الحديثة يختلف تمامًا عن صورته القَديمة في الثَقَافات ما قبل الحديثة يبا، الطقس كأقرب ما يكون لصورته التي وصفها بتلهايم وتيرنر تجربة ختَان سعيد، وشقيق د. فهمي لكن وصف المثقّفين لختان أطفالهم الذي تم في المؤسسة الطبية الحديثة يبعد به تمامًا عن هذه الصورة. في الختَان الحديث ينتاب الأهل القلق والكرب، ولا يقيمون احتفالات في مُعظم الأحوال، فإن أقاموا لا تزيد عن توزيع بعض الحلوى واجتماع بعض المعارف على نطاق ضيق يرجع ابتهاج النساء والرجال والأطفال المختونين أنفسهم الذي وصفه سعيد إلى أن الطقس كان يحمل لهم مغزاه التقليدي المبا بتدشين الطفل رجلاً أما المثقّفين/ المثقّفات الذين أحسوا بالكرب لختان أبنائهم، كسعيد نفسه وزوجته، ود أفكار، ود. منى، ود. حسام ود يارا فيرجع إلى أن الطقس لم يعد يحمل لهم مغزاه التقليدي الأول، فهو كما وصفه كارابانزانو طقس منقطع الصلة بغرضه. فهم يُمارسون الطقس القديم لكن عقليتهم حديثة فأسلافهم كانوا يحتفُلون ولا يقلقون لأن النموذج المعرفي يتبنونه يتسق مع الخطوات التنفيذية للطقس إذ كانوا يمارسونه في نموذج معرفي يعتمد على السحر وليس العلم وقد فقد هذا

(1) Carapanzano 1981.

الاتساق عندما تم حشر الختان قسراً في العلوم الطبية، وبذلك تحول الختان إلى تمسك بعادة تقليدية انقضت أغراضها في سياق غزته الحداثة لقد فقد وظيفته الاجتماعية كتدشين للرجولة، ولم يبق منه إلا هيكله الحقيقي الملموس المؤلم، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المبرر الأول لتختين المثقفين لأبنائهم هو خوفهم من الاختلاف يتضح أن وظيفته الجديدة أداة تحكم في أي نزعة للتمرد وعدم المسايرة، أي أداة للإبقاء على الجانب الاستبدادي المميز للتنظيم الاجتماعي العشائري الذي يصف دوركايم علاقاته باسم «التضامن الآلي»، لأنها تفترض التشابه التام بين جميع الأفراد، وأي خروج عن الانصياع للتشابه أو شبهة للتفرد تعد فوضى مدمرة للمجتمع، يستحق مرتكبها أقسى العقوبات[1] والمجتمع المصري يجمع بين الحداثة والمعايير التقليدية، فهو لا يعيش قطيعة مع الماضي، بل تجتمع في نسيج علاقاته أزمنة عدة، وهو ما يعبر عنه باجتماع «الأصالة والمعاصرة»[2] والطقس المصري قريب من الطقس المغربي في صفتهما كطقوس إعادة الطفل الذكر إلى أمه في حالة جديدة، يدل على هذا تكرار نمط استدعاء الأم بعد الختان لتحتضن الولد في شهادات المثقفين/المثقفات. إن حالة عايشة دليل على تشتتها بين الانصياع للعب دورها المرسوم في طقس تقليدي قديم يفرض عليها تلقي طفلها وهو في ذروة ألمه بالترحاب والضم،

(1) Durkheim 1984

(2) Armbrust 1996.

وبين تركيبتها العقلانيـة الحديثة التي تتعاطف مع ألم الطفل كفرد. هذا الصراع الذي خبرته عايشة مـع ختَان ولديها يدل على إدراكها لقوة المعارضة الاجتماعية للنـزعات الفردية. فهي تقول أن ضيقها بآلام ولدها لم يكن كافـيًا وحده لدفـعها لُمراجعـة موقفهـا عندما رزقت بولد ثان لأنها لم تكن مسلحة بمعلومات عن ضرورة الغَلَفة وضرر الخـتَان، وهذا معناه أنها تـدرك أن خضوعهـا لأحاسيســها وحدها فـوضى فردية منافيـة لما يقتـضيه العـرف السائد. وبذلك يكتـسب استـمـرار ختَـان الذكور مـغزى فـي سيـاسات الضـبط الاجتـماعي الـتي تحافظ على أدوات التـحكم الموروثة بتجـميلـها بمصطلحات مثل «الأصالة» ونقلها إلى سياق حديث مقبول، هو المؤسسة الطبية الحديثة. ومن العوامِلَ التي تجعل هذه المؤسسة تربة صالحة لرعاية عادة الختَـان أن الأطباء -كالسواد الأعظم من رجال مصر- مـختونون، وإجراء الخـتَان للمولُود يلعب دورًا نفـسيًا في طمأنة مثل هذا الطبيب على سوائـه النفسي والجنسي، مثلما يقوم بهذه الوظيفة بالنسبة للأب المختن[1]

ثانيا: دور المؤسسة الطبية:

رغـم أن د. منى تقـول أن الطبيـب لا يختن الطفل إلا بمعرفـة الأهل، إلا أن شهادات المثقّفين/ المثقّفات توضح أن الأهل يؤخرون الختـان إذا لم يبادر الطبـيب أو المُمرضات باقـتراح خـتَان الطفل، مثلَما حَدَث مع ابني د منى ود. نادر البكريين، وابن دينا وسعيد

(1) Goldman 1997.

ويتضح أيضًا من شهادة د. نادر أن المؤسسة الطبية تقحم نفسها بشكل متزايد في تشجيع الأهل على ختَان الأولاد فالمستشفى التي تلد فيها زوجته لم يعتد أطباؤها اقتراح تختين المواليد الذكور إلا مع ميلاد طفلهما الثاني. وعندئذ، قدم الاقتراح مقرونا بتحصين الطفل ضد الدرن، أي قدم في صورة عملية وقائية.

والختَان أصلاً ليس جراحة، بل طقس اجتماعي/ ثقافي فالممارسات التي تصاحبه تثبت مرجعيته الثقافية وليست الصحية، فلا توجد جراحة -ضرورية أو غير ضرورية- يقال لمن تجرى له «مبروك بقيت راجل» أو يحتفل بمرور أسبوع على إجرائها (سبوع) مثلما حدث مع شقيق د. فهمي، وكل هذه المراسيم والتهاني الطقسية التي ذكرها المثقّفون/ المثقّفات أعقبت حالات ختان أجراها أطباء ورغم كل الأساطير الطبية التي يحيط بها الأطباء الختَان، إلا أنهم في قرارة أنفسهم لا يتعاملون مع الختَان كجراحة حديثة رغم استخدامهم لأدوات جراحية حديثة في إجرائه. من أمثلة التصرّفات الدالة على هذا التجاوزات المهنية للطبيب الذي ختن ابن د. حسام ود. يارا، وتصرف د. حسام إزاء هذه التجاوزات. فبدلاً من أن يعلن اعتراضه على إهمال الجراح لمقتضيات التعقيم اللازمة لإجراء جِراَحة، استسلم لسلوك الجراح ودخل هو نفسه إلى غرفة العمليّات دُون تعقيم. هذان الطبيبان لم يكونا يتصرفان تصرفًا مهنيًا بل تصرفًا اجتماعيًا فقد كانا في هذه اللحظة ممثّلين للمجتمع، د. حسام، الوالد الذي يقدم جزءًا من جسد ابنه

قربانًا لُمسايرة العـادات،و الجراح، نائب المجتمع في تنفـيذ وفرض الانصـياع على هذا الطفل ليـصيـر مقـبولاً كـفرد في المجتـمع والحالتان ليسـتا من دواعي الجراحة كمهنة طبـية حديثة، لذلك لا عجب ألا يلتزم الطبـيبان بالمعايير المهنية عند إجـراء الختَان. بل أن الجـراح هنا نظيـر للكاهن في المجـتمـعات الـقديمة، راع ومنفـذ لفـروض الطاعـة وتـقـديم القـرابين، لذلك بلغت سـطوته على د.حسام أن عقلت لسانه عن البوح بامتعاضه من التجاوزات المهنية للجراح، بل جاراه فيهـا من المُلاحظ أيضًا أن معظم من يختنون الذكور أطباء تخصصـوا في طب النساء والتوليد، أي أنهم درسوا دقائق تركـيب ووظيفة أعـضاء التأنيث لا أعـضاء التذكـير، وهذا الوضع سائد أيضا في الولايات المتـحدة الأمريكية[1] وربما يدلّ على بقـايا أثرية لدافع تعديـل الأعضـاء الجنسيـة للذكر لتكتـسب خصوبة الأنثى بإسالة الدم منها[2]

وتلعب المؤسسـة الطبيـة دوراً في الترويج للخـتان عن طريق الكتابات التي يوجهـها الأطباء للعامة. وشـهادة د.يارا على تأثير كتاب د.سبوك على قبولها لتختين ابنها شاهد على ذلك والأهم من هذا أننا في مصر حين نُترجم طبعة من كتاب نُعيد طباعتها عند نفاذها دُون الرجُوع للطَبَعَات الأحـدث التي نقّحها المؤلف وراجع فيها بعض أفكاره. فدكتور سـبوك بالتحديد تراجع عن موقفه من

(1) Bigelow 1992.

(2) Bettelheim 1954.

الختان في طبعة سنة ١٩٧٦ من كتابه «رعاية المواليد والأطفال»، وحكى قصة هذا التراجع في مقال نشره سنة ١٩٨٩ قال د. سبوك في هذا المَقَال أنه اعتاد النصح بتختين المواليد في الطبعات السابقة من كتابه منذ ١٩٤ لشيُوع فكرة أن ختَان الزوج يقي الزوجة من سرطان عنق الرحم، وحتى لا يعرِض الطفل لصدمة في سن أكبر لكنه بعد أن اقتنع بعدم مصداقية هذه الأسباب يقول أنه لو رزق بطفل فسيتركه وشأنه بعد أن عرف الآن أن الختان ليس أرشد الاختيارات[1]

ثالثا: منطلقات الأطباء لرفض أو قبول إجراء الختان بأيديهم:

الأطباء الذين رفضُوا إجراء الختَان بأيديهم كانت دوافعهم إما مهنية صرفة، (د حسام ود سلمى) لعدم حبهم لتخصص الجراحة، أو يمتزج هذا الدافع مع دافع ذاتي نابع من عاطفة إنسانية رافضة للختَان بصفته انتهاكًا لجسد الطفل دون مبرر (د. ليلى، د. منى) أما الأطباء الذين قَبِلوا إجراء الختَان فانطلقوا من تجاهل جسد الفرد والتعامل مع الطفل على مستوى الجسد الاجتماعي الرمزي الذي لا يحس، فهم لا يُعاملونه كإنسان ؛ بل كصفحة تقبل أن ينقش عليها المجتمع رموزه. ولن يتأتى للأطباء هذا إلا لو اقتنعوا في قرارة أنفسهم أن الطفل ليس آدميًا كاملاً ويتضح وجود هذا الاقتناع لدى الأطباء من موقفهم المُتجاهِل لأحاسِيس الطفل الذي يختن، والذي عبر عنه د. نادر بقوله أنه لا يستطيع

(1) Spock 1989.

وصف مشاعر الأطفال الذين ختنهم لأنهم كانوا رضعًا ولم يكونوا أطفالاً كبارًا بما يَكفِي ليلحَظ عليهم أي انفعالات أو مشاعر وقد عبرت د. يارا عن موقف مشابه حين قالت أنها لم تكن تلتفت لمشاعر الطفل الذي تختنَه رَغم سمَاعها لصريخه، لأنها كانت تنهمك في التركيز فيما تفعله يداها دون توقف عند مشاعر من تفعل به هذا الاستئصال. ترتكّز هذه المواقف على الموقف الاجتماعي العام للمجتمع الذُكُوري الذي يضع الأطفال الذكور، مع النساء من جميع الأعمار، في مرتبة أدنى من حيث كائنة، ويعتبرهم موضوعات تابعة للجماعة وليسوا ذوات فردية
مما يشجع الأطباء أيضا على قبول هذا التحيز الاجتماعي التقليدي ضد الطفل وجود أساطير طبية عن فوائد الختَان ومضار الغلفة، وسيطرة هذه الأساطير عليهم لأنهم هم أنفسهم تلقوها وهم في موضع ضعف، كطلبة خاضعين لسلطة مؤسسة التعليم الطبي، وهي إحدى مراكز القوى الاجتماعية المحافظة لذلك يلحظ من خبرات الأطباء المثقّفين/المثقّفات رفضوا إجراء عمليات ختَان للأطفال مثل د. ليلى أو أجرو القليل منها ثم أقلعوا عن إجرائها مثل د. خديجة تعاطفوا مع الطفل كفرد، ومن أجروا الكثير منها، تجاهلوا الفرد وأخذ بقية الاعتبارات الاجتماعية والأسطورية في الاعتبار، . يارا ود. نظمي

رابعا: آليات تيسير قبول الختان

وسـواء كان المثـقّفـون/ المثقّـفـات أطباء أم غـير أطبـاء، تنم التجاربُ التي حكوها لي عن الآليات التي جعلتهم يقبلون تعريض أبناءهم للختَان أو إجرائه لأبناء الـغير وفـيما يلـي وصف لهذه الآليات.

١- الفصل بين الخبرات:

أهم سمات هذه الآلية أن يفصل الإنسان بين الخبرة الملموسة التي مر بهـا ويعرفها جيـدا وبين المعتقدات التـقليدية التي تتناقض معها، مـثل سعيد الذي عاش ١١ سنة من حيـاته بلا ختان، ولـم يعان من التـهاب المسالك البـولية إلا بعـد الختَان، لكنه كـان قلقًا وبادر بِختَان ابنه في سن عام بحجة الخوف من أن تتجمع قاذورات تحت الغَلَفة وتؤذيه. من جهة أخـرى، قد تكون بداية التشكك في مصـداقيـة الختَان أن ينتـبه الشـخص إلى التناقض بين المعتـقدات التقليدية الشائعة عن الختَان والخبرة العملية الملموسة معه، مثل أبو الفتوح، الذي عـبر عن دهشته وصـدمته في الاعتقـاد الشائع بأن الختان مثل قص الأظافر، لا يُؤذِي الطفل ولا يؤلمه، فعندما لاحظ احتقـان وجه ابنه بفعل الكرب الذي تعرض له أثنـاء ختَانه بدأ في التشكك فـي مصداقـيّة المعتـقدات التي كـان يؤمن بها عن خـتَان الذكور. حتى مثقَّفة معُارضة بشدة لختَان الذكور مثل د. ليلى قالت أنه لو قام بإجراء الختَان طبيب أكبر رتبة لصار الختَان أقل وحشية،

رغم أنها تُشبه الطفل الذي يجرى ختَانه بأرنب يذبح، أي أنها تفصل بين الحالة الدمويّة التي شاهدتها وبين اعتقادها بأن الدُربَة تحسن أداء الطبيب.

٢- تطبيع الأعراض المرضية:

أعني بهذه الآلية أن يُلاحظ الفرد عرضًا غير طبيعي على الطفل فيفسره على أنه حالة طبيعية. الأطباء هم الذين استخدموا هذه الآلية، سواء مع أبنائهم أو مع أبناء الآخرين. من أمثلة من استخدموا هذه الآلية د. أفكار التي فسرت النزف الذي أصاب ابنها وابن أختها بعد الختَان بأنه أمر طبيعي وتستخدم نفس الآلية لتبرير إحساس الأطفال المختونين بالألم: «كانوا متألمين بيصرخوا وبيعيطوا، بس أنا كان عندي إحساس إن ده شئ طبيعي وأنها تجربة طبيعية لازم يمروا بها، وهي أحد التجارب المؤلمة الطبيعية التي يجب أن يمر بها الناس في حياتهم لكي ينتموا للجماعة، مثل ثقب آذان البنات» وهذا المبرر أيضًا يرتكز على فكرة ضرورة التشابه بين أفراد العشيرة، وحتمية رضا الصغير بالألم ليُسر الكبار، وهي من علامات التنظيم الاجتماعي ما قبل الحديث[1]
د. يارا أيضًا استخدمت هذه الآلية لتبرير علامات السلوك المتوتر التي ظهرت على ابنها بعد الختَان، إذ أعطتها تفسيرات تبعد الشبهة عن الختان، وتصور توتّر الطفل على أنه سُلوك طبيعي وجزء من عملية النمو وتشير د. يارا إلى مناهج البحث الكمي لتبرر

(1) Durkheim 1984.

إرجاعـها للتغيـرات الكيفيـة التي لاحظتها على ابنهـا إلى عوامل النمو لا إلى الخـتَان. فهي تقُـول إنك وفقًا لـهذه المناهج لا يمكن الربط بين متغـيرين في وجود متغيرات أخـرى يحتمل أن تؤثر في المتغـير الثابت وبذلك تفتـرض أن إضفاء الصبـغة الطبيعـية على علامات التوتر العصبي التي تعقب الختَان أمر علمي.

٣- إضفاء الصفة المرضية على التركيب الجسدي الطبيعي:

الاعتقاد بأن الغَلَفَة قذارة ومسببة للالتهابات والسرطانات ييسر أخذ قـرار التخـلص منها بأي ثمن، حـتى ولو بالعذاب والمعـاناة للطفل ووالديه يأتي هذا الاعتقاد من الكتابات الطبية الغربية التي تراكمت منذ القرن التاسع عشر نتـيجة أبحاث ثبت خطأ منهجها، قام بها أطباء مُعظمهم يهود ومختونون[1] لكن لهذه الآلية أصل أيضًا في الاعـتقاد بأن كل شئ ليس في موضـعه الخاص بتصنـيفه يعتبر نجسًا، ومن ثم خطرًا[2] وحيث إنَّ للغَلَفَة صفات الأنوثة لا الذكـورة، تعتبـر دنسًا في جـسم الذكـر لا يطهره إلا الخـتَان، وينطبق هذا التفسير أيضًا علـى ختَان الإناث، حيث يتم تطهيرهن من البظر ذي الصـفـات الذكـورية، وتسـمى العـمليـة للجنسين «طهارة» ويحرص منفذو الختَان على إحاطة الطفل أو الطفلة بكل رموز التطهير من الدنس أثناء وبعد الخـتَان، سواء في سيادة اللون الأبيض في مـلابس الأطفـال المختـونـين (كـمـا حـدث مع

---

(1) Wallerstein 1980; Hodges 1995.

(2) Douglas 1965.

المثقّفين/ المثقّفات)، أو في إطعامهم أطعمة تعتبر طاهرة طقسيًا، أو في تعريضهم للبخور[1] بذلك يكون الجلباب الأبيض مُعادلاً بصريا للتعبير اللغوي عن الختَان بلفظ «طهارة»

٤- التحيز لنموذج إعلاء الثقافة على الطبيعة:

من أقوى الضغوط التي جعلت د. يارا تتجاوز تفكيرها النقدي وتقدم على تختين ابنها كلام الناس بأنه سيصير هو الشاذ الوحيد في المجتمع أي أن حالته العادية بحكم طبيعة خلقه تعتبر شذوذًا بحكم معايير الثقافة السائدة التي تدخلت في الطبيعة بقطع الغلَفة وفي هذا الموقف تحقير للطبيعة وإعلاء للثقافة عليها، وهو أحد المواقف المعروفة في المجتمع الذكوري والتي تَقف خَلف التمييز ضد النساء بوصفهن ألصق بالطبيعة من الرجال وأبعد عن الثقافة منهم[2] هُنا تمييز ضدّ الجزء ذي الصفات الأنثوية، أي على الأنوثة الرمزيّة، على غرار التمييز ضدّ الإناث الفعليات.

٥- تعميم الحالات الاستثنائية:

في حالات قليلة قد تُحدث إصابة غير مقصودة للغلَفة، مثل أن تنحشر في «سوستة» البنطلون. بعض الأطباء ينصحون بالختَان في هذه الحالة، وبعضهم ينصح بكسر السوستة مع إعطاء علاج دوائي للجزء المصاب برّرت د. خديجة ضرورة تختين الرضع

(1) Boddy 1989.

(2) Moore 1988.

روتينيًا بأنها شاهدت إصابة من هذا النوع أثناء عملها بمستشفى في بريطانيا واحتار الأطباء معالجة الحالة بالختَان. تستنتج د. خديجة من هذه الحالة الاستثنائية تعميمًا مخلاً بأن الغَلَفة ليست لها وظيفة مهمة لذلك لا ضرر من التضحية بها، سواء في حالات الإصابة الفعلية أو بدونها تحسباً لاحتمال حدوث إصابة في المستقبل.

خامسا: الختان وسياسات النوع

إن شهادة د. منى حول عبارة التهنئة التي سمعتها من قريبتها بعد ختَان ابنها تحمل الكثير من الدلالات. فإحساسها بما تحمله العبارة من أبعاد سياسية في علاقة الجنسين صادق، فالعبارة دالة على رؤية المجتمع للعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة كمعركة، وللختَان كإعداد للرجل لهذه المعركة «المرة دي أنت بتتعور بعد كدة أنت اللي حاتعور»، فهو يجرح أولاً ليَجرح في المستقبل، أي لأن المجتمع يعده ليكون سيدًا متحكمًا في علاقته بزوجته وهذا التفسير الاجتماعي له ما يعادله في علم النفس الثقافي، فعالم النفس رونالد جولدمان يرى أن من أسباب تمسك الأمريكيين بختان الذكور بعد تراجع الأوروبيين عنه أن المجتمع الأمريكي يعد الرجل ليكون عدوانيًا عنيفًا، والختَان جزء مقبُول من هذا الإعداد، فما يُفعَل بنا في طفولتنا نفعله في المجتمع في نضجنا[1] ويتشابه جزء من تجربة د منى مع ختَان ولديها مع تجارب الكثيرين من المثقّفين الذين ختنوا أبناءهم في سياق طبي حديث، ومع تجربة

(1) Goldman 1997

سعيد الشخصية مع ختانه في سياق ثقافي/اجتماعي تقليدي. ففي كل هذه الحالات لعبت النساء دورًا فعالاً في تنفيذ الختَان، سواء كن الممرضات اللاتي يعرضن على الأهل تختين المولود، أو اللاتي اشتركن مع نساء أسرة د. منى في حثها على ختَان ابنها، أو نساء أسرة سعيد اللاتي يكبلن الصبيان أثناء تختينهم. هذه المشاركة النسائية دالة على أن الختَان كما يجرى في الوقت المعاصر في مصر ما زال يحمل ملمحًا ثقافيًا عتيقًا كأداة لفصل الطفل عن عالم النساء وإدخاله إلى عالم الرجال[1] والنساء يُقدمن الأطفال طائعات إلى المجتمع الذكوري عربونا على قبولهن بالخضوع لسياساته

من الشواهد الدالة على علاقة ختَان الذكور بسياسات النوع والضبط الاجتماعي وجود فرق بين النساء والرجال من جهة، والشباب وكبار السن من جهة أخرى، في رد فعلهم تجاه ختَان الطفل الذكر يتّضح هذا الفرق من شهادات الأربعة أزواج من القرناء، التي تدل على أن الأمهات أكثر تصريحًا بإدراكهن لآلام أبنائهن الناتجة عن الختَان، وأنهن أقل تمسكًا بالختَان، أو أكثر ترددًا تجاه تنفيذه من الآباء. لكن بعد إتمام ختان الابن، وازدياد مرور فترة زمنية على واقعة الختَان، تتساوى الأمهات مع الآباء في تلمس تبريرات للختَان وتفسيرات غير مُؤذية لعواقبَه. ومن شهادات النساء والرجال عمومًا يبدو وجود ارتباط بين إنكار إيلام

(1) Turner 1967, 1985; Hastings 1980.

الختَان للولد وبين تقدم المثقّف أو المثقّفة في السن وعُلو قدرهما في المكانة الاجتماعية، وهي من علامَات ارتباط ختَان الذكور بسياسات القوة في المجتمع الذكوري، فتقدم السن وشغل المناصب القيادية تجعل أصحابها في موقف القوي، فلا يتعاطف مع الضعيف المحكوم إلاّ في حدود لا تهدد مكانتهم كمسئولين عن الضبط الاجتماعي[1]

سادسا: كشف أساطير الختان من واقع خبرات المثقفين/المثقفات

تكشف شهادات المثقّفين/ المثقّفات أن المعتقدات الاجتماعية والطبية المرتبطة بالختان لا ترقى إلى مرتبة الحقائق، وبذلك تندرج تحت الأساطير من هذه المُعتقدات الشائعة أن الختان يقي من التهابات المسالك البولية، لكن تجربة سعيد توضح خطأ هذا الاعتقاد، فقد عاش سليما معافى طوال ١١ عامًا من عمره، ولم يعان من التهابات المسالك البولية إلاّ عقب الختَان. من هذه المعتقدات أيضًا أن الطفل لا يشعر بالألم كالكبار وأن الختَان مأمون العواقب ولا يترك أثرًا في ذاكرة الطفل لكن تجربة ابن د. يارا وابني عايشة تثبت عكس ذلك، فقد تألم هؤلاء الأطفال وأدرك أهلهم ألمهم كصدمة، كما أن ابن د يارا أظهر علامات قلق نفسي لعدة شهور بعد الختان وقد تأثّر أيضًا نمط النوم والرضاعة لدى ابن صديقة د سلمى، وأبناء د منى، وأبناء عايشة، وابن دينا تتفق هذه العلامات مع الآثار السلبية النفسية للختَان التي ذكرها

(1) Janeway 1980.

الطبيب النفسي د.رونالد جولدمان (١٩٩٧) وتدل شهادات جميع الأطباء المثقّفين/ المثقّفات على حدوث الألم مع ختَان الرضع وتدل شهادة د.فهمي على عدم تأثير التخدير الموضعي، كما تدل شهادة د.نظمي على إدراك الأطباء لخطر التخدير الكلي. وقد ذكر بعض المثقّفين/ المثقّفات ملاحظته للنزف بدرجاته، سواء بدرجة متوسطة، مثلما حدث لابن د.أفكار وابن شقيقتها، أو بدرجة شديدة مما أدّى بالنواب المشرفين على د.خديجة إلى التوصية بإجراء تحاليل دم للرضع قبل ختَانهم حتى لا تتكرر هذه الحالات التي وصلت إلى درجة الخطر

و تدحض شهادات الأطباء من واقع خبرتهم العملية تنظيراتهم للختَان كجراحة. فكل الأطفال الذين ختنهم المثقّفون/ المثقّفات الأطباء لم يكونوا يعانون من أي علامات، أو أعراض مرضية تستدعي علاجا، ناهيك عن جراحة، وكلّهم أبدوا علامات كرب وألم، وبعض الأطباء لاحظ حدوث مشكلات. والأطباء أيضًا لا يُجرون تحاليل ولا يعطون تخديرا للطفل من أجل مصلحته، وبذلك لا يبقى من شروط الجراحة كعملية طبية إلاَّ القطع. وبانتفاء بقية الشروط العلمية للجراحة يكون هذا القطع طقسيا.

من الخُرافات الحديثة التي تروج للختان ضرورة تشابه الطفل مع الأب وبقية الرجال. لكن يتّضِح من شهادات المثقّفين/ المثقّفات عدم وجود تصنيف معياري لدرجة الختَان التي تجرى للذكور في

مصر، وبناء على ذلك يبدو أن شكل القضيب بعد الختَان لا يصير نموذجا موحدا، فبعض المختنين يكون لديهم بقية من الغلَفة، ولدى بعضهم تستأصل جذريًا، وبعضهم توجد لديه شرشرة بالجلد مكان ندبة الختَان، أو فستونات. وبذلك لا يؤدي الختَان إلى تشابه المختنين في المظهر (وهو أهم دافع ذكره المثقّفون/ المثقّفات لتختين أبنائهم)، ووجه التشابه الوحيد بينهم هو تعرضهم للقطع وهذا أيضًا دليل على أن الختَان ليس جراحة مقننة ذات درجات حسب نظام معرفي، بل عملية عشوائية يُجريها كل طبيب أو خاتن غير طبيب حسب نظام معتقداته ومن الشواهد الدالة على أن الختَان ينتمي إلى المعتقدات الطقسية وليس المعرِفَة العلمية قول أبو الفتوح بأن من مزايا عدم ترك قرار الختَان للإرادة الحرة للفرد بعد أن يصل لسن التمييز أن الرجل لو ترك بدون ختَان سيشعر بحرج في أن يذهب للطبيب ويطلب الختَان. فالختان إذن طقس سري دموي وليس جراحة، والجراح الذي يجريه يتقمص دور الكاهن المنفذ للطقس الدموي، فمن ذا الذي يحرج من طلب جراحة!!

(٣) تحليل اتجاهات المثقفين/ المثقفات نحو الختان

انقسمت عينة المثقّفين/ المثقّفات الذين حاورتهم إلى قسمين رئيسيين من حيث موقفهم من ختِان الذكور. قسم منهم انحاز إلى الصمت عن استمرار ممارسة الختَان أو أيّد استمراره بشكل مطلق، والقسم الآخر رأي ضرورة طرح الختَان كقضيّة جَديرةْ بإعادة

النظر، وأن من الممكن مناقشة الناس في ضرورة احترام سلامة أبنائهم. وقد كَشَفَت مبررات كل طرف عن عدد من التحيزات الضاربة بجذورها في توازُنات القُوى الاجتماعية، والتي شكلت الأساس الذي بنيت عليه المواقف والاتجاهات المختلفة.

تبدُو لدى مؤيدي استمرار الختَان سمات المثقّف المحترف[1] والذي شرحنا سلفًا أنه غالبًا ما يميل إلى المهادنة والموافقة أحيانًا على التعتيم على بعض المعلومات التي قد تهم فئات ضعيفة، والتي قد ينتج عنها تغير اجتماعي في مصلحة هذه الفئات الضعيفة. وينطلق هذا النوع من المثقّفين من ثلاثة أيديولوجيات أساسية. أهم وأبرز هذه المُنطلقات هي المسايرة للتقاليد الاجتماعية السائدة المستقرة، والموقف النسوي التقليدي الذي يرى أن قضايا النوع تخص أحوال النساء في المقام الأول، والسياسة العملية/ النفعية (البراجماتية) تشترك أيديولوجيتي المسايرة والموقف النسوي التقليدي في أنّهما يتعاملان مع الجسد على المستوى الرمزي الاجتماعي وليس الفردي المحسوس[2] وتتلخص أيديولوجية الموقف العملي/ النفعي في الاستنكاف عن طرق الأبواب الصعبة، وبذلك يكُون المعيار الحاكم لوضع جدول أولويات القضايا التي يختار أصحاب هذا الموقف تبنيها ليس عدالة القضية، بل مدى تمهيد الساحة التي سيدور عليها

(1) Gramsci 1971, Said 1996.

(2) Scheper-Hughes 1987.

الصراع حول القضية.

أما مُؤيّدو فتح قضيه القضاء على ختَان الذكور فتبدو لديهم سمات المثقّف الحر (الهاوي حسب وصف إدوارد سعيد)، والذي شرحنا سلفًا أنه متسق مع نفسه ويضع نفسه في خدمة مجتمعه عامة، والمُستضعفين منه خاصة، ولا ينحاز لمصالح الأقوياء، ولا يخشى المساعدة على خروج المعلومات الجديدة للنور حتى لو أغضبت هؤلاء الأقوياء ولا يجزع هؤلاء المثقّفون من فكرة مغايرة التقاليد السائدة ونقد نظام القيم المُستقر، ولديهم استعداد لخوض تجربة مجهولة الآفاق في سبيل قضيّة يقتنعون بعدالتها

أولا: الموقف النسوي التقليدي

من صاحبات هذا الموقف د. أفكار التي تبرر استنكافها عن طرح قضية ختَان الذكور بأن الرجال لم يبوحوا بشكاوى من الختان كما فعلت النساء وهي تتصور أن الرجال أكثر حرية في البوح بمشكلاتهم الجنسية وهي لا تنفي وجود مشكلات جنسية، بالذات لدى الرجال المتعلمين من الطبقة الوسطى، لكنها تنفي أي علاقة للختان بهذه المشكلات، وتعزُوها إلى أن التعرض لنار المعرفة يقلل الوظائف الحيوية. وهي ترى انه حتى في حالة بوح الرجال بمشكلاتهم فعليهم أن يُثيروا هذه القضايا بأنفسهم، فهذا ليس دور النساء، لأن الرجال في نظرها اقدر على تحقيق أهدافهم من النساء وهذه الحجة دالة على أن الموقف النَسوي التقليدي

الذي يرجح ابتعاد النساء عن إثارة قضايا النوع الخاصة بالرجال خلفه الإحساس المكتسب بالعجز عن تحقيق الهدف لدى النساء، وهو إحساس يسود النساء في المجتمع الذُكُوري التقليدي، ويبدو أنه يظل لدى النسويّات بدرجة أو بأخرى. ويظلّ لديهن كذلك إحساس بأنهن وكيلات المجتمع في تنفيذ المسكوت عنه من قضايا النوع[1] فالدُكتورة أفكار ترى أن الأب الذي يترك قرار ختَان الولد لأمه يعني أنه يترُكَه لرأي المجتمع، وبالتالي فهي ليست حرة في أن تختار ترك ابنها بلا ختان، فهي -هنا- لا تُمثلّ نفسها ولا رأي لها بالفعل، حتى لو بدا ظاهريًا أنها صاحبة الرأي والقرار في ختَان الابن.

د. خديجة مثقّفة أخرى من صاحبات هذا الموقف، وهي تعلن تعصبها للنساء فهي ترى ألاَّ تفتح قضية ختَان الذكور إلا بعد اختفاء أي صوت مُعارض لجُهُود القضاء على ختَان الإناث. وتقول أنها ليست على استعداد لتحمل مواجهة مؤيدي ختَان الذكور كما تفعل في حالة ختَان الإناث لأنها من أنصار الموقف النسوي، لذلك فهي على استعداد للوقوف ضد كل ما يضايق النساء أو يضرهن لأنهن لا يجدن اهتمامًا كافيًا من بقية القوى الاجتماعية، لكنها ليست مستعدة لفعل ذلك من أجل الرجال.

تدل آراء مثل هؤلاء النسويّات التقليديات اللاتي يُعرِضن عن المشاركة في الدعوة إلى وقف ختان الذكور بحجة أن مثل هذه

(1) Janeway 1980, Abd el Salam 1998.

الدعوة تخص الرجـال وهن لسن رجالاً على أنهن يتـبنين الفصل بين الجنسين على المسـتوى السيـاسي، فيـدركن أن وظيفـتهن هي الدفاع عن المرأة فقـط، والرجال عليهم الدفاع عن نفـسهم. لهذا حين تقبل المرأة منهن تختين ابنهـا فإنها تتعامل معـه على مستوى الجسـد الاجتـماعي الرمـزي، جسـد الرجل الذي تتـصارع مـعه وتخشـاه، وليس على مستوى الجـسد الفردي، جسـد ابنها الطفل الذي يحتاج لحمايتها وحنوها[1] وهو موقف مماثل لموقف الآباء الذين يقبلـون تختين بناتهم. ويدخل عنصـرُ الحسابات العـملية / النفعية أيضًا في حساب موقِف النسويات التقليديات، إذ يعتبرن أن الدعـوة لوقف خـتَان الإناث سـتـجلب تغـييـرًا في السـياسـات الاجتماعية لصالح النساء لكن لن يحدث هذا لو انتهت عادة ختَان الذكور لا تصبح هذه الحسابات ممكنة إلاَّ لو أصمت النساء آذانهن عن معـاناة أطفالـهن، ورأين في الطفل رمزًا للرجل المتـحكم في المرأة، وبالتالي لا يَتَعاطفن معـه. وهذا المنطق شبيه بمنطق الرجال الذين يضـعون تشـريعات الأحـوال الشخـصيـة وفي ذهنهم المرأة الزوجة التي يسـعُون للتحـكّم فيهـا، ويصمون آذانهم عن مـعاناة بناتهم وأخواتهم.

في هذا الموقف أيضـا ضـغط ضـمِني على الرجـال، فـقـد صرحت أكثر من مثقّفة بأنها سـتساند قضية ختَان الذكور لو صرح الرجال بأنهم أُصـيبوا بأذى جنسي منه، لكن طالما صـمت الرجال

(1) Scheper-Hughes 1987.

فهن أيضًا سيصمتن. لكن نفس المثقّفات يعرفن أن النساء صمتن طويلاً عن الختَان، ولم يبحن إلا عندما وجدن تشجيعًا. علاوة على ذلك، اعتادت هؤلاء المثقّفات على التهوين من شأن الآثار الجنسية السلبية لختَان الإناث حفاظًا على مشاعر المختنات ولعدم وجود دراسات كافية تثبت هذا الضرر. لكنهن حين تعلق الأمر بالرجال اشترطن أن يصرحوا بإصابتهم بضرر جنسي. يدل هذا الموقف برمته على أن هؤلاء النسويات التقليديات يرين أن قضايا النوع عمومًا والتشويه الجنسي خصوصًا قضايا صراع بين النساء والرجال في المقام الأول وليست قضايا حقوق للنساء والرجال. وينسحق الصغار تحت أقدام الكبار المتصارعين، فهم الذين يعانون الجرح والألم.

يتضح أيضا أن النسويات يحاربن ختَان الإناث على المستوى الأيديولوجي العام وليس على المُستوى الإنساني الخاص، لذلك يرفضن محاربة ختَان الذكور لأنه لن يخدم غايتهن الأيديولوجية. إن هؤلاء النسويات لا يَنْكرن وُجُود درجة من التشويه في ختَان الذكور كما هو الحال في ختَان الإناث. لكن رغم هذا التشابه يوجد فرق نوعي إيديولوجي يبعد نوعي التشويه عن التشابه، فختان الإناث يترتب عليه منظومة كاملة من أشكال القمع لا توجد في ختان الذكور، مثل تأكيد تَحريمَات الجسد، والمنع من اللعب والحد من الحركة خارج المنزل. يفسر تبني النّهج الإيديولوجي في التعامل مع قضية ختَان الجنسين استنكاف النسويات عن تناول

ختَــان الذكور، لــكنه يعني أيضًا أنهن يفــصلن مــا بين سيــاسات التحكم في أجساد الضعفاء لخلق صورة الذكورة والأنوثة بما يلائم رؤية المجـتمع الذكُـوري عن سياســات التحكــم الاجتمــاعي في النساء. لذلك لا نجـد للجســد الإنساني الفرد الذي يــعاني بغض النظر عن نوع صــاحــبه أو صــاحبتــه مكانًا في هذا النهج، لأن الموقف الأيديولوجي يخـتزل الجــسد ابتــداء إلى المستــوى الرمزي متخطيًا مستواه الملموس الإنساني[1]

ولكن توجـد دلائل لظُهُور وعي نســوي مختلف، يــأخذ في الاعتــبار أن الموقف النسوي ليس سعــيًا لسيــاسات نفعيــة لصالح النساء كنوع مع تجاهل بقــية سياسات التحكم في الــفئات الأخرى الضعــيفة، وأن العبــارة النسويّة الشهــيرة «الخاص سيــاسي أيضًا» تنطبق على جــميع هذه الفئــات التي جرى الاعــتياد عــلى ترحيل مصالحها الخاصة إلى ذيل قائمة الأولويات في إطار علاقات القوى الذكــورية، ومنهــا الأطفال بنــوعيــهم[2] وهذا الوعي يُكتــسب تدريجــيًا في ســيــاق العمل المــيداني ومــراجعــة المواقف ونقــدها وتنقيتها ومن تحليل تطور مواقــفي الذاتية في مسألة ختَان الذكور أجــد أن وعيي مــثل وعي من بدأن فــي تغيــيــر موقــفــهن من المثقّــفات- أتى تدريجيًــا فمثلاً، د. ليلــى عملت منذ زمن طويل ضد خــتَان الإناث دون أن يــطرأ على بالها أن تفــعل نفس الشيء

(1) Scheper-Hughes 1987

(2) Smith 1987.

بالنسبة للذُكُور، حتى تطور وعيها فبدأت في تغيير موقفها وقد حدثت لي تجربة مثيلة عندَما كُنت أُشارك في تأليف دليل عن الصحة الإنجابية. وقتها اقترح زميلي الذي كان يُؤلّف الفصل الخاص بالجِهَاز التناسُلي للذكر أن يصف الغَلَفة بأنها «الجلدة التي تقطع في الختَان» اعترضت وناقشته في اعتراضي حتى اقتنع وحذف هذا التعريف لكنني لاحظت بعد صدور الدليل أنني لم انتبه إلى أن الرسم التوضيحي المُصاحب يصور ذكرًا مختونًا يدل هذا على أن وعيي لم يكن مكتملاً، وإلاَّ لما اعترضت على العبارة حين كتبت بالكلمات ولم التفت إليها حين وردت بلغة رمزية أخرى هي الرسم. ومن العوامل المساعدة على نشوء الوعي النسوي الجديد لدى المثقّفات بشأن حق الذكر في السلامة الجسدية توفر المعلومات الحديثة لهن، فلها أثر في مساعدتهن على نقل مواقفُهن من ساحة نظام المعتقدات التقليدي إلى ساحة نظام المعرفة الحديث. وفي رأيي، بدون المعلومات تظل المثقّفات النسويات عرضة للتأثر بالهيمنة الاجتماعية التي تحكم ميزان القوى في مسائل النوع. ومن المَظَاهر الدالّة على أثر هذه الهيمنة أن د. ليلى كانت تسكت حين يرفض الأطباء اعتراضها على ختَان الذكور لأنها لم يكن لديها معلومات تُواجه بها هيمنتهم، ولم تكن الأسباب الموضوعية التي لديها كمعاينتها لفظاعة مشهد الختَان سلاحًا كافيًا يمكنها من الإصرار على إنهاء تقليد سائد في مؤسسة مهيمنة على الجسد، هي المؤسسة الطبية.

ظهرت دلائل هذا الوعي الجديد أيضًا في استجابات د. سلمى. فعندما علمت بالمعلومات الحديثة تجاذبها موقفان. أولهما أن العدل والحقّ يَقضِيان بنشر هذه المعلومات، وثانيهما أن هذه المهمة ينبغي ألا تقع على عاتق النسويات وحدهن. الموقف الأول نابع من إيمانها بأنه لا ينبغي السكوت على التعذيب والانتهاك الجسدي لأي فئة من البشر فلا ينفع أن تختار النسويات الدفاع عن سلامة جسد المرأة ويقبلن انتهاك بقية الأجساد، لأن هذا الموقف يمثل رؤية متكاملة للعالم، تراه من منظور الطرف الأضعف في أي علاقة بين طرفين. على اعتبار أنه لو تمت صياغة العالم بحيث لا تنتهك احتياجات وحقوق أضعف الضعفاء، فعلى الأرجح ستحصل الأطراف التي تحتل قمة الهرم الاجتماعي على حقوقها أيضا. وبذلك يُمكن ضمان امتداد شبكة الأمان الاجتماعي لتغطي الجميع أما الموقِف الثاني فتعبير عن غيظها من تراخي الرجال وبقية الفصائل -عدا النسويات وجماعات الإسلام السياسي- عن تبني القضايا التي تستدعِي اتخاذ مواقف جذرية. لذلك ترى أهمية تحريك الرجال ليتسلموا زمام المبادرة في قضية ختان الذكور

لا يعني هذا أن تخوف النسويَّات النشطات من خوض معركة ختَان الذكور «لأنهن لسن رجالاً» ليس بلا مُبررات وجيهة. فالنساء والرجال في المجتمع المصري لا يعرفون بعضهم البعض بما يكفي لأن تبادر النساء بِخَوْضِ قضية تمس الحالة الجنسية للرجال،

رغم أن العكس قد حدث، فأوائل من تناولوا ختَان الإناث بالنقد في مصر منذ عشرينات القرن العشرين كانوا أطباء رجال. يرجع هذا إلى أن النساء يتصورن الرجال كائنات مرهفة الإحساس أكثر من النساء فيما يخص حَالَتهم الجنسيّة، لذلك يتصورن أن فتح قضية ختَان الذكور سيثير ذعرًا جنسيًا لدى الرجال على المستوى القومي، وهو ما لم يتخيلنه أو يأخذنه في الحسبان عندما بادرن بفتح قضية ختَان الإناث. وطالما حذرنني من بث ما لدي من معلومات بهذه الحجة لذلك ترددت لفترة في مفاتحة الرجال والشبان الذين أعرفهم بمعلوماتي عن الختَان ووظائف الغَلَفة. فأنا أولاً امرأة، وثانيًا غير مختونة، أي أن خبرتي الشخصية بالختَان ليست خبرة ذاتية ملموسة، بل استقيتها من عملي الميداني. وما يبدو على السطح من خبرتي الميدانية في هذا المجال يخبرني أن النساء يُعانين من الختَان، ويصرحن بمعاناتهن، لكن الرجال لا يعانون. أذكر في إحدى ورِش العمَل التي حضرتها أن مجموعة من الفتيات أنشدن أغنية على لسان بنت تخاطب أمها مناشدة إياها ألا تختنها

ليه تطاهريني وتؤذي مشاعري يفضل جرح كبير جوايـــا

هذه الكلمات كَتَبها زميل لهن في الجمعية الأهلية التي يتبعنها استمع هذا الشاب إلى شهادات زوجته وزميلاته عن تجربة ختانهن، وكتب الكلمات من واقع هذه الشهادات. وعندما حضرت الجلسة التي غنّين فيها الأغنية كان مؤلفها جالسا

بجواري. عندما وصلت الفتيات إلى هذا الجزء، تنهد وقال لي: «ما احنا ـِضه بنتطاهر وننجرح» ثم صمت هنيهة واستطرد: «بس طهارتنا ما بتجرحش مشاعرنا» هذا الموقف برمته يدل على مدى خضوع الذكور لتعليمات المجتمع غير المكتوبة التي يتلقونها عبر عملية التنشئة الاجتماعية بإنكار ما يصيبهم من أذى عموما، وبالسكوت عن تجربة ختَانَهم خصوصًا. فالشاب تشجع بوحي اللحظة على البوح بألمه من الختَان، ليعود فينكره فورا، مستعيداً بذلك صورته كذكر ينبغي له قبول ختَانه علاوة على أن كتابته لنص الأغنية دال على هيمنته على النساء في محيطه، فهو الذي منحهن صوتًا عاليًا، وأخرج بوحهن الخاص إلى المجال العام. واعترافه علنًا بتساويه معهن في جرح المشاعر يسلبه هذه الهيمنة الرمزية، وهذا يفسر في نظري مُسارعَته بإنكار ديمومة الندبة النفسية لختان الذكور ليمحو أثر بوحه اللحظي

ثانيا: موقف النزوع نحو المسايرة

١- مسايرة العادات الاجتماعية والثقافة السائدة:

أصحاب هذا الموقف، مثل د حسام ود. حازم، يقبلون استمرار الختان لأنه يساير القيم الاجتماعية المتوسطة، أي ما يفعله أغلبية الناس العاديين. والمعيَار الذي يحكم ما إذا كانت أي ممارسة تجري على الجسد مقبولة أم مرفوضة في إطار هذه القيم هو مدى انتشارها بين أغلبية الناس العاديين، بغض النظرِ عن نوعية الممارسة

أو رضا الفرد بها لذلك يرفض هؤلاء المثقّفون/ المثقّفات الوشم، حتى لو ارتضاه ابنهم، لكنهم يقبلون الختان، مع أنه يجرى رغم أنف الفرد، أي أن جوهر المسايرة لديهم ذو طابع كمي بالمقام الأول.

٢- موقف المسايرة وبزوغ وعي ثقافي جديد:

والمسايرة لا تَقتَصِر على اتباع التقاليد الاجتماعية السائدة وسط الطبقة الوسطى، بل تستند أيضًا إلى مسايرة النمط الثقافي السائد وسط مثقّفي هذه الطبقة في شكله التقليدي. هذا النمط هو ثقافة الحداثة وعصر التنوير، ومن سماتها ومثلها العليا السعي إلى إخضاع الطبيعة للأفكار الثقافية المسبقة وليس التكيّف معها ومُراجعة النظرية في ضوء ما تتكشف عنه بنية ووظيفة الطبيعة على حد قول د. حازم: «كان دايمًا بيبقى عندنا فكرة وبنغير الدنيا علشان تبقى على شاكلة الفكرة» عبر د حازم (وهو أحد المتبنين لموقف المسايرة) عن وعيه بمحدوديات هذه المرجعية الثقافية للمسايرة، فهو يَعلَم أن النَمط الحداثي أدّى لدمَار بيئي ممّا دَفَع المثقفين لمراجعة مواقفهم الحداثية، وهو يرى أن بحثي يندرج تحت الفكر ما بعد الحداثي لأنه يطرح سؤالاً جوهريًا عن لماذا نغير الطبيعة ويستند إلى نظام مُعتقدات جديد يرفض استخدام القوة لانتهاك الطبيعة أرى من تعبير د. حازم عن الأساس الثقافي للمُسايرة أن الموقف المساير موقف انتقائي، فرغم إدراك د. حازم للجوانب الضعيفة في الفكر الحداثي، إلا أنه ينحاز إلى تغيير الطبيعة في البيئة الجسدية للطفل

رغم رفضه لذلك التغيير في البيئة الطبيعية المحيطة. يرجع هذا في رأيي إلى أن موقف قَهر الطبيعة ليس مجرد موقف حداثي، بل هو أيضًا موقف مُستند إلى التصور الذكوري الصرف عن العلاقة بين الذات والآخر، وهي علاقة قهر وانصياع، مقارنة بموقف التحاور مع الطبيعة واستيعاب الآخر

تدلّ هذه الانتقائية على أنه إذا كان للمعلُومات أثر في إنماء وعي جديد لدى النسويات يغريهن بتعديل موقفهن التقليدي من قضية كالختَان تمس سلامة جسد الذكر، إلاَّ أنه يرجح ألا تلعب المعلومات نفس الدور مع متخذي موقف المسايرة. فالمعلومات وحدها لا تكفي لتغيير الاتجاه في هذه الحالة، فهي تأخذ وقتًا كي تترسخ وتصير جزءًا من رؤية العالم لدى الفرد، لأنها تتضمن دعوة لاستيعاب الآخر وليس إخضاعه لفكر مسبق. يصدق هذا التفسير بشكل خاص لو كانت المعلومة تمس صورة الذات، فمثلاً، إذا عرف رجل مختن أن الغَلَفة هامة للذة الجنسية، قد تدفعه هذه المعلومة بالعكس للتمسك باتجاهه نحو قبول الختَان، رفضا للآخر المغاير له وخضوعًا للسائد اجتماعيًا في آن واحد، واستخدامًا لآلية الإنكار كوسيلة دفَاعية نفسيّة عن صورة الذات. نجد دليلاً على هذا التفسير في تحليل موقف من غيروا اتجاههم، وتحولوا من قبول الختَان بحجة المسايرة إلى رفضه بعد تفكير مُعّمق ومُراجعة فكرية لموقفهم من حق الإنسان مهما كان سنّه أو جِنسه في السلامة الجسدية. من أمثلة من مروا بهذا التحول أبو الفتوح، ولم تكن

لمعلُوماته عن وظيفة الغَلَفة أي دخل في هذا التغير لأنه لا يزال غير مُقتنع بِمَدَى أهميّة وظيفتها الجنسية فأنا أرى أن اتجاه أبو الفتوح تغير «رغم» المعلومة وليس «بسبب» المعلومة.

وحكاية الطفل سمسم التي ذُكرت سلفًا ذات مغزى دال على قوّة اتجاه المثقّفين نحو المسايرة، كما تدل على إمكانية تحول النسويات عن موقف المسايرة بناء على حصولهن على معارف أحدث. يمكن تفسير تصرّفات وأحوال سمسم على أكثر من محمل لكن المثقّفات اللاتي يعرفن سمسم فسرن تصرفاته وأحواله -قبل أن يعرفن المعلومات الجديدة عن وظائف الغَلَفة- تفسيرًا يتسق مع فكرتهن المسبقة عن ضرورة الختان لمسايرة العادات الشائعة، ولم يطرأ على ذهنهن تفسير آخر لتصرفاته، لا لشيء إلاّ لمعرفتهن السابقة بأنه غير مختون ففسرن مثلاً خجله من خلع ملابسه أمام الغير بأنه خجِل من اختلاف مظهره ولم يفسرنه على أنه حياء يتصف به بعض الأطفال من الجنسين فسرت أيضا د. سلمى ارتداد سمسم للتبوّل على نَفسه عقب سفر أمه بأنه بسبب رفضه لأن يساعده بقية أفراد الأسرة في استخدام الحمام، ولم تفسره مثلا بأنه من علامات القلق بسبب ابتعاد أمه عنه لكن د. سلمى نفسها أعادت تقييم موقفها بعد أن عرفت المعلومات الجديدة حقًا إنها مازالت تفسر تصرّفات سمسم بعدم ختَانه، لكن رؤيتها لحل مشكلته اختلفت فبدلاً من اقتراح حلّها بالختَان، صارت تقترح حلها بدعمه نفسيًا ورفع وعيه بإيجابية وضعه كطفل سليم جسديًا

٣- مسايرة الأساطير الطبية:

النمـوذج المعرفي السـائد الآن هو نموذج العلم الذي يعـتمـد النظريات الفكرية خطابًا شارحًا له، مقـابل الأساطير التي اعتادت القيام بنفس الوظيفة في تفسـير العالم في الأزمان القديمة التي ساد فيها السحر كنموذج معرفي. رغم ذلك، استمر كل زمن في إفراز أساطيـره، حيث «الأسطورة هي وسيلـة ينظم بها المجتـمع عالمه، ويعالج مشكلاته، ويحتفظ بصورة عن نفسه، ويضمن تبني أفراده لتلك الصورة»[1] والأساطيـر بهذا المفهـوم لا توجد في الكتب القديمة فقط، بـل تُوجد أيضًا في كتب الطب وكتـابات النسويات وغـيـر ذلك من الخطابات الحـديثـة، فـهـي في رأيي كل خطاب أيديولوجي منقول شفاهة أو كتـابة دون أن يتمتع بالصدق والثبات حسب أحدث مناهج واكتشافات العلوم الحديثة. وللمؤسسة الطبية أساطيرها الحديثة التي ينطبق عليها هذا التعريف للأسطورة، ومنها المبررات الطبية التي تدفع الناس لطلب تختين أولادهم. فقد أشاع حفنة من أطبـاء القرن التاسع عشر هذه المبـررات بناء على أبحاث غير دقيقة لم تصمد للنقد الذي أظهر تهافُت منهجها ونتائجها[2] وبذلك تهـبط هذه المبـررات إلى مـرتبـة الأسـاطيـر لا النظريات العلمية. والبَيانات التي أدلى بها المثقّفون/ المثقّفات الأطباء في هذا البحث تبـرهن بدليل عملي على افتـقار هذه الأساطيـر للصدق.

---

(١) كريب ١٩٩٩ :٨ ٢

(2) Wallerstein 1980, Gollaher 1994, Paige 1978.

فكل من أجرى منهم ختانًا لأطفال ذكور صرح بأن الأطفال لم تكن بهم أي علامات مرضيّة، مما يدل على أن «الدواعي الطبية» لختَان الذكور ليست إلاَّ أسطورة. وفيما يلي تفسيري لكيفية استخدام مبرر إجراء ختَان الذُكُور كجِراَحة وقائية للنساء من السرطان لتدعيم رؤية المجتمع الذكوري للعلاقة بين الجنسين.

في رأيي يقول هذا المبرر في تحليله النهائي أن جسد الرجل الذي لم يتدخل المجتمع بتعديله بالختَان خطر على المرأة. وبذلك يؤسس مبرر الوقاية من السرطان صورة الرجل كنوع بوصفه خطرًا بحكم طبيعته على المرأة كنوعٍ، وهذا يخدم سياسات القوى التي يهمها إفساد العلاقة الإنسانية السلمية بين النوعين، وإعادة تعريفهما على أن كل منهما يُشكّل خطرًا على الآخر مما يبرر العداوة الأزلية بينهما والنساء بقبولهن لتسليم أولادهن لمشرط الجراح لإزالة هذا «الخطر» يساعدن على استمرار هذه السياسة من سياسات القوى المجتمعية بين النوعين. ويمكن تفكيك الآلية التي يخدم بها ختَان الذكور هذا الهدف من أهداف سياسات النوع كالتالي: خلصت في دراسة سابقة إلى أن الرجال البالغين هم الممسكون بزمام ميزان القوى في المجتمع الذُكُوري، والحريصون على أن تميل كفته لصالحهم، وهم لن يتمكنوا من المحافظة على هذا الوضع في إطار علاقة سلمية محبة مع النساء. لذلك لابد أن يدرك الرجال النساء بوصفهن خطرات[1] ، وأضيف أن من

(1) Abd el Salam 1998.

مُـقتـضيـات استـمرار هذا الوضع أيضـا أن تدرك النساء الرجـال بوصفهم خـطرون. والجسد والنزعات الجنسـية من أفضل الأدوات التي يمكن اسـتخدامـها لتـأسيس هذه الرؤية للآخـر بين النوعين، ومن هنا تأتي كفاءة طقس الختَان والأساطير المروجة له كأداة فعالة لرسم صورتي الذكـورة والأنوثة بحيث تلبيـان احتيـاجات التنظيم الاجتماعـي للعلاقة بين الجنسين. حاول أطباء القرن التـاسع عشر وبدايات القرن العـشرين ترويج أسطورة الختَـان كجراحة وقـائية، لكن كـان من الصـعب على الرجـال البالغين الـقبـول بأن تمارس الطقوس الجراحية على أجسادهم، وإن سَهُل عليهم قبول ممارستها على أجسـاد أبنائهم، الذين يعتـبرون جزءًا من ممتلـكاتهم حسب قواعـد العلاقـات الأسرية الذكوريـة التقليدية. عـلاوة على ذلك يتسم الطفل بصـفتي الذكورة بحكم جِنسـه والضعف بحكم سنه، وبذلك يصلح كمـوضوع طَيِّع لتحـقيق الهدف السـياسي من هذا القطع الرمزي. وأرى أن خـتان الأطفال الذكور مـا زال أداة نافعة في العصـر الحديث كمـا كان في العصـور الأقدم لخدمـة تأسيس واستمرار رؤية كل من النوعين للآخر بوصفه خطرًا عليه.

في التنظيمات الاجتماعية المُبكّرة التي كان السحر هو النموذج الفكري السـائد فيهـا لعب الطبيب الـكاهن دورًا مزدوجًا كـمنظِّر ومنفذ للختَان في آن واحـد، ثم انتقل هذا الدور إلى رجال الدين مع انتقال السيادة للنمـوذج الفكري المهيمن من السحر إلى الدين. لكن عند هذه الدرجة من درجات تطور المجـتمع الذكوري انفصل

التنظيـــر عن الممــارســة، فــصــار المنظــرون هم رجــال اللاهوت (الحاخامات، والقسس والشيوخ)، والمنفذون هم حلاقو الصحة أو الموهل «الخاتن اليهـودي التقليدي» وفي المجتمعـات الحديثة التي يسود فيها العلم كنمُوذج فكري مُـهيمن ورثت المؤسسة الطبية دور المؤسســة الدينية في التـحكم في الأجســاد للحفاظ عـلى موازين القوى الاجـتماعـية، وانتقل إليـها تدريجيـا كل من دوري التنظير والتنفيـذ. وفي كل هذه النماذج خـدم الختَان هدف الحـفاظ على موازين القـوى السيـاسية بـين النوعين في المجتمـع الذكوري عن طريق تأصيل الصورة التقليدية لجسد الرجل لدى المرأة كخطر على المستويين الرمزي (بإضفاء صـفات القذارة وحمل الموت أو العدوى على الغلفة)، والاجـتماعي (بِفَـرض جِدَار صمت يجعل مناقـشة الختـان أو التشكيك فيـه من المُحرمات). وقد وجـدت في دراسة أخرى أجريتـها عن النساء وجود عـلاقات متداخلة ومـتشابكة بين التصورات الرمزية للجسد والسياسات الاجتماعية والسياسية المؤثرة في مجمل حياة النساء ككائنات اجتماعية ، سيما حين يتعلق الأمر بالجنس[1] ويبدو أن نفس العـلاقات تصدق عـلى كل الطقوس المتعلقة بالجـسد والجنس، سواء كانت تجـرى على رجال أو نساء. وبذلك يقبل الجمـيع قطع غَلَفات الذُكُور الرُضع تطبيـقًا للنظريات التي تبتـدعَهَا المؤسســة الطبية، وهي إحدى المؤسـسات المجتمـعية العاملة علـى الحفاظ على سـياسات النُوع التـقليدية في المجـتمع

(1) Abd el Salam 1998.

الذكوري[1] ومن يُؤرّقه ضميره لملاحظته للعذاب الذي يعانيه الطفل ورفضه لتصديق الأساطير عن شرعية الختَان وعدم قدرة الأطفال على الإحساس، يُشرع الطب في وجهه هذه النظريات لإسكات صوت ضميره الحي وإفحام حججه، وبذلك يُسلِّم بهزيمة حسه العام السليم أمام سطوة النموذج المعرفي السائد: العلم، ويجنح للمسايرة.

لقد أعطى المجتمع في الغرب الحديث الأطباء امتيازَ تقاضي ثمن المسايرة الاجتماعية من أجساد الأطفال، وهم يرفضون التنازل بسهولة عن هذا الامتياز. أمَّا في مجتمعنا المصري فقد حمل الكهنة في مصر القديمة لواء هذا الامتياز، ثم انتقل بمرور الزمن لورثتهم من الخاتنين وحلاقي الصحة. ومع دخول الطب الحديث إلى مصر على نهج النموذج الغربي انتقل الختان إلى أيدي الأطباء لقد كان الختان في المجتمعات ما قبل الحديثة تدشينا للرجل، ولم تكن له أي قيمة طبيّة أو جراحيّة. أما في المجتمعات الحديثة/ مابعد الحديثة؛ فقد احتفظ الختَان بوظيفته في نحت الجسد بما يُناسب رؤية المجتمع للذكورة، لكن هذه الوظيفة تراجعت إلى ما تحت سطح المبررات لتبرز طبيعة الختان كعملية جراحية ليس لها قيمة احتفالية أو طقوسية. وبهذا التغير أمكَن لُممارسة قديمة نشأت في مجتمعات بسيطة ما قبل حديثة أن تستمر في مجتمعات حديثة أكثر تركيبًا بفضل دخوله تعسفا في إطار الطب.

---

(1) Foucault 1975.

يكشف الختَان المنضوي تحت لواء الطب عن نوع آخر من علاقات القوى الاجتماعية داخل المؤسسة الطبية، هي علاقات التعليم الطبي. فمما ييسر تحويل الأطباء إلى أدوات لتنفيذ إجراء أليم مثل الختَان، له دور اجتماعي/سياسي دون أن يكون ضرورة صحية للفرد أن التعليم الطبي يعد طلبة الطب والأطباء المتدربين لتنفيذ التقنيات العلاجية المُضادة للظواهر التي تعلموا أنها ذات طبيعة مرَضِيَّة تنفيذًا آليًا، ويدربهم على الانفصال الوجداني عن الإنسان الذي ينفذون في جسده تقنياتهم، باعتبار أن التبلد الوجداني من سمات العلماء[1] ويتلقى المتدرّبون هذا الإعداد في إطار علاقات قوى هم فيها الطرف الأضعف الذي يصعب عليه معارضة مُعلّميه. وبذلك يتوحدون وجدانيًا مع معلميهم لا مع الإنسان المريض أو السليم الذي يتعاملون معه. فمثلاً يتم تدريب الأطباء على إجراء بعض الجراحات بلا تخدير دون أن يهتز لهم رمش، إمَّا لنقص الإمكانيات في المستشفيات العامة مع الاضطرار لعمل إجراءات مثل خياطة جروح طارئة مثلاً، أو لأن الجراحين القدامى يعتقدون أن بعض الفئات أقل إحساسًا بالألم بحيث لا يحتاج أفرادها لتخدير، وهو إرث انتقل لهم منذ بدايات اكتشاف التخدير في القرن التاسع عشر، حيث لم يكن يعطى إلا للفئات والطبقات التي يعتقد الأطباء أن أفرادها أرهف إحساسًا وكان يحجب عن الفئات التي يرون أنها أكثر خشونة أو أقل ثقافة

(1) Chamberlain 1991.

ومدنية، وبالتالي أقدر على تحمل الألم[1] وقد مررت أنا شخصيا بخبرة من هذا النوع عندما كنت طبيبة حديثة التخرج، وأقنعني أخصائي الجراحة بأن أزيل ظفراً مصابًا بالصديد لجندي بدون تخدير، بزعم أن هذه حالة بسيطة ولن تؤلم رجلا مثله. لكن الجندي أصيب بالإغماء بفعل الألم أثناء إجراء الجراحة، ومن يومها أصررت على عدم إجراء أي جراحة صغرى إلاَّ لو وفرت المستشفى المخدر المناسب يوضح هذا المثال مدى هيمنة سلطة التعليم الطبي إلى درجة تجعلنا كأطباء نتجاهل معلوماتنا النظرية ومشاعرنا الإنسانية، ويُفسر علاقات القوى التي يتبنى الأطباء في ظلها أسطورة الختَان، بدءا من تصديقهم لمبرراته الزائفة علميًا، إلى اعتقادهم بأن الأطفال لا يحسون. علاوة على ذلك يقدم التعليم الطبي للطلبة التحيزات والمَصَالح مع المعلومات والتقنيات، بتلقينهم أن الأعضاء المرتبطة بالإخراج قذرة بطبيعتها، وأن لهم مصلحة مادية مباشرة في إجراء جِراحات عليها وما زلت أذكر أحد أساتذة الجراحة وهو يقول لنا «خلوا بالكم كويس من العمليات اللي بتتعمل على الحتَت الوسخة دي لأن نص أكل عيشكم حاييجي منها» فإذا أضفنا أن مُعظم الأطبّاء لا يدأبون على الإطلاع على ما يُستجَد من اكتشافات في العلوم الطبية، ويظل ما تعلموه حتى تُخرجهم هو مرجعهم في الحكم في شؤون الصحة والمرض والعلاج لاكتملت صورة القوى التي تحكم اتجاهات الأطباء نحو ختَان الذكور

(1) Chamberlain 1991.

من جـهة أخـرى، يمكن للأطبـاء الذين يعـرفون المعلومـات الجديدة عن أهميـة الغَلَفة ومضار الختَان أن يخلقـوا علاقات قوى مختلـفة داخل المؤسسة الطبـية والمجتمع عامـة. فبكشف ودحض مبـرر الوقاية الصـحية الذي يُبـرز كأهم الحـجج التي يستند إليـها الناس لقبـول تختين أبنائهم سـيظهر الوَجه الخـفي للختَان كـأحد أدوات التـحكم في النزعـات الجنسـيـة للأطفال الـذُكُور، وأحـد الأسلحة الرمـزيّة التي تؤصل الوضع القائم في سـياسات العـلاقة التقليدية بين الجنسين[1] وعندئذ ستُـختفي «الفروق بين خـتان الجنسين»، ويتجـلّى الوجه القبـيح لختَان الذكـور عاريًا وصـريحًا كختان الإناث.

ثالثا: الموقف العملي/النفعي (البراجماتي)

بعض أصحـاب الموقِف العَمَلي/النَـفعِي مُقـتنعون بأن خـتَان الذُكور ينافي حـق الطفل في السلامة الجـسدية، ورغم اقـتناعهم بعدالة هذه القضـية يقبلون السكوت عنها بحجـة أن إثارتها ليست مسـألة عملية كخـتَان الإنَاث. وخلفيـة هذه الحجة أنهم يعتـبرون قضـايا النوع خاصـة بالنساء في المقام الأول، ومـن يثيرون خـتَان الإناث ينطلقون من أنهـا قَضِيَّة نوع وأنَّهـا ظلم للنساء. وبناء على هذا الفهم لا يكون من العملي إثارة قضـية ختَان الذكور لأنهم لا يرونها قضية نوع، أو على الأقل ليست كـذلك بقدر كبير لأنها لا تمس النساء يصل أصحاب هذا الموقف إلى حل وسط مع أنفسهم

(1) Boyd 1998, Goldman 1997.

بأن ينووا نصح معارفهم الأقربين لو سمعوا أنهم سيختنون أحد أولادهم، لكنهم لو سمعوا من يدافع عن ختان الذكور ويروج له في ندوة (و كثيرا ما يحدث هذا في الندوات التي تتناول مضار ختَان الإناث) فسيصمتون، بحجّة أن الرد على مثل هذه الآراء مجرد مناطحة صخر وسيؤثر بالسلب على حركة مكافحة ختان البنات. وبالتعمق في محاورة هؤلاء المثقّفين/المثقّفات عن تفاصيل الآثار السلبية التي يتصورونها لو فتحوا موضُوع ختَان الذكور علنا، نجد أن خوفهم ينصب على ذاتهم وصورتهم لدى الجمهور الذي يخاطبونه، ويتساوى في ذلك الرجال منهم والنساء. فأكثر ما يخافونه أن يتهمهم المستمعون بالعمالة للغرب والخلاعة. يخشى أصحاب هذا الموقف أيضا أن تجلب عليهم إثارتهم لهذه القضية هجومًا من قوى لن يقدروا على مُواجهتها، هي نفسها القوى المؤيدة لختَان الإناث التي تلجأ لمهاجمة من يعارضون الختَان باسم الدين ويجرؤ أصحاب الموقف العملي/النفعي على تحمل ومواجهة هذه القوى بالنسبة للإناث استنادًا إلى اقتناعهم الشخصي بأن ختَان الإنَاث قضية نوع وانتهاك لحقوق النساء.

البعضُ الآخر يرفضون فتح قضية ختان الذكور لأن حساباتهم الشخصية تخبرهم أن هذه القضية تحتاج لوقت وجهد كبيرين ليسوا على استعداد لبذله ومما يُيسر لهم الجهد في محاربة ختَان الإنَاث أن المعلومات عن تركيب ووظائف أعضاء التأنيث الخارجية اكتشفت منذ زمن بعيد وشاعت وسط الناس، بينما تركيب

ووظيفة الغلفة معلومات جديدة لا يعرفها الكثيرون، وأن هناك تاريخًا لجهود مكافحة ختَان الإنَاث في مصر منذ العشرينات يمكنهم أن يستثمروها ويبنوا عليها لكن الأهم من وجهة نظرهم هو تأكدهم من تضارب آراء الفقهاء حول ختَان الإنَاث، مما يسهل لهم مهمتهم في الدعوة ضده على المستوى السياسي أكثر مما تسهلها المعلومات الصادقة عن مضار ختَان الإنَاث كأداة. وبالتالي يهدرون المعلومات الصادقة عن مضار ختَان الذكور بحجة حداثتها، ولأنهم يفتقدون الأداة السياسية الأسهل التي تعودوها تضارب آراء الفقهاء والفقهاء المقصودون هنا هم الشيوخ البارزون في المؤسسة الدينية المعاصرة، لأن التضارب بين آراء الفقهاء بخصوص ختَان الذكور موجود على المستوى الفكري منذ زمن بعيد[1] لكنه ليس أداة سياسية طيعة جاهزة للاستخدام الفوري.

ومن حجج أصحاب الموقف العملي/النفعي أن ختَان الذكور ليس من أولويات العمل الاجتماعي. وهم هنا يضعون الأولويات على جدول أعمالهم وفقا لموازين القوى التقليدية، لأن الأولويات تختلف باختلاف الفئات الاجتماعية. ولما كان الذكور الرضع فئة لا صوت لها، لذلك لا توضع قضاياهم على رأس جدول الأولويات.

و من العوامل التي يبني عليها أصحاب الموقف العملي/النفعي حساباتهم أن الرجال لا يشتكون بسبب ختانهم

(١) أبو ساحلية   ٢

بينما تجأر النساء بالشكوى من الختَان، وهذا يكسب من يحاربون ختان الإناث قوة لن تكون لديهم لو طرحوا قضية ختَان الذكور. تتجاهل هذه الحجة أن الصورة التي يرسمها المجتمع للرجل تجعل الرجال يخشون البوح بقلقهم من أي شئ يمس قدراتهم الجنسية. وأن معظم الذكور يختنون قبل أن يكتسبوا اللغة المنطوقة، لذلك لا يمكنهم التعبير عن مشاعرهم تجاه الختَان باللغة المنطوقة كما تفعل النساء[1] لكن التجربة العملية أثبتت أن تشجيع الرجال على الحديث عن ختَانهم في جو مطمئن يجعلهم يتأملون تجربتهم ويعبرون عن عدم سعادتهم بانتهاك أجسادهم، وهذا وحده ضرر كاف ليكون من حق الرجال أن يسمع المجتمع صوتهم. حدث هذا في تجربتي المحدودة مع مجموعة من الرجال المصريين، كما حدث بعد إثارة قضية الختَان في الولايات المتحدة الأمريكية[2]

بناء على ذلك، يبدو أن أصحاب الموقف العملي/ النفعي من ختَان الذكور يتعاملون مع قضايا حقوق الفئات المستضعفة بمعايير الصفقات السياسية. بمقتضى هذه الصفقة يعقد المثقّفون المتبنون للموقف المؤيد لحق السلامة الجسدية وللموقف العملي/ النفعي معا اتفاقا غير مكتوب مع الأطراف الاجتماعية المتزمتة أتصوره كالتالي: «سنتبع بعض تعليماتكم، ونسكت عن انتهاك جسد

---

(1) Goldman 1997

(2) Bigelow 1992; NOHARMM 1994; Boyd 1998; Hammond 1999.

الطفل الذكر الذي يوفر لكم تشكيلاً رمزيًا للذكورة حسب فهمكم التقليدي لها مقابل السماح لنا بمعارضة تشكيل جسد الطفلة الأنثى ليلائم الصورة التقليدية للأنوثة» لذلك ينزعج الكثير من المثقّفين الذين يتبنون هذا الموقف من طرح قضية ختَان الذكور تحت الأضواء، بل يهاجمون من يطرحها، لأن هذا الطرح يفسد شروط الصفقة التي يتصورون أنهم سيحققون بمقتضاها نصرًا جزئيًا في قضايا النوع بذلك يتسم العمل في مجال سياسات النوع بقبول التمييز ضد الأطفال الذكور قبولاً ضمنيًا بالسكوت عن قضية الختان. أرى أن طابع المساومة الذي يتصف به موقف المثقّفين من أصحاب الاتجاه العملي/ النفعي الذين يعملون في مجال سياسات النوع يدل على مراعاتهم لعدم الإخلال الجذري بالتنظيم الاجتماعي الذكوري، وهو موقف متحفظ يتناقض مع تصريحاتهم المعلنة بأنهم يسعون لإحداث تغيير اجتماعي. فلا يكفي لجلب تغيير اجتماعي فعال الاقتصار على محاربة التمييز على أساس النوع، لأن التمييز ضد الفئات العمرية الأصغر سنًا محور لا يقل أهمية عن محور النوع في رفع دعائم بنية المجتمع الذكوري. وتكمن أهمية ختَان الذكور كأحد أشكال التمييز على أساس السن في المجتمع الذكوري في أن تعويد الناس على الخضوع لإيلام أطفالهم يضمن عدم تطور العقلية الناقدة لديهم. والعقلية الناقدة تهدد نظم الحكم المستبدة على كل المستويات، في الدولة والأسرة ولأن للأطفال الذكور قيمة أكبر من وجهة نظر الأسرة الذكورية

يكتسب ختَان الذكور مغزى كأداة لإعادة إنتاج شروط التنظيم الاجتماعي الذكوري القائم على قبول من يحتلون مرتبة أدنى في البنية الاجتماعية بالانصياع لمن يحتلون المراتب التي تعلوهم. فإخضاع الناس لإيلام أبنائهم بأيديهم كشرط للقبول الاجتماعي يضمن خضوعهم للسلطة أكثر من إخضاع الناس لإيذاء البنات. فأصحاب الموقف العملي/ النفعي محقّون في أنّ من يحتلون مراكز الهيمنة الاجتماعية على كل المستويات سيحاربون محاولات تحرير الناس من إيذاء صبيانهم، لكنهم ليسوا محقين في إغماض عيونهم عن أثر هذه المحاولات في جلب تغيير اجتماعي لصالح الفئات الأضعف والأحق بالرعاية.

رابعا: قبول المغايرة والمغامرة/ القيمة الاجتماعية لمناهضة ختان الذكور:

المثقّفون/ المثقّفات الذين أبدوا استعداداً لاتخاذ خطوات عملية لطرح ختَان الذكور انطلقوا من أن من حق البشر أن يعرفوا الحقائق التي يتوصل إليها العلم وتمس أجسادهم وحياتهم هم وأبناءهم ولا يخشى أصحاب هذا الموقف الصدمة الأولى التي يتوقعونها عند طرح القضية على المستوى العام، وهم على استعداد لامتصاصها والتعامل معها وهم يدركون أن الناس بحاجة إلى صبر ونفس طويل وهدوء في التعامل وعدم تصادم معهم مهما أبدوا من مقاومة فالموضوع لديهم ليس متعلقًا بطرح القضية نفسها بل بالطريقة التي تطرح بها، لأنهم يرون أن قضية التغيير

الاجتماعي لسياسات النوع كل لا يتجزأ، وأن الخوف من طرح قضية حتى لا تؤدي لخسارة قضية أخرى حجة باطلة، وأن من دور المثقّفين الساعين إلى التغيير الاجتماعي طرح كل الإشكاليات الكامنة في التصرفات اليومية المعتادة، والتي لا يرى الناس وجه الإشكال فيها من فرط اعتيادهم عليها. وهذا الرأي يتفق مع الفكر النسوي المنبثق من فلسفة الظواهر، والداعي إلى اختراق سطح أي ظاهرة اجتماعية «عادية» لكشف ما في الحياة اليومية من إشكاليات تنم عن توازنات قوى اجتماعية[1]

يذكرني موقف من يقبلون المغامرة برفض المسايرة وبمصارحة المجتمع بوجود معلومات جديدة تهز ما استقروا عليه من ممارسات عبر آلاف السنين بقصة الإمبراطور الذي خدعه بعض رجال حاشيته وأوهموه أنهم يخلعون عليه ثيابًا فاخرة لا يراها إلا الأذكياء، بينما هم في الحقيقة يقومون بحركات تمثيلية ولا يلبسونه شيئًا ورغم تشكك الإمبراطور خشي أن يعارضهم حتى لا يتهم بالغباء، وخرج عاريًا في موكب يجوب طرقات المدينة. وبالمثل خشي الناس أن يصرحوا بما رأوه بأعينهم من عري الإمبراطور. ولم يجرؤ على ذلك إلا طفل صاح «الإمبراطور عار» حاول الكبار «العقلاء» إخراس الطفل للوهلة الأولى، لكنهم همهموا تباعًا، ثم نطقوا بصوت مسموع، ثم صرخوا: «الإمبراطور عار».

(1) Smith 1987.

تعبـر هذه القصة مـجازا عن الوضع الحـالي لكل الاتجاهات الموجودة بين المثقفين في مـصر تجاه قضية ختـان الذكور. فالمسايرة هي تصرف «العـاقلين»، الذين لن يصرحـوا بأن الإمبـراطور عار حتى لو اخـترق عُرْيُه أعينَ الناس كـافة. الوحيـد الذي صرح في القـصة بعـري الإمبـراطور كان الطفل، المندفع، الذي ليـست له مصلحـة في ممالئة الإمبراطور، ومـعادله الموضوعي على السـاحة الاجتماعية المثقفون القابلون لـلمغامرة بطرح قضية الختَان. وكانت سقطة الإمبراطور أنه أولا لم يصدق عـينيه وصدق «خبراءه» الذين أوهموه بأن أيديهم الخاوية تلبسه أَنْفَس الثياب، وثانيا أنه تمادى في تصديقهم إلى درجة الخروج عاريا على الملأ. أما المعادل الموضوعي للإمبراطور فهم المثقفون الذين يساهمون في استمرار ختان الذكور بالسكوت عنه من منطلق نفـعي عملي أو من فـهم ضيق لقـضايا النوع، أو بتنفيذه بأيديهم في حالة الأطباء. وخبراء الإمبراطور هم المنظرون للختان في كل المؤسسات الاجتماعية، وبالذات المؤسستين الدينية والطبية. أما الجمهور الساكت عن عري الإمبراطور فمعادله جمـهور الناس العاديـين الذين يختنون أبناءهم مسـايرة للتقـاليد، والمثقفون الذين يكبـحون شكوكهم في الختَان خشـية الاتهام بعدم مـسايرة المقـبول اجـتمـاعيًـا. وعمـومًا، في النهـاية لا يصح إلا الصحيح. وكما نطقت الجماهير الصـامتة في نهاية القصة مصرحة بعري الإمبراطور، وكمـا بدأ الناس في الواقع المصري في مراجعة معـتقداتهم عن ختَـان الإناث، سيحـدث هذا أيضا بالنسبة لخـتَان

الذكور، وسيراجع الناس معتقداتهم بشأنه في ضوء المعلومات الحديثة عن تركيب ووظائف الغَلَفة وفي رأيي أن المثقّفين والمثقّفات الذين يسكتون عن ختَان الذكور لأسباب يرونها عملية لتحقيق هدف القضاء على ختَان الإناث يضرون بالمجتمع، لأنهم يعطلون تبني أفراده للفكر النقدي. والفكر النقدي وحده هو القادر على دفع الناس طوعا للتخلّي عن عادات بالية أليمة كختَان الإناث والذكور معًا فقد تبنى الناس هذه العادات طوال حقب زمنية طويلة لأنهم استسلموا لتعطيل عقولهم وتسليمها لممثلي المجتمع الذكوري. ولن تصلح نفس هذه السياسة لو استخدمها معارضو قيم هذا المجتمع في جعل الناس يتخلون عن ختَان الإنَاث، فتعطيل العقل هو تعطيل العقل في كل الأحوال، وحجب المعلومات وفرص الصراع الفكري حول ختَان الذكور عن الناس يطيل من أمد الكسل الفكري في المجتمع، لكن ليس إلى الأبد.

إن الخطوة الأولى نحو التغيير هي التحرر من الخوف من مواجهة الحقائق صراحة. وإذا كانت الحركة النسوية تسعى لإحداث تغيير حقيقي في موازين القوى لصالح النساء اللاتي طال قهرهن باسم قيم النظام الاجتماعي الذكوري، فلن يتسنى لهن النجاح في مسعاهن إذا دخلن في صفقة سياسية يمالئن فيها هذا النظام بالسكوت على أساليب تأسيسه لصورة الذكر بأدوات فيها تعذيب وتمييز ضد الأطفال الذكور كالختَان. فالعبيد وحدهم هم الذين

يدخلون في صفـقات يتواطئون فيـها على التخلي عن حقـوق فئة أخرى مـظلومة من أجل مكاسب فـئوية، قَلَّـتْ أو كَثُـرت. وقد تُحقِّق أدوات العبيد مكاسب محدودة وقتية لهم، لكنها لا يمكن أن تحقق لهم التحرر الكامل النهائي.



■ الخلاصـــة ■

أما بعد...

نظرة عامة على الختان

ختَان الذُكُـور عادة تقليدية ترجع إلى شعـائر الديانات العابدة للطبيعة. وكـثير من رجال الدين المسلمين واليهود يعتـبرونها أيضًا من شـعائر دينهـم لكن الختَـان في الصـغر لدى اليـهـود يفسـر اجتماعيًا على أنه بديل عن التضحية بالأبكار كما يُفسر الختَان في المراهقة لدى العرب والأفارقة والأستراليين كطقس قديم من طقوس الانتقـال للرجولة والطقـسان كـلاهما عـرِفًا قبل ظـهور الأديان السماوية(1) ويمكن تفسير القيمة الوجوبية التي اكتسبها الختان في اليهودية -عكس الإسـلام والمسيحية حـيث لم ينص على وجوب الختان في القرآن ولا في الأناجيل- بأن اليهـودية تمثل مجتمعا في

(١) أبو ساحلية ٢ ;Hastings, 1980

مرحلة مُبكّرة من التنظيم القبلي، يعتمد على التماثل والتضامن الآلي ويعتمد العقوبات الجنائية المغلظة لأقل خروج على التماثل، مثل التهديد بقطع نفس الذكر الذي لا يختن عن شعبه. أما المسيحية والإسلام فيمثّلان تنظيمات اجتماعية أقرب للمدنية المعتمدة على التضامن العضوي وبالتالي تقبل الاختلاف، وصورة الإله فيهما متعال غير دموي منزه عن الخطأ[1]

و قد لَعبت حفنة من الأطباء اليهود دورًا في إدخال ختَان الذكور إلى الطب الحديث في الغرب، وتبناه غيرهم من الأطباء في العصر الفيكتوري «لمنع وعلاَج» العادة السريَّة، وانتشر منها إلى المؤسسات الطبية في كل الدول المتحدّثة بالإنجليزية، والمستعمرات البريطانية[2] ومن هنا، صار ختَان الذكور جزءًا من الدراسة

(1) Durkheim, 1893.

(2) Wallerstein, 1980, Hodges 1995.

والممارسة الطبية في مصر وفي الوقت الراهن، تسير العلوم الطبية الحديثة في مصر جنبًا إلى جنب مع ممارسات العصور الوسطى. فبعض الحلاقين يحملون تصاريح رسمية بإجراء الختَان والفصد والعلاج بالعلق الطبي، وغير ذلك من إجراءات جراحية صغرى تعرف تاريخيا باسم الطب النبوي، ويعتقد أنها نشأت في الطب اليهودي[1] وبذا، تحالفت المعتقدات الغربية الحديثة والتقليدية القديمة على إرساء ختَان الذكور كجِراَحة يقبل الناس على طلبها والجراحون على إجرائها

لم يكتشف التركيب التشريحي والمجهري للغلفة، ومن ثم وظيفتها الجنسية إلاَّ في التسعينيات، ووجد أن الغَلَفة ليست مجرد قطعة من الجلد غير الحساس كما هو شائع بين مؤيدي الختَان، بل أن بها خلايا حسية متخصصة في الإحساس باللمس الخفيف. وعكس الشائع أيضًا، وجد أن رأس القضيب لا توجد بها مستقبلات عصبية متخصصة في اللمس الخفيف. كان المعتقد أن وظيفة الغلفة هي تغطية وحماية رأس القضيب، لكن من المرجح أن هذه وظيفة مُتبادلة بين هذين الجزأين من الأعضاء الجنسية الخارجية للذكر، أي أن وظيفة رأس القضيب هي حماية الغَلَفة أيضا. فكما تغطي الغَلَفة رأس القضيب وتحميها تعمل رأس القضيب كقالب يحافظ على شكل الغَلَفة ويوفر لها محورًا تتحرك عليه حركة انزلاقية أثناء الجماع. تُنَشِّط هذه الحركة الانزلاقية

(1) Gran 1979.

المستقبلات العصبية المتخصصة الموجودة بالطبقة الداخلية للغَلَفة فتولد إحساسا باللذة وتحافظ على ترطيب أعضاء طرفي العلاقة، وهذه هي الآلية الطبيعية للذة الجنسيّة لدى الذكر، والتي تحل محلها حركة احتكاكية أقل إمتاعا وراحة للطرفين في حالة ختَان الذكر[1] أجريت أيضا بعض الدراسات المبكرة عن وظائف غَلَفة الذكر[2] إلاَّ أن المراجع الطبية التي تدرس في مصر لا تذكر شيئًا عن هذه الوظائف. تثبت هذه الدراسات أن غَلَفة الذكر جزء صحيح سليم حيوي حساس لا يتجزأ من الجهاز التناسلي للذكر والختان ليس إلاَّ استئصالاً عمديًا لجزء سليم من العضو الذكري بدافع سطوة العادات والتقاليد، وبدون رضا الشخص الذي يقطع منه هذا الجزء، حيث أنه يكون طفلاً لا حول له ولا قوة[3] بناء على ذلك ينطبق تعريف التشويه على ختان الذكور، فالتشويه هو «إيقاع أي أذى أو إصابة ينتج عنها إزالة أو تغيير شكل عضو ظاهر أو له وظيفة هامة من أعضاء الجسم»[4] وبذلك يتشابه ختَان الجنسين ثقافيًا واجتماعيًا وبيولوجيًا

الختان: لمصلحة من؟

نخرُج من الحِوَار مع مجموعة المثقّفين/ المثقّفات من آباء

(1) Taylor 1996, Bigelow 1992.

(2) Deibert, 1933; Wright, 1970.

(3) Zoske 1998.

(4) Denniston, 1997.

وأمهات بأنهم لا يرون في ختان الأبناء مصلحة شخصية لهم، فهم يخضعون له رغم تألمهم لألم أبنائهم خوفا من مغايرة أشد التقاليد تزمتا وأبعدها عن التصرف الرشيد، مثلهم في ذلك مثل من يختنون بناتهم ممن يتوجه لهم هؤلاء المثقفون «بالتوعية الرشيدة» ومن الخبرات التي حكوها عن الختان نجد أنه ليس في مصلحة الطفل، فقد سردُوا ذكريات عن نزف وكرب وألم والتهابات بولية واضطرابات سلوكية بعد ختَان الذكور حتى المثقف الوحيد الذي تجاوز متاعب ختَانه لأنه جرى كطقس احتفالي فيه الكثير من الدعم النفسي والتعويض الاجتماعي ذكر أن هذا الدعم لا يفلح في تخفيف صدمة الختَان عن كل من يمر بالطقس، فقد ذكر حالات من معارفه الذين قاوموا وحاولوا الهرب من الختان، وأعلنوا بالقول والفعل رفضهم له وتألمهم منه. فختان الذكور كختَان الإناث- **لا يخدم الرجال ولا النساء ولا الأطفال كقطاعات اجتماعية، لكنه يخدم استمرار توازنات قوى العلاقات بين النوعين حسب قيم المجتمع الذكوري التي تفترض تشكيلاً رمزيًا معينًا لأجساد النوعين يدل على فصل صفات الرقة والحماية والحساسية عن الرجال وصفات القوة والصلابة والمبادرة عن النساء، أي أن له طبيعة سياسية رمزية، وليست المبررات الصحية إلاَّ حجة لتمرير هذه السياسات، حيث أن الختَان يضر الفرد ولا يفيده.**

يخدم الختَان أيضًا استمرار توازنات القوى بين ذوي السلطان

والخاضعين لهم في كل مُستويات التنظيم الاجتماعي عن طريق دعم الاتجاه نحو المسايرة، وازدراء الاتجاه نحو أخذ زمام المبادرة، والتمسك بالقديم، لا لشيء إلا لقدمه، وتعطيل التفكير النقدي في الأوامر العليا مهما تعارضت مع العقل، وكبت التعاطف مع أحاسيس الفرد ضد تقاليد الجماعة. وهذه الاتجاهات هي ما يخلق النموذج الذي يعبر عنه اللسان الشعبي بلفظ «عبد المأمور» وهو نموذج ينظر للحياة من منظور ضيق لا يرى الأشياء في كلياتها، ويخشى التجديد. فإذا كان من أهم أدوار المثقّف مراجعة وتطوير الأفكار وتطبيقاتها من أجل صنع مستقبل أفضل لكل فئات المجتمع ودفع عجلة التنمية في بلاده فلا يصلح له أن يتبع نموذج «عبد المأمور» لقد كان من أهم منطلقات المثقّفين الذين قابلتهم في نشاطهم ضد ختَان الإناث أن استمراره ضار بتنمية المرأة والمجتمع ككل، وهم مُحقون في هذا ولأن المواقف لا تتجزّأ، يجب أن ينتهج المثقّفون نُهُجا متسقة في مواقفهم من جميع القضايا المجتمعية لو وضع المثقّفون هذا الاتساق نصب أعينهم لفتحوا أذهانهم للحقائق الجديدة التي تسفر عنها اكتشافات العلوم الطبيعية والاجتماعية

ولأن المثقّفين ليسوا فئة متجانسة التكوين ومستقلة عن بقية فئات المجتمع، فهم أبناء وبنات المجتمع الذين استوعبوا تحيّزاته، فهم في رأيي في احتياج للتفاعل المستمر مع غيرهم حتى ترسخ المعارف الجديدة في أذهانهم وتحل محل معتقداتهم القديمة. لقد

حدث هذا في قضية ختَان الإنَاث بالإصرار على كسر حاجز الصمت، وساهم فيه عامة الناس من الجنسين بإعلان مواقفهم والحوار حولها، وبإسهام الباحثين في عدة مجالات، منها - بل من أهمها - علم الاجتماع، بالكثير من الدراسات التي حللت مختلف الاتجاهات والخبرات الاجتماعية مع ختَان الإناث. وأرى أن نفس نهج كسر حاجز الصمت وتشجيع الرجال على البوح واحترام من يبوح منهم، وتحليل خبراتهم، وإعطائهم تفسيرات مختلفة لتحيزاتهم سيعجل باتخاذ موقف متسق فكريًا وإنسانيًا من ختان الذكور كما حدث مع ختَان الإنَاث. بهذا تتضح رؤية الأمور في كلياتها، فالأنوثة والذكورة دعامتا سياسات النوع، ولا يمكن تغيير هذه السياسات بتعديل دعامة واحدة فقط، علما بأن تعديل هذه السياسات نحو مَزيد من المُساواة والتوزيع العادل للموارد الاجتماعية بين الجنسين سيعود بالخير على المجتمع ككل، بنسائه ورجاله.

الأطباء وختان الذكور

يلعب تحيز الأطباء ضد أعضاء الجنس والإخراج باعتبارها «قذرة» - دورًا كبيرًا في استمرار عادة ختَان الذكور فالمجتمع ينظر للأطباء على أنهم علماء ومانحين للرعاية الصحية، علاوة على أن طلب خدماتهم يفترض قدرة مالية معينة. لذلك ينظر المجتمع لمن يطلب خدماتهم ويتبع تعليماتهم (أو بالأحرى

تحـيزاتهم) علـى أنه الأكثـر علمًـا وثراء، وهي قيـم إيجابيـة في المجـتمع ولذلك أيضًـا يعتـبر وجـود الغلفـة دليلاً على الجـهل والإهمال والفقر بسبب احتقار الأطباء لها

لكن الأطبـاء يعرفـون أن الفم مثـلاً من الأماكن القـذرة في جسم الإنسـان بالمعيار البكتـيريولوجي الموضوعي، حـتى أن أحد أساتذتنا في كلية الطب كان يصف الفم بأنه أكثر تلوثًا من الشرج. لكن لا يوجد بين الأطباء من يندفع إلى استـئصال أجزاء من الفم أو خلع الأسنان على سبيل الوقاية بهـذه الحجة، لأنهم في المثالين السابقين (الفم والأعضاء الجنسية) يتصـرفون حيال الأعضاء المعنية بوحي من تحيزاتهم لا علمهم. وبتحليل أجـزاء الجسم التي يتحيز الأطباء ضدها، وبالـتالي يندفعون لاستـئصالها بدعـوى "الجراحة الوقائية" أو يفكرون في عدم جدواها، كتفكير د.أفكار في أصابع القدمين، سنجـد علاقة بين تحيّـزات الأطباء والتحـيزات الثقافـية التقليدية فقد وجدت بعض البُحُـوث الاجتماعية تحيزًا في بعض مناطق المغرب العربي وشمال أفريقـيا ضد اللهاة، حتى أن حلاقي الصحـة هناك يستأصلونهـا للأطفال كجراحـة طقسيـة توصي بها التقـاليد[1] ومعـادله لدى الطب الحـديث تقليـــد استئـصـــال اللوزتين بحـجة الوقـاية الذي سـاد حتى وقت قـريب ثم بدأ في الانحسار مع كـشف أهمية اللوزتين كجزء من جهـاز المناعة. وقد ساد تحـيز ثقافي تقليـدي ضد أقدام النسـاء في الصين فظلت عادة

(1) Prual 1994.

ربط أقدام الفتيات الصغيرات تمارس هناك حتى وقت قريب، وانتهت تمامًا حين كسر الصينيون حاجز الصمت المحيط بها. وهناك دراسة تربط بين ختان الإناث في أفريقيا وربط أقدام البنات في الصين[1]

ويشير استمرار الأطباء في إجراء ختان الذكور إلى حاجة البحوث الاجتماعية لدراسة العلاقة بين ممارسات مهنة الطب والتحيزات الثقافية التقليدية ضدّ بعض أجزاء الجسم بمزيد من التفصيل وفي الفصل الخاص بوصف خبرات المثقّفين/ المثقّفات مع الختان كثير من الشواهد على أن الأطباء لا يتعاملون مع الختان كجراحة علمية بل كجرح طقسي، فليتوقّفوا إذن عن مُمارسة ما لا دخل لهم به، فمن مصلحة المجتمع ككل أن يهتدي الطبيب في سلوكه بالعلوم الحديثة

وقد ثبت من معاملة الختان بمعيار العلم الحديث أنه جراحة تبحث عن مبرر فعلى مدار قرن ونصف من الزمان تحولت تبريرات الأطباء لختان الجنسين من العلاج إلى الوقاية، كما تغيرت دواعي التوصية بعمله لتلائم أكثر الأمراض إخافة للناس في كل عقد من عقود هذه الفترة، فتبدّلت الدواعي من العادة السرية إلى الأمراض الجنسية إلى السرطان إلى الإيدز ولما لم تصمد هذه المُبررات والدواعي للبحث المدقق كف الأطباء عن استخدامها لكنهم توقفوا عن تبرير وممارسة ختان الإناث، واستمروا في

(1) Mackie 1996.

ممارسة ختَان الذكور مبررين ذلك بمسايرة العادات الاجتماعية السائدة.

و قد آن أوان تجاوز مهنة الطب للنماذج القديمة التي سادت القرون الماضية في التعامل مع الجسد الإنساني، والتي وصفها فوكو في كتابه مولد العيادة[1] وتجاوزها إلى نموذج أكثر اقترابا من العلم وروح أخلاقيات المهنة في الألفية الثالثة. وأعتقد أن كسر حاجز الصمت المحيط بختان الذكور سيثير حوارًا واسعًا بين الأطباء كما حدث في قضية ختَان الإنَاث ومن شأن هذا الحوار استقطاب أكثر الأطباء تنورا وتجردًا علميا إلى جانب النموذج الجديد، وحثهم على التمسك بأول مبادئ أخلاقيات المهنة، أي الترفع عن إيذاء الإنسان، فالجراحة آخر الأسلحة العلاجية ولا يوجد أخلاقيا ولا علميا ما يسمى جراحة وقائية وستكون بداية مؤشرات هذا الاستقطاب إدراك الأطباء أن من العيب أن يظلوا يرددوا ما قاله بعض أطباء بريطانيا في العصر الفيكتوري، أي قبل احتلال بريطانيا لمصر ويتجاهلوا أن الختان يزيل أكثر مناطق العضو حساسية ويخل بالآلية الطبيعية للإشباع الجنسي. لقد تحررت أرض مصر، فهل آن الأوان لتتحرر عقول أطبائها؟

ولا ينبغي أن تقتصر مراجعة المؤسسة الطبية على ممارسة المهنة فقط، بل يجب أن تبدأ المراجعة من التعليم الطبي بأوسع معانيه فهناك ضرورة لنشر المعلومات الحديثة على العامة

(1) Foucault 1975.

وتدريسها لطلبة الطب والأطباء مع تشجيع الحوار حول التحيزات التقليدية في ضوء المعارف الجديدة لخلق تحيزات جديدة لصالح الأطفال، فلم يعد نموذج «ختم العلم» مناسبا لعالم اليوم الذي تتوالى فيه الكشوف العلمية بمعدلات غير مسبوقة، لذلك يعتبر من الخطر على أي مجتمع أن يعتبر العلوم ثوابت نهائية ومن واجب الطبيب ألا يستخدم أدواته (من جرعة الدواء إلى مشرط الجراحة) وفقا لتحيزاته الشخصية، بل وفقا لأحدث ما وصلت إليه العلوم الطبية فالسلاح في يد الطبيب يحركه العلم، وفي يد الجلاد يحركه القانون، وفي يد الجاني يحركه التحيز الشخصي.

و المؤسسة الطبية مسئولة أيضًا عن ترجمة العلوم الطبية لتيسير اطلاع العامة عليها فترجمة الكتابات العلمية ليست كترجمة الروايات الأدبية لأن العلم يتطور والفن لا يتطور، بمعنى أن الرواية أو اللوحة أو المعزوفة الموسيقية تحتفظ بقيمتها على مر الزمن لكن النظريات العلمية الأحدث تلغي الأقدم. فلابد من مراجعة الطبعات الأحدث من ترجمات العلوم الطبية حتى لا يكون نشر كتابات معتمدة على نظريات قديمة أداة تعتيم لا تنوير، ووسيلة لتجميد وعي العامة بدلاً من ترقيته.

المثقفات النسويات وختان الذكور

قالت د. سلمى بعد أن عرفت المعلومات الجديدة عن وظائف

الغلفة أنها شعرت بغصة وأن هذه المعلومات يجب ألا تحجب عن أصحاب الحق فيها وهذا موقف نسوي متسق، فلقد عانت النساء طويلا بسبب الصعوبات التي وضعها المجتمع في وجوههن لعرقلة سبل حصولهن على المعارف التي تتيح لهن تحسين أوضاعهن[1] ولن يجديهن أو يقويهن أن يلعبن نفس الدور الظالم - الذي لعبه معهن المجتمع الذكوري من قبل - بحجة أن المستفيدين من بث المعلومات الجديدة هم الرجال بالدرجة الأولى. فالحركة النسوية ليست من أجل النساء فقط كفئة بل من أجل بناء سياسات اجتماعية جديدة أكثر إنصافا للنوعين، لا سيما الأطفال منهن ومنهم. وبانتفاء المبررات الصحية الزائفة يسفر الختان عن وجهه القبيح: تقديم قربان اللحم والدم على مذبح المجتمع الذكوري.

و نجد مما سبق أن النساء المثقفات مرشحات في اللحظة الراهنة بدرجة أكبر من الرجال لبدء طرح قضية ختان الذكور، فهن أكثر استعدادا للتغير والكف عن ختان أبنائهن أو نصح غيرهن بالكف عن الختان. وهن مستفيدات أيضا من الدفاع عن الأطفال الذكور، فهذا الموقف كفيل بتدعيم صفوفهن بحلفاء من الرجال مخلصين للمرأة وقضاياها فالتأكيد على أن قضايا النوع تشمل الرجل أيضا وليست مقصورة على المرأة سيشجع الرجال أصحاب أكثر المواقف تقدمية على مناصرة حقوق النساء. ولا يعني هذا بالطبع التوصية

(1) Smith 1987.

بأن تهيمن النساء على هذه القضية، بل يعني التوصية بأن يبادرن بتشجيع الرجال على كسر حاجز الصمت، وبأن يساندنهم من موقع الحليف، ويتفهمن ما قد يبديه بعضهم من مقاومة وإنكار، لأن رفع الصوت بما ظل من المحرمات المسكوت عنها لآلاف السنين يتطلب صبرا ودأبا وإصرارا على إخراج القضية من حيز الصراعات السياسية والأيديولوجية إلى حيز الحق في السلامة الجسدية للجميع

وليس صحيحًا أن دفاع النساء عن حق الرجال في السلامة الجسدية وعدم التعرض للختان سيضر بقضية ختان الإناث، بل بالعكس، سيدحض الفكرة التي يروج لها بعض الأطباء من مؤيدي الختان حول إجراء نوع من الختان للأنثى يعادل ما يجري في ختان الذكر، باعتباره إجراء بسيطا "تجميليا" وغير ضار

و بذلك تكسب النساء من مراجعة موقفهن من قضايا الفئات المستضعفة الأخرى. المكسب الشخصي والمباشر هو حماية أطفالهن من أذى لا ضرورة له، بل له عواقب قد تصل للموت. و المكسب العام، وهو إثبات أن حركة حقوق المرأة ليست مجرد مطالبة بمكاسب للنساء فقط، بل تفيد النساء والرجال والمجتمع كله وبالتأكيد سيكسب المجتمع إذا اتسق مثقفوه التنويريون مع أنفسهم ومع ما ينادون به من كفالة حقوق الإنسان للجميع، رجالا ونساء،

وأطفالا وراشدين، وإذا تخلوا عن الخوف من التعرف على المعلومات التي تدعم هذه الحقوق ومناقشتها على أوسع نطاق، فالخوف يدفعهم إلى التعتيم على حقوق بعض الفئات الضعيفة لصالح تحيزات فئات أقوى، وهذا ما ينافي مفهوم حقوق الإنسان والفكر الحر الرشيد، وهي أمور يعلن المثقفون أنهم معنيون بإرسائها



■ المراجـــع ■

مراجع باللغة العربية:

- أبو ساحلية، سامي الذيب — **ختان الذكور و الإناث عند اليهود والمسيحيين والمسلمين: الجدل الديني** بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، ٢

- بارتون، بروس ب. وآخرون (تحرير). ١٩٩٧ — **التفسير التطبيقي للكتاب المقدس** نشرت الطبعة المترجمة إلى العربية في القاهرة: ماستر ميديا

- البنا، جمال — «وجهة نظر في ختان الذكور والإناث». أدب ونقد، فبراير ١٩٩٩ ص. ٩-١١

- الخشبة، غطاس عبد الملك ١٩٩٩ — **رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج**. القاهرة دار الهلال

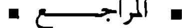
- السعداوي، نوال. ١٩٩٥
  - «حقائق الطب الجديدة في الولايات المتحدة حول ختان الذكور والإناث» **أكتوبر**، العدد ٩٥٤، ٥ فبراير ١٩٩٥، ص: ٧
  - «أوقفوا ختان الذكور». **روزاليوسف**. ٢١-١٢-١٩٩٨ ص: ٧٩-٨٢
  - «رسالة من أم شابة عن ختان الذكور» **روزاليوسف**، ٨-٣-١٩٩٩، ص: ٧٢
- السقا، د. الشيخ أحمد حجازي
  - **الختان في الشريعة اليهودية والمسيحية والإسلامية: لا ختان للذكور في دين الإسلام**. كنوز ٣ ٢ القاهرة.
- عفيفي، محمد. ١٩٧١
  - «مرشد الحيران في عملية الختان» **الهلال**. أبريل ١٩٧١، ص: ١٢-

- كريب، آيان ١٩٩٩ • النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس. الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون و الآداب. سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم ٢٤٤، أبريل ١٩٩٩
- ناصف، عصام الدين حفني ١٩٧١ • الختان ضلالة إسرائيلية مؤذية. القاهرة: دار الشعب.

مراجع باللغة الإنجليزية:

- Abd el Salam, Seham. *Female Sexuality and the Discourse of Power: The Case of Egypt.* Cairo: AUC, 1998. MA Thesis
- Abu Sahlieh, Sami Aldeeb. 1994. "To Mutilate in the Name of Jehovah or Allah: Legitimization of Male and Female Circumcision" *Middle East Research Associates.* Occasional Paper No. 21. April 1994.
- Armbrust, Walter. *Mass Culture and Modernism in Egypt.* Cambridge: Cambridge UP, 1996.
- Bettelheim, Bruno. *Symbolic Wounds: Puberty Rites and the Envious Male.* Illinois: Free Press, 1954.

- Bigelow, Jim. *The Joy of Uncircumcising: Restore Your Birth Right and Maximize Sexual Pleasure.* Aptos: Hourglass, 1992.
- Boddy, Janice. *Wombs and Alien Spirits: Women, Men, and the Zar Cult in Northern Sudan.* Madison: U of Wisconsin Press, 1989.
- Bordo, Susan. "The Body and the Reproduction of Femininity" In *Unbearable Weight: Feminism, Western Culture, and the Body.* Berkeley: U of California Press, 1993.
- Boyd, Billy Ray. *Circumcision Exposed: Rethinking a Medical and Cultural Tradition. California*: The Crossing Press Freedom, 1998.
- Carapanzano, Vincent. "Rite of Return: Circumcision in Morocco" *In The Psychoanalytic Study of Society.* No. 9, eds. Werner Muensterberger and L. Bruce Boyer. New York: Psychohistory Press, 1981.
- Chamberlain, David B. 1991 "Babies Don't Feel Pain: A Century of Denial in Medicine"



Paper presented to *the Second International Symposium on Circumcision.* April 30-May 3 1991. San Francisco, California.

- Cold, C.J; and J.R. Taylor. 1999. "The Prepuce" *The British Journal of Urology.* Vol. 83. supplement 1. January 1999:34-44.

- Connell, R. W 1998. "Reply" In "Symposium on R. W. Connell's Masculinities. *Gender & Society*, Vol. 12, No. 4 August 1998:474-477.

- Deibert, Glenn A. 1933. "The Separation of the Prepuce in the Human Penis" *Anatomical Record* Vol. 57, No. 4: 387-399. November 1933. Reproduced on website: *http://www.cirp.org/library/anatomy/deibert/*

DeMausse, Lloyd. n.d. (1) "Women and Children at the Cutting Edge of Historical Change" Accessed at: *http://cnet.unb.ca/sites/prevention_cruelty/cutting*

DeMausse, Lloyd. n.d. (2) "The Psychogenic Theory of History" Accessed at:

http: .net/~cspss/crime_prevention/theory

- DeMeo, J. 1997. "The Geography Male and Female Genital Mutilations. In Denniston, George C. and Marilyn Fayre Milos (eds.). *Sexual Mutilations: A Human Tragedy.* New York: Plenum,1997.

- Denniston, George C. 1994. "Iatrogenic epidemic" Paper presented to *the Third International Symposium Circumcision*, May 22-35 1994. University of Maryland College Park, Maryland.

- Denniston, George C. and Marilyn Fayre Milos (eds.) *Sexual Mutilations: A Human Tragedy.* New York: Plenum, 1997

- Douglas, Mary. "The Abomination of the Leviticus" In Leesa, William A., and Evon Z. Vagt (eds.) *Reader Comparative Religion.* New York: Harpers Row, 1965.

- Douglas, Mary. 1966. "Symbolic Pollution" Excerpts from *Purity and Danger.* London: Routledge and Kegan

Paul. pp:41-9, 128-36, 158-9. Reprinted in Alexander, Jefferey C. and Steven Seidman (eds.). Culture and Society. Cambridge: Cambridge UP, 1990. pp:155-159.

- Durkheim, Emil. 1893. *The Division of Labor in Society.* Reprinted in 1984 by the Free Press. New York.

- El-Mehiary, Theresa. "Attitudes Of A Group of Egyptian Medical Students Towards Family Planning" *Social Science and Medicine.* Vol. 19, no. 2 (1984): 131-134.

- Foucault, Michel. *The Birth of the Clinic: An Archeology of Medical Perception. New York: Vintage, 1975.*

- Foucault, Michel. *The History of Sexuality* (Vol. 1). London: Penguin, 1984.

- Frankenberg, Ronald. "Gramsci, Culture, and Medical Anthropology: Kundry and Parsifal or Rat's Tail to Sea Serpent?" *Medical Anthropology Quarterly.* Vol.2, no.4 (1988): 324-337.

- Goldman, Ronald. *Circumcision, The Hidden Trauma: How an American Cultural Practice Affects Infants and Ultimately Us All*. Boston: Vanguard,1997.

- Goldman, Ronald. "The Psychological Impact of Circumcision" *British Journal of Urology*. Vol. 83, supplement 1. January 1999:93-102.

- Gollahar, David L. "From Ritual to Science: The Medical Transformation of Circumcision in America" *Journal of Social History*. Fall 1994: 5-36.

- Good, Byron J. "Medical Anthropology and the Problem of Belief" Chap. 1 in *Medicine, Rationality, and Experience: An Anthropological Perspective*. Cambridge: Cambridge UP, 1994. pp.1-24.

- Gramsci, Antonio. "Culture and Ideological Hegemony" From *Selection from the Prison Notebooks*. New York. International, 1971. Excerpted from pp. 323-335 in Alexander, Jefferey C. and Steven Seidman (eds.) *Culture and Society*.

Cambridge: Cambridge UP,1990. pp:47-54.

- Gran, Peter. "Medical Pluralism in Arab and Egyptian History: An Overview of Class Structures and Philosophies of the Main Phases. *Social Science and Medicine.* Vol. 13B, No.4 (1979): 339-348.

- Gunnar, M. et al. "Coping with Adversive Stimulation in Neonatal Period: Quiet Sleep and Plasma Cortisol Levels During Recovery from Circumcision" *Child Development.* 56 (1985): 824-834.

- Gunnar, M. et al., "Adrenocortical Activity and Behavioral Distress in Human Newborns" *Developmental Psychobiology* 21(1988): 297-310.

- Hammond, Tim. "Long Term Consequences of Neonatal Circumcision: A Preliminary Poll of Circumcised Males" In Denniston, George (ed.), 1997. *Sexual Mutilations: A Human Tragedy.* New York: Plenum, 1997 Pp: 125-129.

- Hammond, Tim. 1998. "Why Masters and Johnson's 1966 Circumcision Study is Flawed" http://www.noharmm.org

- Hammond, Tim. "A Preliminary Poll of Men Circumcised in Infancy or Childhood" *The British Journal of Urology*. Vol. 83, supplement 1. January 1999: 85-92.

- Hastings, James, et al. "Circumcision" In *Encyclopedia of Religion and Ethic.* Vol. 3. Edinburgh: Clark, 1980.

- Hatem, Mervat. "The Enduring Alliance of Nationalism and Patriarchy" *Feminist Issues*. Spring 1986, 6 (1): 20-43.

- Hoare, Quintin, and Geoffrey Nowell Smith. *Selections From The Prison Notebooks Of Antonio Gramsci.* New York: International, 1971.

- Hodges, Frederic. "The Historical Role of Jews in the American Medical View of Circumcision" *The Online Magazine for Men with Families.* Accessed at *www. fathermag.com.* 1995.

- Immerman, Ronald S. and Wade C. Mackay. "A Biocultural Analysis of Circumcision" *Social Biology*. Vol. 44, No. 3-4, (1998):267-273

- Inhorn, Marcia. "Kabsa (A.K.A. Mushahra) and Threatened Fertility in Egypt" *Social Science and Medicine*. Vol. 39, No. 4, 1994: 487-505.

- Inhorn, Marcia C. Infertility and Patriarchy: *Infertility and Patriarchy: The Cultural Politics of Gender and Family Life in Egypt*. Philadelphia: U of Pennsylvania Press, 1996.

- Janeway, Elizabeth. *Powers of the Weak*. New York: Knopf, 1980.

- Karim, Mahmoud. *Male and Female Circumcision and Genital Mutilation*. Cairo: Dar el Maarif, 1996.

- Kennedy, John G. "Circumcision and Excision in Egyptian Nubia" *MAN*, Vol. 5, No. 2 (June 1970): 175-191.

- Lennon, Kathleen, and Margaret Whitford (eds.) *Knowing the Difference: Feminist Perspectives in Epistemology*. London: Routledge, 1994.

- Lerner, Gerda. *The Creation of Patriarchy.* New York: Oxford UP, 1986.
- Lightfoot-Klein, Hanny. "Erroneous Belief Systems Underlying Female Genital Mutilation in sub-Saharan Africa and Male Neonatal circumcision in the United States: a Brief Report Updated" Paper presented to *the Third International Symposium on Circumcision*, May 22-25, 1994. University of Maryland College Park, Maryland.
- Lightfoot-Klein, Hanny. "Similarities in Attitudes and Misconceptions about Male and Female Sexual Mutilations" In Denniston, George C. and Marilyn Fayre Milos (eds.) 1997. *Sexual Mutilations: A Human Tragedy*. New York: Plenum, 1997.
- Lorber, Judith. "Men's Gender Politics" In "Symposium on R. W. Connell's Masculinities" *Gender & Society*, Vol. 12, No. 4 (August 1998): 469-472.
- Mackie, Gerry. "Ending Foot-binding and

Infibulation: A Convention Account." *American Sociological Review.* Vol. 61 (1996): 999-1017.

- Martin, Patricia Yancey. "Why can't a Man Be More Like a Woman?: Reflections on Connell's Masculinities" In "Symposium on R. W. *Connell's Masculinities" Gender & Society*, Vol. 12, No. 4 (August 1998): 472-474.

- Meillassoux, Claude. "From Reproduction to Production: A Marxist Approach to Economic Anthropology" *Economy and Society*, 1(1) (1972): 93-105.

- Messner, Michael A. "The Limits of "The Male Sex Role": An Analysis of the Men's Liberation and Men's Rights Movements' Discourse" *Gender & Society*, Vol. 12, No. 3 (June 1998): 255-276.

- Moghadam, Valentine M. *Modernizing Women: Gender and Social Change in the Middle East.* Cairo: AUC Press, 1993.

- Montagu, Ashley. "Mutilated Humanity" A Paper

presented to *the Second International Symposium on Circumcision.* April 30-May 3 1991. San Francisco, California.

- Moore, Henrietta. — Henrietta. *Feminism and Anthropology.* Minneapolis: U of Minnesota Press, 1988.

- Noble, Elizabeth — "Just say No: Issues of Empowerment." A Paper presented to *the Second International Symposium on Circumcision.* April 30-May 3 1991. San Francisco, California.

- NOHARMM. — *Awakening: A Preliminary Poll of Circumcised Men.* San Francisco: the National Organization to Halt Abuse and Routine Mutilation of Males (NOHARMM), 1994.

- NOHARMM — "Estimated Worldwide Incidence of Male Circumcision Complications" *http://www.noharmm.org.*

- O'Hara, K. and J O'Hara. — "The Effect of Male Circumcision on the Sexual Enjoyment of the Female

Partner" *The British Journal of Urology*. Vol. 83. supplement 1. (January 1999):79-85.

- 'aige, Karen Erickson. "The Ritual of Circumcision" *Human Nature*. May 1978: 40-48. Reproduced at: *http://www.noharmm.org/paige.htm*

- Parsons, Talcot, and Edward Shils. "Values and Social Systems" In Alexander, Jefferey C. and Steven Seidman (eds.). *Culture and Society*. Cambridge: Cambridge University Press, 1990. pp:39-46.

- Pural, Alain et al. "Traditional Uvulectomy in Niger: a Public Health Problem?" *Social Science and Medicine*. Vol. 39, No. 8, (October 1994): 1077-1082.

- Sacks, Karen Brodkin. "Towards a Unified Theory of Class, Race, and Gender" *American Ethnologist*, 16(3) (Aug. 1989): 534-550.

- Said, Edward W. *Representations of the Intellectual*. New York: Vintage, 1996.

- Scheper-Hughes, Nancy. "The Mindful Body: a Prolegomenon to Future Work in Medical Anthropology" *Medical Anthropology Quarterly*. 1 (1987): 6- 41.

- Sharabi, Hisham. *Neopatriarchy: Theory of Distorted Change in Arab Society*. New York: Oxford UP, 1988.

- Smith, Dorothy. *The Everyday World As Problematic: A Feminist Sociology*. Toronto: University of Toronto Press, 1987 (reprinted 1991).

- Spock, Benjamin. "Circumcision It's Not Necessary" *Redbook*, April 1989. Reproduced on *http://www.doc.org*

- Taylor, J.R., A.P Lockwood and A.J. Taylor "The Prepuce: Specialized Mucosa of the Penis and its Loss to Circumcision" *British Journal of Urology*. 77 (1996): 291-295. Reproduced at *http://www.cirp.org/library/anatomy/tailor/*

- Trask, Haunani- Kay. *Eros and Power: The Promise of*

Feminist Theory. Philadelphia: U of Pennsylvania Press, 1986.

- Turner, Victor. *The Forest of Symbols: Aspects of Ndembo Rituals*. Ithaca: Cornell University Press, 1967.

- Turner, Victor. *On The Edge of the Bush: Anthropology as Experience*. Tucson: U of Arizona Press, 1985.

- Voskuli, Duane. "From Genetic Cosmology to Genital cosmetics: Origin theory of the Righting Rite of Male Circumcision" Paper presented to the *Third International Symposium on Circumcision*. University of Maryland College Park, Maryland. May 22-25 1994.

- Wallerstein, Edward. *Circumcision: An American Health Fallacy*. New York: Springer, 1980.

- Wright, Joyce. "How Smegma Serves the Penis" *Sexology* (New York), Vol. 37, no. 2 (Sept. 1970): 50-53.. Reproduced at: *http://www.cirp.org/library/normal/wright/*

- El Zanaty, Fatma et al. Egypt — *Demographic and Health Survey 1995*. Cairo: National Population Council, 1996.

- Zoske, Joseph. — "Male Circumcision: A Gender Perspective" *The Journal of Men'. Studies*, Vol. 6, No. 2 (Winter 1998):189-208.

- Zwang. Gerard. — "Functional and Erotic Consequences of Sexual Mutilations" In:Denniston, George C. and Marilyn Fayre Milos (eds.) *Sexual Mutilations: A Human Tragedy*. New York: Plenum, 1997.


ملحق

المثقفون والمثقفات الذين واللاتي حاورتهم

هذا الكتاب ثمرة لبحث اجتماعي ميداني اعتمد على عقد جلسات نقاش فردية شبه منظمة مع ٢٣ شخصا (اثنتا عشرة امرأة وأحد عشر رجلا)، تم اختيارهم من بين المثقفين والمثقفات الذين يعلنون أنهم من مؤيدي حقوق الإنسان ومعارضي ختان الإناث. وقد أشرنا إلى هؤلاء الناس فى متن الكتاب بأسماء مستعاوة لتجنيبهم الحرج ولكى نستبعد تأثر القارئ بتحيزه لأى منهم فمعظمهم شخصيات عامة معروفة لها مؤيديها ومعارضيها من بين هؤلاء المثقفين/المثقفات أحد عشر طبيبًا وطبيبة، منهم طبيتان وطبيب مختصين بأمراض النساء والتوليد والعقم (د. يارا، د. خديجة، د. نظمي)، والآخرون والأخريات من تخصصات أكاديمية وإكلينيكية أخرى غير جراحية (د. فهمي، د. سلمى، د. ليلى أطباء نفسيون ود. منى طبيبة أطفال د. أفكار طبيبة باطنة د. حازم يعمل فى فرع أكاديمى من العلوم الطبية د. حسام طبيب باطنة د. نادر طبيب صحة عامة) ومن بين المثقفين/المثقفات غير الأطباء اثنتان متخصصتان في العلوم الاجتماعية (حورية، نوسة)، والآخرون والأخريات من تخصصات مهنية مختلفة في مجالات العلوم الإنسانية والقانونية

والتنموية والفنون (نهـال ودينا وفتحي ومصطفى وسامـية يعملون بمجال التنمية عايشة وسـيف يعملان بمجال المهن القانونية أبو الفتـوح وصـلاح وسـعـيـد يعـملون بمهن فنـيـة) ثلاثة من المثقفين/ المثـقفات مسيـحيون (د. نادر، وحورية، ونهال) وبقـيتهم مسلمون. ثلاثة من المثـقفين/ المثقفات فوق السـتين سنة من العمر (د. نظمي، ود. ليلى، وحورية) والبـاقي تتراوح أعمـارهم ما بين الثلاثين والخمسين.

هذا الكتاب

يطرح هذا الكتاب قضية جد خطيرة، هي ختان الذكور ذلك أنها أكثر انتشار من ختان الإناث، سواء في مصر أو على مستوى العالم، إذ يقدر عدد من يختتنون من الذكور على مستوى العالم بـ ١٣,٣ مليون ذكر بينما تختن ٢ مليون أنثى سنوياً، ومعظم من يختتنون من الجنسين أطفال لا يمتلكون حق الرفض ولا الدفاع عن أنفسهم عند بتر جزء حي وسليم وحساس من أجسادهم حتى لو كان ضئيلاً.

ومنذ أن بدأت الحركة النشطة ضد ختان الإناث في سنة ١٩٩٤ لأنه انتهاك بدني للنساء يجحف حقوقهن الإنسانية لم يتطرق أحد من الأطباء أو الشيوخ الذين يدفعون الناس ضد ختان الإناث إلى ضرورة التوعية لخطورة ختان الذكور باعتباره قضية مسكوت عنها من قضايا التعامل مع الجسد البشري. بحكم ذكورة أو أنوثة الفرد (وهو ما يعتبر أحد اهتمامات دراسات النوع أى الدراسات المعنية ببحث الهوية والدور الاجتماعيين للرجال والنساء).

وعلى ذلك تقدم الدكتورة سهام عبد السلام في هذا الكتاب فرضية نظرية حول ختان الذكور، مع تدعيم تطبيقي عبر مجموعة من المثقفين حسب رؤية انطونيو جرامشي وإدوارد سعيد للمثقف العضوي- الذين تعرض ابناءهم إن سلباً أو إيجابياً لعملية ختان الذكور، مفندة خطورة تلك العملية من منطلق موقف عملي رافض للمساس بأجساد الأطفال أيا كان نوعهم ذكور أم إناث ومن ثم عدم القبول الاجتماعي لها بيسر، حتى وإن كانت الدراسات الطبية الأحداث قد أثبتت خطر الاعتقادات التي سادت لزمن بعيد عن الفوائد الصحية لختان الذكور.

والأكثر أهمية في الكتاب تناوله لقضية ختان الذكور عبر الدين والطب والثقافة والتاريخ ومن ثم تضمنه لإثبات أن عادة ختان الذكور ترتكز على تحيزات اجتماعية تهدف إلى الحفاظ على مراتب التسلط والخضوع بين النوعين الذكور والإناث و أن تحليل المعارف والمعتقدات والخبرات التي تشكل الخطاب القائم خلف هذا الاتجاه قد يكشف جوانب خفية في سياسيات القوى التي تحكم العلاقات الاجتماعية بين النساء والرجال في المجتمع الأبوي الراهن.

